

عبد الرحمن الرافعي

**تاريخ الحركة القومية
في مصر القديمة**
من فجر التاريخ إلى الفتح العربي



عبد الرحمن الرفاعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى من كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة سنة ١٩٦٣ ، وها هي ذى دار المعارف تخرج الكتاب فى طبعته الثانية مطابقة تمامًا للطبعة الأولى . وبعد فوات أكثر من ربع قرن ، ندعو الله أن ينفع به من يريد أن يرجع إلى تاريخ مصر قبل الميلاد بألاف السنين . والله ولى التوفيق .

سنة ١٩٨٩م

كريمات المؤلف

تقديم الكتاب

قبل أن أعرض لكتاب « تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة . من فجر التاريخ إلى الفتح العربي » . أحب أن أشير إلى الدوافع التي دفعت أستاذنا عبد الرحمن الراجحي إلى إخراج هذا الكتاب ، وبحكم التصاقى به ، وقربى منه منذ أن كنت طالباً بكلية الحقوق في السنة الثانية سنة ١٩٣٧ م ، وكنت عضواً بلجنة شباب الحزب الوطني ، ثم بعد تخرجى سنة ١٩٤٠ م من كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) والتحاقى بمكتبه محامياً تحت التمرين ، ثم إلى خطوات حياتى العائلية معه ، والعملية والحزبية باللجنة الإدارية للحزب الوطنى ، وفى غير ذلك من المجالات الأخرى . فإن ما دفع الراجحي إلى إخراج هذا الكتاب هو توفقه عن كتابة تاريخ مصر الحديث بعد سنة ١٩٥٩ م .

وبعد أن أخرج كتاب ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فى سبع سنوات ، الذى أنهى هذه المؤلفات بدءاً بالحملة الفرنسية وعصر المماليك وهى منشورة كلها فى نهاية هذا الكتاب ، وكل كتاب أعادت طبعه دار المعارف .

وأفضى إلى الراجحي بأن ثورة ٢٣ يوليو بدأت تغير من اتجاهاتها ومبادئها . وأن سليات كثيرة ظهرت فى خطوات رجالها ، وأنه يحسن التريث فى تسجيل تاريخها بعد ١٩٥٩ ، حتى تتكشف الأمور أمامه واضحة فيسجل التاريخ - كعادته - سليماً وفى حياد تام دون أى هوى أو غرض ، وتلك سمته الظاهرة فى مؤلفاته كلها . ولكن شأنه شأن الباحث الكاتب المدقق يصعب على نفسه أن يقف كلمة عن الكتابة ، فرجع إلى الوراء البعيد يسجل تاريخ مصر القديم ، منذ أن بزغ نور الشمس على أرضها ، فكان هذا الكتاب الذى أخرجه برغم معارضة أقرب الناس إليه من عائلته اللصيقة به ، ونصحته حرمه - وكانت على جانب كبير من الثقافة تشاركه أحياناً كثيرة فى رأى ، ومراجعة مؤلفاته معه - أن ابتعد عن تاريخ الفراعنة حتى لا تصيبك لعنتهم ، وهل ياترى تحقق هذا التفكير فكان أنه أصيب بالشلل فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، وأدى هذا المرض به إلى الوفاة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ ، ولكل أجل كتاب موقوت .

إن الراجحي بإخراجه هذا الكتاب برغم أنه يُعد فى نظرى كتاباً مختصراً . إذا قيس بالآلاف السنين التى جمعها ، ولكنه غطى هذه الحقبة الطويلة من تاريخ مصر حتى الفتح العربى .

ثم كان أن بدأ قبل مرضه وفى أثناء مرضه أن يكمل حلقات التاريخ كلها ، منذ الفتح العربى حتى عصر المماليك والحملة الفرنسية على مصر فى كتابيه « تاريخ الحركة القومية » الجزء الأول والجزء الثانى نهاية بدء عصر محمد على . فكان تفكيره إلى كتاب تاريخ مصر القومى من الفتح

العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية ؛ وخروج هذا الكتاب بعد وفاة الراجي بمعاونة الأستاذ الحنبل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ولولا جهده وما بذله لتكتملته بل صياغة أجزاء من الكتاب لما خرج إلى النور .

وبإخراج هذا الكتاب يكون الراجي قد أرخ لمصر تاريخها كله ، قديمه وعصوره الوسطى والحديثة ، خلال تلك الآلاف من عمر مصر ، وهو ما لم يستطع مؤرخ في العالم أن يؤرخ لبلده في كافة العصور والأزمان ، وأكفى هنا ببعض هذه الدوافع التي دفعت الراجي إلى قطع سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر الحديث من سنة ١٩٥٩ ، لأنها كثيرة ، ولا مجال هنا لذكر تفصيلاتها . ونشير إلى تقديم الكتاب بإبراز الناحية الشعبية ، وجهاد المصريين ، وظهور الحركة القومية لمصر ، وفي سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ، وإظهار الثورات التي ظهرت دفاعاً عن الشعب عن كيانه ، ويكفي أنه يرجع القارئ إلى هذه المقدمة الممتعة التي خطبها الراجي بقلمه في صدر الطبعة الأولى من الكتاب ، والتي نعيد تسجيلها هنا .

ويجمع الكتاب في فصله الأول الوحدة القومية ، والدولة القديمة ، وحضارة المصريين خلال عصر هذه الدولة ، حيث اكتشفوا التقويم السنوي ، والقراءة والكتابة ، وفن الطب وعلمه . وإقامة الأهرام ، ثم الفصل الثاني يتحدث الراجي عن الثورة الاجتماعية في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، والحملة في فلسطين وسوريا ، وظهور رجل من صفوف الشعب يتولى حكم البلاد . هو امنحات - هذا يدل على اتجاه الراجي نحو اعتناقه الحرية وجهاد الشعب ، وأثره في الكفاح والنضال لا كفاح الملوك والحكام !!

والفصل الثالث عن الدولة الوسطى ، وما ظهر فيها من إنشاء جامعة عين شمس مدينة النور والعلم والمعرفة ، وشق قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، وما ظهر من أعمال جليلة في شئون الري والعمارة ، وإنشاء خزان بحيرة موريث ، ويجمع الفصل الرابع ثورة الشعب على الهكسوس ، وتحرير مصر منهم ، وهذا يؤكد اتجاه الراجي في إبراز جهاد الشعب وكفاحه ، ثم الفصل الخامس عن الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الثلاثين . والفصل السادس أبرز الراجي أوج مجد مصر في عهد تحتمس الثالث ، ثم الفصل السابع عن إخناتون وثورته الدينية ، والفصل الثامن عن رمسيس الثاني وحروبه الدفاعية ، والتاسع عن الدفاع عن كيان مصر في عهد خلفاء رمسيس الثاني ، والفصل العاشر عن تحرير مصر من الاحتلال الآشوري على يد شعب مصر ، والفصل الحادي عشر عن ثورات الشعب على الغزو الفارسي ، والفصل الثاني عشر عن الإسكندر الأكبر وجلاء الفرس عن مصر ، ثم ثورات الشعب المصري على البطالمة ، جمعها الراجي في الفصل الثالث عشر . ثم تكلم في الفصل الرابع عشر عن مقاومة مصر للاستعمار الروماني وعصر الشهداء ، وانتهى إلى الفصل الخامس عشر عن الفتح العربي لمصر .

هكذا بين صدق الراجي فيما سجله في هذا الكتاب من وقائع وأحداث شرح أسبابها ووقائعها

ورتائجها ورأيه في كل ذلك معتقاً أفكار الحرية وكفاح الشعب المصري على مدى هذا العصر القديم من حياته .

وقد لقي هذا الكتاب رواجاً كبيراً لأنه جمع تاريخ الشعب المصري وحكامه خلال هذه الآلاف الطويلة من السنين ، وكان مرجعاً هاماً للباحثين في هذا التاريخ ، وسيلقى الراجي في جنات الخلد جزاء ما قدمه لمصر وشعبها ، في أمانة وصدق ، وأسلوب هادئ بسيط . والله المستعان .

المستشار حلمي السباعي شاهين

نائب رئيس هيئة قضايا الدولة الأسبق

مقدمة الكتاب

عندما كنت أؤرخ للحركة القومية في العصر الحديث ، رأيت أن عظمة مصر القديمة - مصر الفرعونية - تستهوي الباحث لاستقصاء تاريخها ، وخاصة حين طالعت ما نشره علماء الحملة الفرنسية منذ أوائل القرن التاسع عشر عن أمجادها ومفاخرها ، وما رسموه في مجموعاتهم ومصورتهم ، من آثارها الخالدة ، ولقد كان هؤلاء العلماء أول من كشفوا عن هذه الآثار كشفاً علمياً ، وكنت وأنا أطلع هذه الكشوف أتساءل : ألم تكن في مصر القديمة حركة قومية يصح أن تكون أساساً لتاريخها ، على غرار الحركة القومية في تاريخها الحديث ؟

لقد كنت موقناً بأن ما بلغته مصر القديمة من التقدم والحضارة والعظمة ، لا بد أن يكون له أساس قومي هو عماد الحركة القومية ، وهذا ما يقتضى البحث عنه وتدوينه ، ولكني أرجأت هذا البحث حتى أستوفى تاريخ الحركة القومية في العصر الحديث ، فلما أتممته بعون الله ، عاودتني فكرة التأريخ للحركة القومية في مصر الفرعونية ، فأخذت أعيد النظر فيما كنت أقرؤه عنها ، وأتعمق في دراسة المسائل التي تتصل بها ، وأرجع إلى المصادر التي طالعتني بها قراءتي السابقة وأزيد عليها مشاهداتي اللاحقة ، وخلصت لي من ذلك كله صورة واضحة المعالم لهذا التاريخ ، أود أن أعرضها في هذا الكتاب ، وإذا شاءت عناية الله فسأبعثها بصور أخرى للحركات القومية التي تعاقبت على البلاد حتى قبيل العصر الحديث .

والحركة القومية كما قصدتها وعنيتها ، هي الجهود التي بذلها الشعب المصرى بمختلف طبقاته في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ، والذود عن كيانها ، والدفاع عن استقلالها ، والثورة على كل من يعتدى على هذا الاستقلال ، ومقاومته بكل ما أوتيت من حول وقوة .

والتاريخ القومي للأمة لا يستكمل مداه إلا إذا كان مدروساً ومعروضاً على ضوء الحركة القومية ، فهي أساس وجودها ، ومبعث نهوضها وتطورها .
وإذا كان هذا هو جوهر الحركة القومية ، فأجلد بمصر القديمة أن يكون لها النصيب الأوفى والأول في هذا التاريخ .

فلقد كانت أسبق الأمم إلى تحقيق استقلالها ، وتأسيس حكومة نظامية ترعى هذا الاستقلال وتضطلع بمقومات الحضارة منذ عصور متناهية في القدم ولا غرو فتاريخها هو تاريخ الإنسانية .

ولقد حقت وحدتها القومية سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، حين استطاع الملك (مينا) أن يضم
الوجهين البحرى والقبلى، ويجعل منهما دولة موحدة كانت أعرق الوحدات القومية ظهوراً في
التاريخ.

ومن يومئذ تتابعت الأسرات الملكية في ظل الوحدة، وسارت بالبلاد قدما إلى الأمام، ولم
يسكت الشعب عن ضيم أصابه، وظل طوال القرون يناضل عن استقلاله، ويرد عنه كيد المعتدين
والغاصبين، وهذا أول ما عتيت يبرازه في صحائف هذا الكتاب.

يخصى المؤرخون الأسرات الملكية المصرية بثلاثين أسرة، يقسمونها إلى ثلاثة عهود هي:
الدولة القديمة، تليها الدولة الوسطى، ثم الدولة الحديثة، وقد سرت على مده التسمية في إبراز
الحوادث الهامة التي لها علاقة بالحركة القومية.

ففى أواخر عهد الأسرة السادسة من الدولة القديمة قامت ثورة اجتماعية شعبية ظهرت لها
نتائجها وآثارها على تعاقب السنين.

وسقوط الأسرة العاشرة بدأت الدولة الوسطى، من الأسرة الحادية عشرة إلى السابعة عشرة،
ثم تلتها الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الثلاثين.

وفى عهد الأسرة الثالثة عشرة رزقت البلاد بالغزو الهكسوسى الذى عصف باستقلالها،
واستمر يعيث به رذحا من الزمن، ثم لم تلبث مصر أن نهضت من كبوتها، وخاضت معركة الحرية
وطردت الهكسوس سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد على يد (أحمس) الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

وكان تحرير البلاد من الهكسوس قد غرس فى النفوس روح القومية، وحفزها إلى غزو معاقلمهم
فى فلسطين وسورية ولبنان، فشنت مصر عليهم وعلى حلفائهم فى عهد الدولة الحديثة حروبا
دفاعية بقيادة (تحوتمس الثالث) بطل معركة «مجدو» سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد، واستمرت
هذه الحروب عدة سنين حتى اطمأنت مصر على كيانها، ومن ثم اتسعت رقعتها، فامتدت
حدودها من أعالي الفرات شمالا إلى الشلال الرابع على النيل جنوبا.

ثم ظهرت أطماع الدول المعادية لها، وأخذوا ينتقصونها من أطرافها وبنايون من وحدتها ..
حين اتسوا منها ضعفا وانقساماً فى جبهتها الداخلية، فثبتت لحدق المحاولات، وامتاز عهد رمسيس
الثانى بحروبه الدفاعية فى سبيل حفظ كيان الدولة المصرية، وسار على نهجه خلفاؤه.

وتجددت الأطماع. واستطاع الآشوريون أن يغيروا على مصر ويحتلوا.

ثم لم يلبث الشعب أن أجلاهم عنها فى عهد (إسمنطيك الأول). وعادت لها حريتها
واستقلالها.

وظلت على ذلك إلى أن نكبت سنة ٥٢٥ ق. م. بالغزو الفارسى. ولم يكن هذا الغزو الذى
قاده قمبيز بمضيق كيان مصر، أو مضعف لمكانتها التى نالتها على تعاقب القرون، فإذا قارنا
هذا الغزو بما أصاب الإمبراطورية الرومانية حين استهدفت فى القرن الخامس بعد الميلاد لغزوات
أقوام من الهمج انقضوا عليها فدمروها ودكوا معالمها ومزقوا أوصالها، نجد أن مصر على العكس
قد صمدت للغزو الفارسى واحتفظت بكيانها وطابعها القديم، ولم تستسلم للمحتل المغير، بل
ثارت عليه المرة بعد المرة، إلى أن جاء الإسكندر المقدونى بحارب الفرس ويصادق المصريين،
فهزم دولة الفرس وقوض أركانها واستولى على عاصمتها.

وهناك احتلالان، قرأت فى بعض كتب المؤرخين أن مصر القديمة استهدفت لهما، فقالوا
عنها إنها خضعت يوما للحكم الليبى، ويوما آخر للحكم الأثيوبى، ولم يكن قولهم هذا قرين
الحق والصواب، فقد زعموا أن الأسرة الثانية والعشرين التى أسسها (شيشنق) فى القرن العاشر
قبل الميلاد هى أسرة ليبية أجنبية حكمت البلاد زمنا طويلا، والصحيح أن (شيشنق) هذا وإن
كان من أصل ليبي، ولكنه تمصر ومن قبله تمصر أسلافه منذ عدة فرون، ومضت عليهم بعد
أن تمصروا أجيال وأجيال، فصاروا من صميم المصريين، وقد كان حكم (شيشنق) مصريا
خالصا لمصر أعاد إليها بعض ما كان لها من عز وسؤدد، واحتل فلسطين واستولى على أورشليم
(بيت المقدس)، واستخلصها من اليهود، واستردت البلاد بفضل حملاته الموقفة نفوذها فى
آسيا، وورد اسمه فى التوراة لمناسبة حروبه مع الإسرائيليين.

وقال بعض المؤرخين أن (بيعنخي) أسس فى القرن الثامن قبل الميلاد الأسرة الخامسة
والعشرين، ووصفوه ووصفوا أسرته بالإثيوبيين وزعموا إن إثيوبيا حكمت مصر فى عهدهم.
والحق أن (بيعنخي) هو من النوبة لا من إثيوبيا وأصل أسرته من كهنة طيبة الذين هاجروا
إلى الجنوب، والنوبة جزء لا يتجزأ من مصر، وفيها الآثار الخالدة للفراعنة، التى يتحدث عنها
العالم المتحضر كل حين، فهم إذن من صميم المصريين، فلا هم إثيوبيون، ولا النوبة من إثيوبيا،
وأسرتهم مصرية لا شك فى مصريتها، والقول بأن إثيوبيا حكمت مصر يوما يتعارض مع الحقائق
التاريخية والجغرافية، وإطلاق اسم إثيوبيا على النوبة هو خطأ اتساق إليه بعض الرحالة الإغريق.

ولئن كان الحديث عن مصر القديمة أو مصر الفرعونية ينتهى على أرجح الآراء بالغزو
الفارسى. فتاريخ مصر الخالدة يقتضى أن استطرد إلى ذكر الثورات المصرية التى شبت فى وجه
الفرس، ثم استمرار هذه الثورات فى عهد البطالمة، ثم فى عهد الرومان، إلى أن حررها الفتح
العربى من الاحتلال الرومانى سنة ٦٤١ م. (١١٨ هـ) وبه ينتهى هذا الكتاب.
وأرى من واجبي أن أتوه بفضل العلماء المصريين والأجانب الذين سبقونى إلى الكتابة فى
تاريخ مصر القديمة، وقد ذكرت بعض مؤلفاتهم فى مراجع البحث اعترافا بفضلهم وتقديرا

للجهود التي بذلوها لإثارة السبيل لمن يجيئون بعدهم ، وإذا كان الموضوع الذي عالجه مقصورا على تاريخ الحركة القومية ، فإن ما كتبه واستقصوه كان شاملا لكل نواحي التاريخ ، فلهم الفضل أولا وآخر .

هذه نظرة عامة على الكتاب ، قصدت منها التعريف به إجمالا ، وسيجد القارئ في فصوله توضيحا ما أجملت ، وتفصيلا لما أوجزت .
والله ولي الهداية والتوفيق .

مايو سنة ١٩٦٣م

عبد الرحمن الرفاعي

سلسلة تاريخ الحركة القومية في العصر الحديث

نذكر هنا خلاصة مباحث المجلدات الستة عشرة التي ظهرت في تاريخ الحركة القومية

تاريخ الحركة القومية الجزء الأول

ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث
والمقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية
وتاريخ مصر القومي في هذا العهد

الفصل الأول	: نظام الحكم في عهد المماليك
الفصل الثاني	: تطور نظام الحكم في عهد الحملة الفرنسية
الفصل الثالث	: نظم الحكم التي أسسها نابليون في مصر
الفصل الرابع	: المجمع العلمي
الفصل الخامس	: المقاومة الأهلية في عهد الحملة الفرنسية ، في الإسكندرية
الفصل السادس	: في البحيرة - معركة شبراخيت - نهب القرى
الفصل السابع	: في القاهرة - واقعة إمبابة أو معركة الأهرام
الفصل الثامن	: عود إلى الإسكندرية - واقعة أبو نير البحرية - ديوان الإسكندرية
الفصل التاسع	: في رشيد
الفصل العاشر	: عود إلى البحيرة ورشيد
الفصل الحادي عشر	: في القليوبية والشرقية
الفصل الثاني عشر	: عود إلى القاهرة - سياسة الخنلات
الفصل الثالث عشر	: ثورة القاهرة الأولى سنة ١٧٩٨
الفصل الرابع عشر	: في المنوفية والغربية
الفصل الخامس عشر	: في الدقهلية ودمياط
الفصل السادس عشر	: المقاومة في الوجه القبلي
الفصل السابع عشر	: استمرار المقاومة في الوجه القبلي
الفصل الثامن عشر	: وثائق تاريخية
الفصل التاسع عشر	: مراجع البحث

الفصل الثامن	: الحرب في سورية والأناضول
الفصل التاسع	: معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ومركز مصر الدولي
الفصل العاشر	: دعائه الاستقلال - الجيش
الفصل الحادى عشر	: الأسطول
الفصل الثانى عشر	: التعليم والنهضة العلمية
الفصل الثالث عشر	: أعمال العمران والحالة الاقتصادية
الفصل الرابع عشر	: نظام الحكم فى عهد محمد على
الفصل الخامس عشر	: الحالة الاجتماعية
الفصل السادس عشر	: شخصية محمد على والحكم على عصره
الفصل السابع عشر	: إبراهيم باشا

عصر إسماعيل تاريخ مصر القومى فى عهد خلفاء محمد على

الجزء الأول

الفصل الأول	: الرجعية فى عهد عباس الأول
الفصل الثانى	: النهضة الوطنية فى عهد سعيد باشا
الفصل الثالث	: عصر إسماعيل - سياسته الخارجية
الفصل الرابع	: قناة السويس
الفصل الخامس	: السودان فى عهد إسماعيل
الفصل السادس	: الجيش
الفصل السابع	: البحرية
الفصل الثامن	: حروب مصر فى عهد إسماعيل
الفصل التاسع	: التعليم والنهضة العلمية والأدبية

الجزء الثانى

الفصل العاشر	: أعمال العمران
الفصل الحادى عشر	: مأساة الديون
الفصل الثانى عشر	: الحركة الوطنية والحياة النيابية
الفصل الثالث عشر	: خاتمة النزاع بين الخديوى إسماعيل والدائنين
الفصل الرابع عشر	: نظام الحكم فى عهد إسماعيل

الجزء الثانى

من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ومن جلاء الفرنسيين إلى ولاية محمد على

الفصل الأول	: إعادة الديوان فى عهد نابليون - نظام الديوان الجديد
الفصل الثانى	: الحملة على سورية
الفصل الثالث	: الحالة فى مصر أثناء الحملة على سورية ، بوادر الثورة فى الأقاليم
الفصل الرابع	: سياسة نابليون فى مصر بعد عودته من سورية - معركة أبو قير البرية
الفصل الخامس	: اضطراب الأحوال فى فرنسا ورحيل نابليون
الفصل السادس	: قيادة الجنرال كليبر
الفصل السابع	: معاهدة العريش
الفصل الثامن	: نقض المعاهدة ومعركة عين شمس
الفصل التاسع	: ثورة القاهرة الثانية سنة ١٨٠٠
الفصل العاشر	: مقتل الجنرال كليبر
الفصل الحادى عشر	: قيادة الجنرال منو
الفصل الثانى عشر	: هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر
الفصل الثالث عشر	: نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية - المناداة بمحمد على واليا على مصر - السيد عمر مكرم روح الحركة - ختام الثورة
الفصل الرابع عشر	: وثائق تاريخية

عصر محمد على

تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على

الفصل الأول	: الزعامة الشعبية فى السنوات الأولى من حكم محمد على
الفصل الثانى	: الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها
الفصل الثالث	: اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان
الفصل الرابع	: انفراد محمد على بالحكم
الفصل الخامس	: تحقيق الاستقلال القومى - حروب مصر فى عهد محمد على
الفصل السادس	: فتح السودان
الفصل السابع	: حرب اليونان

الفصل الخامس	: اتفاق لندن لتسوية شؤون مصر المالية سنة ١٨٨٥
الفصل السادس	: مفاوضات درومند ولف بشأن الجلاء سنة ١٨٨٥ - ١٨٨٧
الفصل السابع	: مسألة قناة السويس ومعاهدة الآستانة سنة ١٨٨٨
الفصل الثامن	: مسألة السودان واستقالة شريف باشا
الفصل التاسع	: إخماد السودان ووزارة نوبار
الفصل العاشر	: اقتسام أملاك مصر في السودان
الفصل الحادى عشر	: مصر والاحتلال إلى انتهاء حكم الخديو توفيق
الفصل الثانى عشر	: النتائج العامة للاحتلال الأجنبى
الفصل الثالث عشر	: وثائق تاريخية

مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨)

الفصل الأول	: نشأة الفقيه والعصر الذى ظهر فيه
الفصل الثانى	: المرحلة الأولى من الجهاد
الفصل الثالث	: المرحلة الثانية من الجهاد
الفصل الرابع	: جهاده سنة ١٨٩٥
الفصل الخامس	: جهاده سنة ١٨٩٦
الفصل السادس	: جهاده سنة ١٨٩٧
الفصل السابع	: حادثة فاشودة وجهاد الفقيه سنة ١٨٩٨
الفصل الثامن	: جهاده سنة ١٨٩٩
الفصل التاسع	: ظهور اللواء سنة ١٩٠٠ والجهاد الأكبر
الفصل العاشر	: الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤
الفصل الحادى عشر	: نادى المدارس العليا وتطور الأفكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦
الفصل الثانى عشر	: حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦
الفصل الثالث عشر	: جهاد الفقيه عام سنة ١٩٠٧
الفصل الرابع عشر	: تأسيس الحزب الوطنى - حزب الجلاء
الفصل الخامس عشر	: القضاء المحتوم سنة ١٩٠٨
الفصل السادس عشر	: الخديو عباس حلمى الثانى
الفصل السابع عشر	: مصطفى كامل والخديو عباس الثانى
الفصل الثامن عشر	: مصطفى كامل وتركيا
الفصل التاسع عشر	: مجلس شورى القوانين

الفصل الخامس عشر	: الحالة المالية والاقتصادية
الفصل السادس عشر	: الحالة الاجتماعية
الفصل السابع عشر	: شخصية الخديو إسماعيل

الثورة العربية والاحتلال الانجليزى

الفصل الأول	: حالة مصر فى أوائل حكم الخديو توفيق
الفصل الثانى	: مقدمات الثورة العربية وأسبابها
الفصل الثالث	: بدء الثورة : واقعة قصر النيل
الفصل الرابع	: أوج الثورة : واقعة عابدين
الفصل الخامس	: وزارة شريف باشا
الفصل السادس	: إنشاء مجلس النواب
الفصل السابع	: أزمة يناير سنة ١٨٨٢
الفصل الثامن	: وزارة البارودى
الفصل التاسع	: دستور سنة ١٨٨٢
الفصل العاشر	: أعمال مجلس النواب
الفصل الحادى عشر	: ظهور الفتن بعد انفضاض مجلس النواب
الفصل الثانى عشر	: مذبحه الإسكندرية
الفصل الثالث عشر	: مؤتمر الآستانة
الفصل الرابع عشر	: ضرب الإسكندرية
الفصل الخامس عشر	: القتال والمعارك فى الحرب العربية
الفصل السادس عشر	: التسليم
الفصل السابع عشر	: محاكمة العربيين
الفصل الثامن عشر	: شخصيات زعماء الثورة
الفصل التاسع عشر	: لماذا أخفقت الثورة العربية ؟

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢)

الفصل الأول	: سياسة إنجلترا فى السنوات الأولى للاحتلال
الفصل الثانى	: إلغاء الرقابة الثنائية وتعيين مستشارو مالى بريطانى
الفصل الثالث	: إلغاء مجلس النواب
الفصل الرابع	: إنشاء المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣

الفصل العشرون :	مصطفى كامل ومعاصروه
الفصل الحادى والعشرون :	شخصية الزعيم
الفصل الثانى والعشرون :	نماذج من خطب الفقيد

محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية (تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩)

الفصل الأول :	نشأة الفقيد العائلية الوطنية
الفصل الثانى :	المرحلة الأولى من الجهاد
الفصل الثالث :	المرحلة الثانية من جهاده
الفصل الرابع :	جهاد الفقيد سنة ١٩٠٩
الفصل الخامس :	جهاد الفقيد سنة ١٩١٠
الفصل السادس :	مؤتمر بروكسل سنة ١٩١٠
الفصل السابع :	محاكمة الزعيم وجهاده سنة ١٩١١
الفصل الثامن :	جهاد الزعيم عام سنة ١٩١٢
الفصل التاسع :	الزعيم فى منفاه
الفصل العاشر :	نادى المدارس العليا والحركة التعاونية
الفصل الحادى عشر :	جهاد الفقيد سنة ١٩١٣ وتطور الحياة النيابية
الفصل الثانى عشر :	جهاد الفقيد سنة ١٩١٤
الفصل الثالث عشر :	جهاد الفقيد أثناء الحرب العظمى الأولى
الفصل الرابع عشر :	مرضه ووفاته
الفصل الخامس عشر :	رثاء الزعيم وحفلات التأبين
الفصل السادس عشر :	صلى بالفقيد
الفصل السابع عشر :	شخصية الزعيم

ثورة سنة ١٩١٩

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١)

الجزء الأول

الفصل الأول :	مصر فى أثناء الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨
الفصل الثانى :	أسباب الثورة
الفصل الثالث :	تأليف الوفد المصرى وتطور الحوادث

الفصل الرابع :	مقدمات الثورة
الفصل الخامس :	الثورة
الفصل السادس :	الثورة فى الأقاليم
الفصل السابع :	ذكرياتى عن الثورة
الفصل الثامن :	مواجهة الثورة

الجزء الثانى

الفصل التاسع :	مهادنة الثورة
الفصل العاشر :	استمرار الثورة
الفصل الحادى عشر :	محاكمات الثورة
الفصل الثانى عشر :	لجنة ملنر والحوادث التى لا يستها
الفصل الثالث عشر :	مفاوضات ملنر
الفصل الرابع عشر :	استشارة الأمة فى مشروع ملنر
الفصل الخامس عشر :	التبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية
الفصل السادس عشر :	هل نجحت الثورة ؟ وفيم نجحت ؟

فى أعقاب الثورة

الجزء الأول

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٧)

الفصل الأول :	الانقسام الداخلى سنة ١٩٢١
الفصل الثانى :	الموقف السياسى بعد قطع مفاوضات عدلى
الفصل الثالث :	تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢
الفصل الرابع :	وزارة ثروت سنة ١٩٢٢
الفصل الخامس :	مصر فى مؤتمر لوزان ١٩٢٢ - ١٩٢٣
الفصل السادس :	وزارة محمد توفيق نسيم
الفصل السابع :	دستور سنة ١٩٢٣
الفصل الثامن :	الانتخابات العامة والبرلمان الأول سنة ١٩٢٤
الفصل التاسع :	وزارة سعد زغلول
الفصل العاشر :	وزارة زيور والانقلاب الأول
الفصل الحادى عشر :	اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه وعودة الحياة الدستورية

الفصل الثالث	: وزارات الموظفين
الفصل الرابع	: أسباب الثورة
الفصل الخامس	: فاروق يمهد للثورة

ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

الفصل الأول	: شيوب الثورة وانتصارها
الفصل الثاني	: الثورة في الحكم
الفصل الثالث	: إعلان الجمهورية وسقوط أسرة محمد على
الفصل الرابع	: محاكمات الثورة
الفصل الخامس	: الثورة والإخوان المسلمون
الفصل السادس	: أزمة مارس سنة ١٩٥٤ . واستقرار الثورة
الفصل السابع	: حلف بغداد والسعى في عزل مصر
الفصل الثامن	: مؤتمر بانديونج
الفصل التاسع	: صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية
الفصل العاشر	: الجلاء عن أرض الوطن
الفصل الحادى عشر	: سياسة الحياد
الفصل الثانى عشر	: دستور ١٦ يناير سنة ١٩٥٦
الفصل الثالث عشر	: تأميم قناة السويس
الفصل الرابع عشر	: العدوان الثلاثى على مصر . وإخفاقه
الفصل الخامس عشر	: مصر بعد فشل العدوان عليها
الفصل السادس عشر	: الجمهورية العربية المتحدة
الفصل السابع عشر	: السياسة الاقتصادية للثورة
الفصل الثامن عشر	: السياسة الاجتماعية للثورة
الفصل التاسع عشر	: وثائق تاريخية

الفصل الثانى عشر	: الوزارات الائتلافية
الفصل الثالث عشر	: شخصية سعد زغلول
الفصل الرابع عشر	: الدستور والحكم المطلق

الجزء الثانى

(تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧) إلى وفاة الملك أحمد فؤاد سنة ١٩٣٦

الفصل الأول	: استمرار الائتلاف بعد وفاة سعد زغلول
الفصل الثانى	: نقض الائتلاف وتعطيل الدستور - الانقلاب الثانى
الفصل الثالث	: مفاوضات محمد محمود - هندرسن
الفصل الرابع	: وزارة إسماعيل صدقى وإلغاء الدستور - الانقلاب الثالث
الفصل الخامس	: الجمعية الوطنية وعودة الحياة الدستورية
الفصل السادس	: شخصية الملك فؤاد
الفصل السابع	: النهضة الاقتصادية
الفصل الثامن	: النهضة الاجتماعية

الجزء الثالث

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١)

الفصل الأول	: الحالة السياسية فى أوائل عهد فاروق
الفصل الثانى	: معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦
الفصل الثالث	: إلغاء الامتيازات الأجنبية
الفصل الرابع	: وزارة محمد محمود الثانية
الفصل الخامس	: مصر فى الحرب العالمية الثانية
الفصل السادس	: حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ووزارة مصطفى النحاس
الفصل السابع	: وزارة أحمد ماهر
الفصل الثامن	: مصر بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية
الفصل التاسع	: الوفد فى الحكم - عودة الحكم المطلق

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

الفصل الأول	: إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ والكفاح فى القناة
الفصل الثانى	: حريق القاهرة ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢

الفصل الأول

الوحدة القومية والدولة القديمة

تم على يد الملك (مينا) توحيد الوجه القبلي والوجه البحري وجعلهما دولة واحدة ، وهذا العمل الجليل هو أساس الحركة القومية ونواتها ، والغرض منه هو وحدة الوطن . حدث هذا التوحيد حوالي سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، فتأسست بذلك الدولة المصرية الموحدة . وكان (مينا) أول من حكم أرض مصر مجتمعة ، وهو أول ملوك الأسرة الأولى^(١) . كانت مصر قبل الوحدة مؤلفة من عدة ولايات أو أقاليم صغيرة ، يحكم كلّا منها أمير مستقل ، ثم تكونت منها مملكتان إحداهما تشمل الوجه البحري (أو مصر السفلى) ؛ والثانية تشمل الوجه القبلي (أو مصر العليا) .

وكان (مينا) من ملوك الوجه القبلي ؛ نشأ في مدينة (طيبة) - تينيس - بالقرب من العراة المدفونة^(٢) بجوار جرجا .

وكان رجلاً عظيماً ، يجمع بين الكفاية الحربية والمقدرة السياسية فاستطاع أن يخضع الوجه القبلي لحكمه ، ثم تمكن من غزو الوجه البحري ، وضمه إلى ملكه ، وألف من الوجهين القبلي والبحري دولة مصرية عظيمة ، كان هو أول الفراعنة الجالسين على عرشها . واتخذ (طيبة) عاصمة لها ، وكانت القوة سنداً له في هذا العمل القومي المجيد .

ولا يغض من الوحدة أن القوة كانت سبيلها . فإن معظم الوحدات الهامة في التاريخ كان عمادها القوة ، وكان الإرغام سبيلها إلى التقدم والعظمة ، ولولا تأليف هذه الوحدات لظلت الأمم التي اتحدت فريسة الطامعين والمستعمرين .

فالوحدة الألمانية قد تألفت بقوة بروسيا ، والوحدة الإيطالية تمت أولاً بقوة البيمونت ، ووحدة الولايات المتحدة الأمريكية قد تدخلت فيها القوة لدوامها واستقرارها ، إذ نشب القتال فعلاً بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية في القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، وأرادت الولايات الجنوبية أن تنفصل عن الشمالية ، فلم تقبل الولايات الشمالية هذا الانفصال ، وفي سبيل الوحدة حاربت الولايات الجنوبية حرباً استمرت أربع سنوات ، من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ ميلادية ،

(١) كانت هناك وحدة سابقة لم تدم طويلاً . والوحدة التي تألفت سنة ٣٢٠٠ ق . م . هي التي استقرت واستمرت .

(٢) الآن بمركز البليبا مديرية جرجا . والعراة المدفونة هي ما يسميه المؤرخون اليونانيون (أيبندوس) .

وانتهت بانتصار الولايات الشمالية على الجنوبية ، وبذلك استقرت وحدة الولايات المتحدة الأمريكية ، فالقوة كان لها الفضل الأكبر في بقاء هذه الوحدة .

وانتقد أحرز (مينا) شرف توحيد الدولة وتشبيد دعائم القومية المصرية ، ولولا هذا التوحيد لظلت مصر مفككة الأجزاء ، يحارب بعضها بعضاً ، ويطمع فيها الأقوياء .

كان هذا الحادث عملاً قومياً رائعاً ، جعل من مصر دولة موحدة متماسكة مرهوبة الجانب ، تسير بالبلاد في سبيل التقدم والحضارة والتمتع .

ولا يقل هذا التوحيد شأنًا عن الوحدات التي تمت في التاريخ الحديث . كالوحدة الألمانية ، أو الوحدة الإيطالية ، أو الوحدة الأمريكية (الولايات المتحدة) .

كانت هذه الوحدة هي البداية الحقيقية للأسرات الملكية التي صارت عوناً لمصر القديمة وتاريخها المجيد .

وقد أحصى المؤرخ المصري ماتيتون^(١) هذه الأسرات بثلاثين أسرة .

والأسرة الأولى - أسرة (مينا) وخلفائه - هي أول أسرة حكمت مصر مجتمعة موحدة .

تأسيس مدينة منف

تولى (مينا) شؤون الدولة الموحدة ، وأدارها إدارة حكيمة حازمة وظلت تينيس (طينة) عاصمة الدولة الموحدة .

على أنه أراد أن يقترب من الوجه البحرى ليكفل الإشراف عليه وحسن إدارته ، فأنشأ مدينة منف^(٢) أو منفيس كما يسميها اليونانيون .

وبدأ بإقامة قلعة اشتهرت باسم (القلعة البيضاء) ، التي صارت نواة للمدينة التاريخية العظيمة التي عرفت باسم (منف) ، واتخذها مركزاً لإدارة الدلتا ، وموقعاً حربياً هاماً .

وفي سبيل إنشائها أقام جسوراً لتجفيف بعض المناطق التي كان يغمرها الفيضان شرقى موقعها ، وكان النيل يجرى لجهة الصحراء الغربية ، وتختلف عن هذا العمل فضاء واسع ، أنشأ به المدينة الجديدة ، وأقام حولها جسراً هو المعروف الآن بجسر « قشيشه » .

(١) ماتيتون Manethon كاهن مصرى وعالم مؤرخ من سنود . وقد كلفه بطليموس الثانى بكتابة تاريخ مصر القديمة ، فكتبه باللغة اليونانية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد فقد هذا المرجع الهام ضمن حريق مكتبة الإسكندرية سنة ٤٨ ق . م . ولم يبق منه إلا شذرات القطفها بعض المؤرخين القدماء من اليونانيين واليهود . هذا ، ويجب استبعاد الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من إحصاء ماتيتون ، لأنها من العكسوس ، أى إلهما أسرتان غاصبتان تمثلان الاستعمار اليغىض (انظر الفصل الرابع) .

ويجب أيضاً استبعاد الأسرة الحادية والثلاثين (قميز وخلفائه) لأنها تمثل الاحتلال الفارسى .

(٢) البدرشين وميت رهينة .

ولا ريب أن إقامة الجسور على مجرى النيل يدل على مبلغ تقدم المصريين فى العلوم الهندسية .

يقول المؤرخ برستد Breasted: إن الفضل فى رقى القطر المصرى فى عهد الأسرات الأولى ، الذى يقدر بحوالى أربعة قرون ، يرجع إلى ضم سائر جهاته تحت حكم الملك (مينا) وسلالته ، الذين اتخذوا مركزهم فى بادئ الأمر بمدينة (طينة) ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى منف - منفيس - وارتقت فى هذه المدة حضارة البلاد ، وزاد عمراتها ، وقوى نفوذها ، فسمى الأثريون هذا العهد (الدولة القديمة) . وصارت مدينة (منف) عاصمة البلاد فى عهد ملوك الأسرات الثالثة إلى السادسة الذين تربعوا فى دست الحكم قرابة خمسة قرون سنة ٢٩٨٠ إلى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد تقريباً^(١) .

ويقول الدكتور أحمد بدوى عن تطور حياة مصر وسياستها بعد الوحدة : أخذت النظم السياسية تتطور منذ أيام الاتحاد ، فهى قد كانت مقبولة على التطور مدفوعة إليه دفعاً قوياً ، وأخذت قوة السلطان الجديد التي أقامت راية الاتحاد ورفعتها تجمع فى يدي أصحابها عنصرين أساسيين من عناصر النظم والسياسة والإدارة التي كانت تتبع فى قطرى الوادى ، (الوجه البحرى والوجه القبلى) قبل أيام الاتحاد ، وما ندرى ماذا قتر (مينا) وأصحابه من تطور لأنظمة هذه المملكة المتحدة ، فهم كانوا أصحاب الغلبة وأرباب النصر والسلطان ، ومن حق الغالب أن يأخذ المغلوب بنظامه وأن يفرض سلطانه عليه فرضاً ، ولكن (مينا) وأصحابه فيما يظهر ، قد رأوا عند أهل الشمال (الوجه البحرى) من مظاهر الحضارة ومن النظم السياسية المستقرة ما أعجبهم فأبقوا عليه وأخذوا بها وأقروها ، ولعلمهم قدروا أيضاً ما قد يكون لعملهم هذا من أثر فى إرضاء خواطر المغلوبين ، وتطبيب نفوسهم مما ينسبهم مرارة الهزيمة وذلل الانكسار ، فجمعت راية الاتحاد دولتين عظيمتين إحداهما فى الجنوب والأخرى فى الشمال ، وأخذت الأمور تجرى بكل من الدولتين على سنتها الخاصة ومنهجها القديم ، فنظام للجنوب ، ونظام للشمال ، وإدارة للجنوب وإدارة للشمال ، ووزير للجنوب ، ووزير للشمال ، وسلطان واحد فوق هذا كله يدير الأمر من القصر فيشقى بذلك كله ، ويعالج مشاكله ويعانى متاعبه وربما يلقى من ذلك ألواناً من العنت والمشقة^(٢) .

الحضارة المصرية قبل الوحدة

إن الحضارة المصرية أسبق من الوحدة ، وكانت ولا ريب من أسبابها الممهدة لها ، وجاءت الوحدة تثبيتها لها ، وتوسيقاً لآفاقها .

(١) برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الغزو الفارسى ص ٨ .

Breasted - A history of Egypt from the earliest times to the persian conquest.

تعريب الدكتور حسن كمال . ورقم الصفحة يشير إلى التعريب .

(٢) أحمد بدوى : فى موكب الشمس (فى تاريخ مصر الفرعونية) ج ١ ص ١٢٣ .

بدأت الحضارة الإنسانية في وادي النيل، نشأت على ضفافه منذ عصور متناهية في القدم، ولا سبيل إلى تحقيق الزمن الذي بدأت فيه .

وأقرب الآراء إلى التقدير الوسط أنها ترجع إلى حوالي سبعة آلاف سنة قبل الميلاد .

وهي على أي تقدير سابقة على الوحدة، وسابقة على عهد الأسرات الملكية الذي جاء نتيجة مباشرة لرفى وتقدم تدريجي في حضارة الزمن السابق .

دخلت الحضارة مصر يجريان النيل فيها، فهي ولادة النيل، وهو مصدر الحياة والخير لها، والماء الذي يتدفق منه كل عام في أوقات معلومة يجلب معه الرخاء والرفاهية، وينغرس فيها أصول الحضارة، وما يحويه من الطمي يهب الأرض خصوبة وإنتاجاً، ولقد استشعر المصريون من قديم الأزل أن لابد لهم من حكومة ونظام للرى والأمن، يسهران على الاستفادة من مياه النيل بشق الترع والقنوات، وتقوية جسور النيل وإنشاء السدود، وحفظ الأمن، وتوزيع الماء بين الناس بالعدل والقسطناس، وإبتكار هندسة الري من أقدم العصور، وخاصة لأن مصر لا تعيش على الأمطار ولا تعتمد في حياتها المعاشية والاقتصادية إلا على النيل، فشعور المصريين بأنهم في حاجة إلى حياة متقدمة منظمة جعلهم أسبق الأمم إلى إيجاد مقومات الحضارة في بلادهم، هذا إلى ما طبعوا عليه من المواهب الفطرية، والاعتدال في المزاج، وحب الوطن، والدفاع عنه، والميل إلى التقدم في أسباب المعيشة، والبعد عن حياة الهمجية والضرارة. ولذلك مارس المصريون القدماء قبل عهد الأسرات الملكية مبادئ الحضارة، كالزراعة والصناعة واستخراج المعادن وقطع الأحجار، والملاحة والتجارة، وبناء السفن، والآداب والفنون، وما إلى ذلك .

ومن ناحية أخرى فإن طبيعة مصر الجغرافية، وانحصار الوادي المسكون بين صحراويين كبيرتين جعل أهلها أقرب إلى التعاون والتضامن على تنظيم شؤونهم .
وهذه النواحي كلها كان لها أثرها في سبقها الأمم الأخرى إلى الحضارة والتنظيم .

المصريون أول من اكتشفوا التقويم السنوي

يقول العلامة برستد Breasted في عرض الحديث عن العصر السابق للوحدة: إن مملكة الوجه البحري امتازت على الوجه القبلي بسرعة تقدمها في الحضارة؛ وقد اهتمت في سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد أن السنة الشمسية تتكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوماً، وهذا التاريخ - أي سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد - هو أقدم تاريخ ثابت معروف للآن على ظهر البيضة^(١) .

(١) برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٧ - وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى أنني سأقتل كثيراً عن برستد وغيره من المؤرخين الأجانب ما نقله عن المؤرخين المصريين، مما يبرز فضل مصر، لأن آراءهم أبعد عن مظنة الميل أو الانحياز وأقرب إلى الحيطة في الحكم. وهي بالتالي أدعى إلى تأييد المؤرخين المصريين في آرائهم وأحكامهم .

ويقول توضيحاً لذلك: إن سكان الوجه البحري تنبهوا في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد^(١) إلى أن السنة الشمسية تتكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوماً، وأرخوا مبتدئين بالسنة التي ظهر فيها نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس، ودلت المباحث الفلكية على أن هذا الحادث حصل حوالي سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد، ويعتبر هذا الكشف الميقاتي واستعماله في اليقوتون الدينيوية خطوة كبيرة نحو الرقي، وشرقاً عظيماً للوطن الذي كشف فيه، ولم تستكشف بحولة من دول العالم منذ أقدم الأزمنة حتى مبدأ العصر الأوربي المتوسط. توقيتاً سنوياً مثله، وأن يوليوس قيصر عاهل الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصري امبراطوريته، ثم عم استعماله العالم، من ذلك يتضح أن استعمال التوقيت المصري عمر مدة سنة آلاف سنة تقريباً، وأن الفضل في ذلك يرجع إلى سكان الوجه البحري الذين عاشوا في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد^(٢) .

ويقول عن الحضارة المصرية عامة: لا يخفى أن العالم الغربي مدين بكثير من علومه وآدابه إلى أهالي وادي النيل، كيف لا وهم الذين زدوا أوروبا الجنوبية بالمدنية والمعارف، فأخذت هذه تنتشر شمالاً متبعة سير النيل إلى أقاليم البحر الأبيض المتوسط^(٣) .

وأول من اكتشفوا القراءة والكتابة

ويقول برستد أيضاً: « وزيادة على ما بلغه هؤلاء القدماء من مبادئ المدنية والرقى فإنهم نجحوا في اختراع الكتابة والقراءة، واستدل من المباحث التي عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية على أن قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وأن كتاب الأسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحري، وبعض ملوك الوجه القبلي، من الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل حكم الأسرات، ودليلنا على ذلك أن الخط الهيراطيقي كان مستعملاً في مبدأ الأسرة الأولى وهو كما لا يخفى اختزال للخط الهيروغليفي » .

وقال في موضع آخر: « والفضل في كشف حروف الهجاء يرجع إلى قدماء المصريين الذين توصلوا إلى معرفتها منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل سائر الأمم »^(٤) .

ويقول جون ويلسن John Wilson: إن الكتابة قد ظهرت في مصر في فترة الانتقال بين عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي، وأن الكتابة الهيروغليافية في مصر ظهرت على الحجر وعلى

(١) أي قبل قيام الأسرة الأولى بنحو ألف سنة .

(٢) برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٢١ .

(٣) برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٧ .

(٤) برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٨ .

الطين ، وقد استكملت نظام جمع الكلمتين لاستعمال نطقها في كلمة واحدة ، ولكن جمع الصور التي وجدت طريقها إلى الكتابة الهيروغليفية كانت كلها صوراً مصرية بحتة^(١) .

الأسرات الأولى والثانية

(سنة ٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ قبل الميلاد)

قلنا إن الملك (مينا) وحد الوجه البحرى ، والوجه القبلى سنة ٣٢٠٠ ق . م . فهو أول من أسس الوحدة القومية ، وأسس الأولى ، وقد استمر ملوك الأسرة الأولى نحو ٢٠٠ سنة (من ٣٢٠٠ إلى ٣٠٠٠ ق . م .) .

والأسرة الثانية حكمت نحو ٢٠٠ سنة أيضاً (من ٣٠٠٠ إلى ٢٧٨٠ ق . م .) وكانت طيبة (تينيس) عاصمة الدولة فى عهد هاتين الأسرتين .

وليس معروفاً على وجه التحقيق لماذا خلفت الأسرة الثانية الأسرة الأولى .

وليس معروفاً أيضاً إذا كانت هناك صلة بين الأسرتين .

وقد اقتصر المؤرخون على إيراد أسماء الملوك كما ذكرها مانيتون ، وما ورد فى الآثار المصرية . واقتربت مدة حكم هاتين الأسرتين بنمو مطرد فى قوة الدولة وحضارة مصر .

ونظم ملوك الأسرتين الحكم ورتبوا السلطات المركزية ، ونشطوا الزراعة والتجارة والملاحة والمراعى ، ووقروا فى الكتابة ، ونهضوا بالصناعة والبناء والهندسة والعلوم عامة . وظلت الوحدة القومية رائدهم فى سياسة المواطنين .

يقول برستد فى هذا الصدد : « أسس الفراعنة الطينيون (نسبة إلى طيبة) بناء المملكة المصرية ، ووقروا أخلاقها ومدنيتها ، ورغما عن قلة آثارهم فإن أعمال ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة كافية لإثبات ما بلغته حالة البلاد الاقتصادية من العظم والقوة مدة حكمهم »^(٢) .

الأسرة الثالثة

(٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ قبل الميلاد)

إتخذ الملوك فى عهد الأسرة الثالثة مدينة « منف » عاصمة لهم .

وفى مدة خمسة قرون تقريباً من الأسرة الثالثة إلى الثامنة كانت (منف) عاصمة المملكة .

John Wilson The burden of Egypt.

(١) تاريخ الحضارة المصرية لجون ويلسن

تعريف د أحمد فخري ص ٨٦ .

(٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور المرجع السابق ص ٣٢ .

زوسر

ومؤسس الأسرة الثالثة هو (زوسر) .

وقد بنى هرم صقارة المدرج ومساحته مع ملحقاته ٤٥٠ متراً × ٣٧٠ متراً ويقول عنه الدكتور أحمد بدوى : ولو لم يكن لمصر يومئذ من مظاهر الحضارة غير عمارة الهرم المدرج وما أخرجت يد البناء فيها من روائع الفن لكفى ، فهى أكبر بناء حجري عرفه تاريخ الإنسانية فى ذلك الوقت^(١) . وقد صحب انتقال الحكم من (طيبة) إلى منف تقدم تدريجى فى الحضارة ، وتحسين مطرد فى أحوال البلاد طوال حكم الأسرات المنفية الذى دام حوالى خمسمائة عام .



هرم زوسر المدرج بصقارة

بذل الملك (زوسر) جهوداً موفقة لحماية البلاد من غارات البدو من حدثتهم أنفسهم بالتسلل من الحدود الشرقية والجنوبية لمصر ؛ وأنشأ لمصر قوة حربية يعتمد عليها فى صد الغارات الخارجية .

وضم إليها جزءاً من النوبة .

وعنى باستخراج النحاس والفيروز من سيناء .

إيمحوتب IMHOTEP

أبو الطب فى مصر والعالم

وكان لزوسر وزير حكيم يدعى (إيمحوتب) عاونه على نهضة البلاد الاجتماعية والاقتصادية ، وكان إيمحوتب هذا مهندساً معمارياً من الطراز الأول ، ونبغ فى الطب وألف فيه ، كما ألف فى الحكمة .

وقد عرف (زوسر) قدر وزيره فكرمه ، بأن نقش اسمه على تماثيله ، وهو تكريم ، لم يسبق

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس ج ١ ص ١٣٥ .

ملك أن كرم أحداً بمثلته ، وكرمه المصريون بأن خلدوا اسمه ، وهو أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر يشيد قبراً يشبه الهرم فى شكله العام^(١) ، وهو الذى بنى لزوسر هرمه المدرج . وقد ذكره المؤرخ المصرى مانيون وقال عنه إنه عاش فى عهد زوسر وإن الإغريق يعتقدون أنه شبيه بأسكليبيوس إله الطب عندهم لمهارته فى الطب ، وأنه كان يقبل إقبالا كبيرا على التاليف .

وكان إيمحوتب فرداً من أفراد الشعب ، ولم تكن له صلة عائلية بالأسرات المالكة ، بل ميزه نبوغه وعقربته ونشأته الشعبية ، فنبأ مكاناً رفيعاً فى التاريخ المصرى ، وهو جدير بأن يلقب بأبى الطب فى مصر والعالم ، لأنه سبق أبقراط بعدة قرون^(٢) .

ومما قاله عنه برستد : إن الفضل فى نجاح سياسة زوسر يرجع إلى حكمة ودهاء وزيره (إيمحوتب) الذى برع فى الدين ، وفى الطب والعمارة ، حتى ترك له اسماً خالداً فى التاريخ المصرى على مدى العصور ، ثم اتخذ الكتاب المصريون مثالا يحتنونه فى حياتهم العلمية ، فصبوا مداد محابرتهم تيمناً بذكره قبل البدء بأعمالهم الكتابية ، وترنم الناس بأمثاله فى مدى قرون عدة ، وعلت منزلته وعظمت ، فاعتبر فى آخر التاريخ القديم إله الطب^(٣) .

وقد ثبت فى بردية إدوين سميث التى تعد أقدم رسالة علمية فى الجراحة ، مدى اهتمام المصريين القدماء بالطب فى عصر بُناة الأهرام ، وكذلك علمهم بالتشريح^(٤) .

الأسرة الرابعة - بُناة الأهرام

(٢٦٨٠ - ٢٥٦٠ قبل الميلاد)

من الحق أن ندرج (زوسر) ضمن بُناة الأهرام ، فقد بنى هرمه المدرج كما أسلفنا . ثم جاءت الأسرة الرابعة وكانت مدة حكمها نحو مائة سنة ، نذكر هنا أهم ملوكها وهم :

سنفرو SENEFRU

هو مؤسس الأسرة الرابعة وأول ملوكها .

كان ملكاً كبير الأهمية ، وله أعمال عمرانية عظيمة ، فقد واصل استخراج النحاس والفيروز من شبه جزيرة سيناء ، ووطد سلطة مصر فى تلك الناحية حتى اعتبر فى العصور التالية المؤسس الأكبر للنفوذ المصرى بسيناء . وسُمى باسمه أحد مناجم تلك الجهة .

(١) أحمد فخري - مصر الفرعونية - ص ٩٢ .

(٢) عاش أبقراط فى القرن الخامس ق . م .

(٣) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٧٤ .

(٤) متنوعات : للدكتور محمد كامل حسين .

وبعد أن مضى على وفاته ما ينيف على ألف سنة افتخر الملوك المصريون بأن مشروعائهم بسيناء ، فاقت كل مشروعات عملت هناك منذ عهد الملك سنفرو ، قام بتحصين حدود مصر الشرقية ، وعمل على توسيع المعاملات التجارية بين مصر وشواطئ سورية ولبنان ، وسار بحملة منظمة إلى بلاد النوبة وعاد منها بمغانم كثيرة ، وبدأت العلاقات بين القطرين (مصر والنوبة) تأخذ مظهرًا جديدًا ، إذ بدأ المصريون يرسلون منتجاتهم ذون عائق إلى النوبة ، كما أخذ ملوك مصر يستغلون المهاجر فيها .

عنى بإنشاء أسطول بحرى لمصر .

وأرسل بعثة من أربعين سفينة إلى سواحل لبنان لاستيراد أخشاب الأرز من هناك ، وبنى من هذه الأخشاب سفناً كثيرة استعمل بعضها فى النيل وبعضها الآخر فى البحر ، واستخدمت هذه الأخشاب أيضاً فى مباني المعابد والقصور وصنع الأثاث الفاخر والتوابيت .

وفى عهد أسرة (سنفرو) أنشئت إدارة لبناء السفن كانت تشرف على تشييدها .

وقد بنى (سنفرو) هرمين له فى دهشور ، وهما من أقدم الأهرام المعروفة حتى الآن . وكان ملكا عادلا محبوبا من الأهلىن ، ودام حكمه أربعاً وعشرين سنة .

خوفو

هو أحد أبناء سنفرو^(١) (خلافا لما جاء فى برستد) .

وقد خلد ذكره بالهرم والأكبر الذى يعرف باسمه (هرم خوفو) والذى شيده على هضبة الجيزة . وهو أكبر وأضخم الأهرام الموجودة فى مصر ، يبلغ ارتفاعه ١٤٦ مترا ونصف متر ، أما قاعدته فمربعة الشكل ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها نحو ٢٣٠ مترا ، وعدد أحجاره نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر ، وزن كل منها فى المتوسط ٢,٥ طن ، أى أن مقدار وزن الهرم يبلغ نحو ستة ملايين طن .

وكان العدد الكبير من المصريين يعملون فى بناء الهرم ، ويشغلون فى بنائه طول مدة الفيضان ، أى حين خلوهم من أعمال الزراعة فى فترة فيضان النيل .

وقد كتب علماء الآثار كثيراً عن هذا الهرم وعن الأهرام الأخرى .

والهرم الأكبر هو موضع إعجاب الدنيا وحديث الناس فى شتى الأقطار ، يقصدونه كل حين لمشاهدة ضخامته وعظمته الباقية على الزمن ، رغم انقضاء نحو خمسة آلاف سنة على تشييده .

وكل من يأتون إلى مصر من الأجانب سواء من العلماء ، أو من الأشخاص العاديين ، يقصدون الهرم الأكبر والأهرام الأخرى لمشاهدتها ، ويتملكهم الإعجاب بها وتروعهم عظمة من شيدها .

(١) أحمد فخري - مصر الفرعونية ص ١٠٧ .

وحسبك أن هذه الأهرام - أهرام الجيزة - اعتبرت منذ العهد الإغريقي ضمن عجائب الدنيا السبع ، أما الآن فهي البقية الباقية من هذه العجائب ، وهي أعظم مجموعة أثرية ، وأقدم المباني العظيمة في العالم ، ومفخرة خالدة لمصر مدى التاريخ .

ومهما قيل عن الأهرام من أنها تدل على أنانية الملوك الذين شيدها لتكون مقابر لهم ، واستيادهم بالأهلين في إقامتها ، فإنها ولا ريب رمز لتقدم الحضارة في ذلك العصر ، ودليل خالده على ما وصل إليه المصريون من المكانة الرفيعة في العلوم والفنون ، وخاصة العلوم الهندسية والرياضيات ، وضبط الزوايا والأبعاد ، والنحت ، والنقش والتصوير ، وفن العمارة وضخامة البناء وروعته .

وقد ذكر المؤرخ اليوناني (هيرودوت) حين زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد ، أن بناء الأجزاء السفلى من الهرم الأكبر ، والممرات الصاعدة قد استغرق عشر سنوات ، وأن بناء الهرم نفسه قد استغرق عشرين عامًا ، ومعنى ذلك أن تشييد الهرم بجميع أجزائه قد استغرق ثلاثين عامًا . وأن عدد العمال الذين ساهموا في بنائه بلغ مائة ألف عامل كانوا يعملون في جماعات تتناوب العمل كل ثلاثة أشهر .

وقد سمع (هيرودوت) هذه الرواية من صغار الكهنة بعد مرور أكثر من ألفي سنة على الهرم . وهي روايات يجب أن تقابل بالتحفظ والحذر ، وأساسها ما تلقاه من الرواة من أن الأحجار التي بنى بها خوفو الهرم الأكبر كانت تجلب من محاجر الجهة الشرقية للنيل (محاجر طرة) ، فكان العمال ينقلونها عبر النيل إلى الجيزة ، فحتاج إلى جهود مضنية لنقلها .

وقد نفى الأستاذ « سليم حسن » هذه الرواية إذا أثبت أن أحجار هرم خوفو هي من أحجار الهضبة التي أقيم عليها ، وقال إن هذا يثبت خطأ (هيرودوت) في زعمه إنها كانت تجلب من محاجر الجهة الشرقية من النيل وقال أيضًا إنه عثر في منطقة الأهرام على مساكن للعمال الذين كانوا يقومون بالبناء^(١) . وهذا يدل على أنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية .

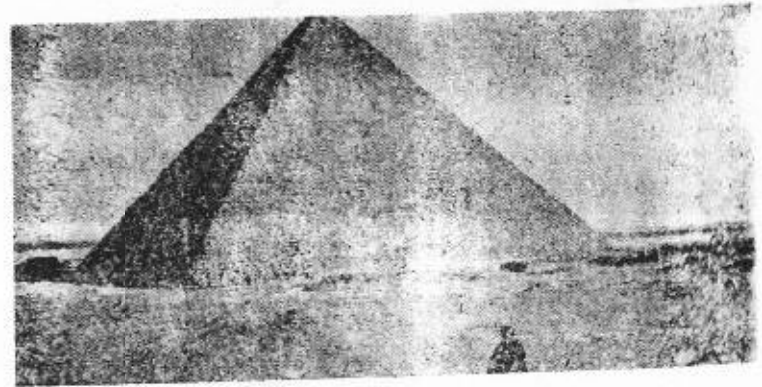
وقال عن طريقة رفع الأحجار لبناء الهرم إن العالم ظل إلى زمن قريب جدًا يعتقد أن المصريين القدماء كانوا يبنون المزالق لجر الأحجار عليها ، ولكن الكشوف الحديثة برهنت على أن المصريين كانوا قد وصلوا في ذلك العصر إلى استعمال « البكر » لرفع الأحجار ، وأنه قد عثر في حفائر الجامعة المصرية على بكرتين ، إحداهما وجدت بجوار الهرم الثاني ، والأخرى عثر عليها في أحد بيوت مدينة الأهرام التي كشفت عن جزء منها ، وأنه يتضح من كل ذلك « أن أجدادنا المصريين كانوا قد وصلوا إلى مدى عظيم في فن البناء واستخدام قوى الطبيعة »^(٢) .

(١) سليم حسن - مصر القديمة - ج ١ ص ٢٨٧ و ٢٩٢ و ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢١٤ .

(٢) سليم حسن - مصر القديمة ج ١ ص ٢٨٨ .



خوفو - باني الهرم الأكبر



الهرم الأكبر بالجيزة (هرم خوفو)

خفرع KHEFHREN

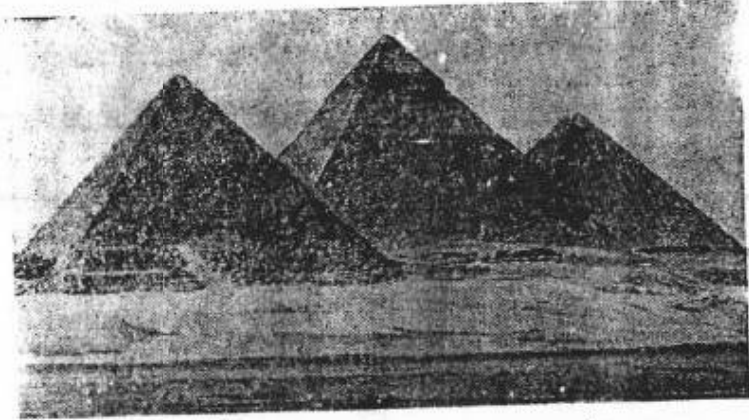
باني الهرم الثاني

ولما توفي خوفو خلفه على العرش ابنه ددف رع ، وقد بنى له هرما في أبي رواش . وبعد وفاته خلفه أخوه خفرع وهو ابن آخر لخوفو .



خفرع - باني الهرم الثاني بالجيزة
وخلف رأسه المعبود حوروس في شكل الصقر المقدس حاميا بجناحيه رأس الملك

وخفرع هو باني الهرم الثاني بالجيزة في الجنوب الغربي من هرم خوفو وقد بناه على غرارهِ وإن كان لا يدانيهِ في الضخامة والارتفاع . وحافظت الدولة المصرية في عهده على تقدمها وعزها كما كانت في عهد خوفو .



الأهرام الثلاثة بالجيزة كما تشاهد من الجهة الجنوبية الغربية
هرم خوفو (الهرم الأكبر) ثم هرم خفرع ثم هرم منكاورع

هذا ، ويجب ألا ننسى أن بناء الأهرام يرجع إلى العقيدة الدينية التي كان يدين بها المصريون الأقدمون في أن حياة الإنسان لا تنتهي بموته . بل إنه سيبعث بعد رحله عن الدنيا ويحاسب على أعماله في الآخرة .

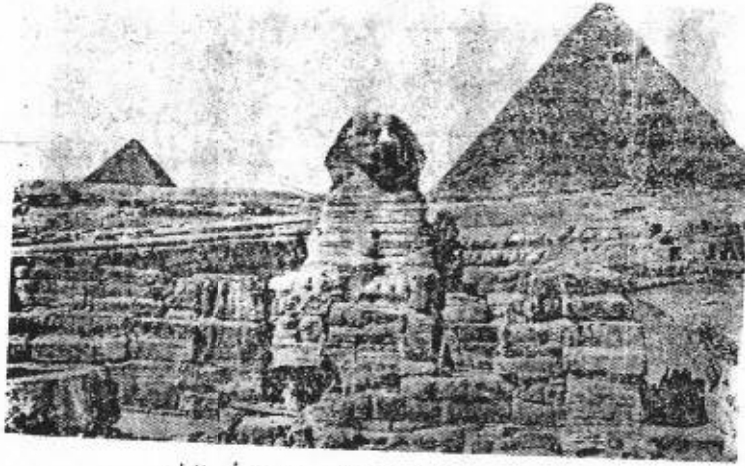
هذه العقيدة هي التي أوحت إلى الفراعنة بناء الأهرام لتخلد فيها أرواحهم .

وهي في جملتها عقيدة صحيحة وإذا كان الفراعنة قد خرجوا بها عن بساطتها إلى ذلك التعقيد في الفهم والتكليف ، فيلزمنا ألا نحكم عليها بأفكارنا الحالية ، بل علينا أن نزنها بتفكير العهود القديمة التي نشأت فيها .

وعقيدة الحياة بعد الموت هي في جوهرها دليل على تقدم في الحضارة والتفكير ، ولولا العقيدة في خلود الروح لما شيد أسلافنا الأقدمون هذه الآثار الضخمة التي صارت مع الزمن من مفاخر مصر الخالدة .

ومما ينبغي الأمانة عن الفراعنة ، وبدل على أنها لم تكن المهمة لهم ببناء الأهرام ، أننا لو فتحنا عن القصور التي بنوها لتكون سكناً لهم وموطناً لمسراتهم وعزهم ، لما وجدناها تحاكي الأهرام في ضخامتها وروعيتها ، فلقد درست هذه القصور وعفت آثارها ، ولم تخلد على الزمن مثلما خلدت الأهرام .

وهذا يدلنا على أن الأثر والأمانة لم يكن هما دخل في بناء الأهرام . بل إن قوة العقيدة الدينية والإيمان بالحياة الأخرى كانا الباعثين لبنائها وخلودها .



الهرمان الثاني والثالث بالجيزة . . وتمثال أبي الهول

ثلاثة وسبعون متراً ونصف ، وعرض وجهه أربعة أمتار ونصف فهو حقاً سر أولغز من الألغاز في تاريخ مصر القديمة .

يقول برستد عن حكم الأسرة الرابعة : « ومدة حكم الأسرة الرابعة المقدرة بمائة وخمسين سنة تمتاز بالنظام ، وتوطيد الحكم ، واطراد التقدم والرفق ، ما لم يسبق لأبناء وادى النيل أن يتمتعوا بمثله ، وقد قاومت آثار ذلك العصر بمتانتها وعظمتها القرون العديدة حتى وقتنا هذا ، ولا يبعد أن عهد خوفو كان أرقى عصر في عهد الأسرة الرابعة لأن القطر أخذ يضمحل تدريجاً في عهد خفرع ، ثم في عهد منكاورع حتى عجز هذا الأخير عن القبض بقوة على ناصية الحل كما فعل سلفاه ، ولم يحفظ لنا الزمن من آثار هؤلاء الملوك إلا التسعة الأهرام المشيدة بالجيزة ولا تزال تحفظ ذكراهم إلى الآن^(١) .

منكاورع MYCERINOS

باني الهرم الثالث

وبعد وفاة خفرع أعقبه ابنه منكاورع باني الهرم الثالث .



أبو الهول

وإلى جوار الأهرام الثلاثة ، يريض أبو الهول العجيب وهو التمثال المائل الرائع المشيد على هيئة أسد ضخمة له رأس إنسان ، ويرمز إلى اجتماع القوة والعقل معاً .

وهو تمثال للملك خفرع باني الهرم الثاني ، وفي قول آخر إنه تمثال لإله الشمس عند الغروب (آتوم)^(١) ، ويبلغ ارتفاعه من مسطح فاعلته حتى قمة رأسه عشرين متراً ، وطوله

(١) سليم حسن - مصر القديمة - ج ١ ص ٣٠٢ .

(١) برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٧٩ .

الأسرة الخامسة

(٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ قبل الميلاد)

أسقط الكهنة الأسرة الرابعة وأسسوا الأسرة الخامسة . وكان لحكام الأقاليم الذين حرصوا على سلطانهم دخل في هذا التغيير ، وقد عظم نفوذ الكهنة في عهد هذه الأسرة . وكان أول ملوكها (أوسركاف) Ouserkaf وتلاه ملوك عديدون لم تقع في عهدهم حوادث حاسمة .

البحرية في عهد ساحورع

على أن خلفه (ساحورع) شيد لمصر أسطولاً بحرياً جعلها أول دولة بحرية معروفة في التاريخ . ويقول برستد : إنه عثر حديثاً على لوح حجري بهرم هذا الملك ببوصير وجدت عليه رسوم لأربع سفن عظيمة محملة بالأسرى الفينيقيين حولهم بخارجة مصريون ، وتعتبر هذه النقوش أقدم رسوم بحرية وجدت حتى الآن (حوالي سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد) وأن ساحورع أوفد أسطولاً آخر إلى بلاد الصومال (بونت) وخليج عدن^(١) في طلب البخور والروائح العطرة ، والأدهنة الجميلة الكثيرة الاستعمال عند الشرقيين^(٢) .

والمعروف أن ساحورع هذا أول ملك أثبت آثاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال رأساً .

افضل السمانى

الثورة الاجتماعية

في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد

تولت الأسرة السادسة الحكم سنة ٢٤٢٠ واستمرت حتى سنة ٢٢٨٠ قبل الميلاد .

بيبي الأول

وهو من الملوك النبهيين الذين تولوا الحكم ، وقضى فيه نحو ربع قرن .

الحملة في فلسطين وسورية

وفي عهده سارت في أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد حملة برية وبحرية إلى فلسطين وسورية .

وقاد هذه الحملة قائد قدير هو (أونى) Uni قائد الجيش في عهد بيبي الأول .

حارب (أونى) البدو على حدود مصر الشرقية ، ثم حارب في جهة الكرمل بفلسطين الأعداء القادمين من بلاد الرافدين (دجلة والفرات) .

واشترك في هذه الحرب البحش والأسطول ، فقد سار الجيش برماً . وسارت الحملة البحرية محاذية سواحل فلسطين الجنوبية ، وأنزلت جنودها هناك ، فهزموا أعداءهم وتعقبوهم حتى جبال فلسطين الشمالية .

ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل إليه النفوذ المصرى في عهد الدولة القديمة وامتد هذا النفوذ على الساحل الفينيقي .

ولعل هذه الحملة كانت الأولى من نوعها في العالم ، اشترك فيها الجيش والأسطول معا ، ودلت على كفاية المصريين من قديم الأزل في خوض الحملات فوق ظهر البحار .

(١) برستد : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٢) كانت بلاد بونت تشمل الشاطئ الآسيوى والإفريقي معا حول بوغاز باب النذب .

الرحالة حرخوف

اهتمت مصر القديمة بكشف المناطق الجنوبية في عهد الأسرة الخامسة والأسرة السادسة .
وامتاز الرحالة (حرخوف) بالكشف عن المناطق الجنوبية في النوبة والسودان في عهد الملك
مرن رع ثم في عهد بيبي الثاني .
وكان حرخوف هذا حاكمًا لإلنتين (أسوان) ، وقد قام بثلاث رحلات في عهد مرن رع ،
أما رحلته الرابعة ففي عهد الملك بيبي الثاني ، وقد وصل إلى مناطق لم يكتشفها أحد من قبل
واستمر في رحلاته نحو سبع سنوات .

يقول الأستاذ سليم حسن عن حرخوف إنه كان كاشفًا عظيمًا في عصره ، ويعد أول من
فتح الطريق للكاشفين والرواد العظام في عصرنا ، للتوغل في مجاهل إفريقية ، وإنه جلب الخيرات
منها لمليكه (مرن رع) وسهل سبيل التجارة بين مصر وتلك الأقطار^(١) .

ويقول الدكتور أحمد فخرى : « قام المصريون بتلك الرحلات في القرن الخامس والعشرين
قبل الميلاد ، ليكشفوا قلب القارة الإفريقية ، قبل أن يولد ستانلي ولنجستون وغيرهما من الرحالة
الحديثين بأكثر من أربعة آلاف ومائتي عام »^(٢) .

الأسرات السابعة إلى العاشرة

اضطربت الأحوال الداخلية منذ أواخر عهد بيبي اول لضعفه واستفحال سلطة الكهنة وحكام
الأقاليم ، واستمر الاضطراب في عهد خلفائه ، وتعاقب على العرش ملوك ضعفاء حكموا مددا
وجيزة .

وزادت الحالة سوءا والجهة الداخلية تفككا ، في عهد الأسرات السابعة إلى العاشرة ، وانتهت
الدولة القديمة بسقوط الأسرة العاشرة .

الثورة الاجتماعية الأولى

أخذت الأحوال تسوء منذ أواخر عهد الأسرة السادسة ، فإن حكام الأقاليم والكهنة أنشعوا
نظامًا إقطاعيًا ، واقتلعوا كثيرًا من سلطة الملك ، واستفحل طغيانهم ، وضعفت رقابة الملك
عليهم ، فأنحرفوا عن الحق والعدل في سيرتهم ، واستبدوا بالأمر ، واستغلوا السلطة لمصلحتهم
أو مصالح ذويهم ، وكثرت المظالم ، وتضاءل العدل ، وانتشرت القوضى .

(١) سليم حسن : مصر القديمة ج ١ ص ٣٨٤ .

(٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ١٥٨ .



بيبي الأول

مرن رع MERENRA

وقد خلف بيبي الأول ابنه مرن رع وكان صبيًا ، ولم يطل حكمه أكثر من سبع سنوات .

بيبي الثاني

أطول حكم في التاريخ

بعد وفاة (مرن رع) تولى الحكم أخوه (بيبي الثاني) وكان لم يزل صبيًا مثله وتولت
أمه الوصاية عليه ، وحكم حوالي أربعة وتسعين عاما .
فبعده يعد أطول حكم في التاريخ .

واستمر القائد (أونى) صاحب النفوذ في الحكومة على عهد مرن رع وجزء من عهد
بيبي الثاني .

ومن ملوك هذه الأسرة مرن رع الثاني ، ثم الملكة نيتوكريس .

فلم يبق للشعب الهادئ الوديع الصبر على هذه المظالم طويلاً، وقام منذ عدة آلاف من السنين بأبى ثورة شعبية، واستمرت حالة الثورة أكثر من قرنين من الزمان.

كان هدف الثورة تحقيق العدل بين الناس ومحاربة نظام الإقطاع وفساد الحكام، وإقرار العدالة الاجتماعية. ورفع مستوى موظفي الدولة عامة إلى المكان اللائق، بحيث ينظرون إلى المواطنين نظرة عدل وإنصاف ورعاية لمصالحهم.

فالظلم وانتشار الفوضى، وفساد الحكيم، كل ذلك أهم أسباب هذه الثورة.

قامت الثورة ضد الهيئة الحاكمة وضد الإقطاعيين معاً، إذ تعاون الفريقان على إهدار مصالح الشعب.

وفي ذلك يقول الدكتور أحمد بدوى: «كان لابد للأمر من نتيجتها الطبيعية وهى الثورة والانحلال السياسى، فالدولة المصرية كانت قد شاخت وشاخ من حوها الزمان، وسياسة البلاد كانت تسير على نهج أعوج لا يكاد يستقيم، لأن الحكومة كانت تأخذ من الفقراء لتملاً خزائن الأغنياء، وتشيع الأغنياء من قوت الجائعين والفقراء، وتسعد المترفين على حساب المعوزين، وتحول بين خطوة المظلوم وصوته، وسمع السلطان وبصره، وليس أصعب من وصول كلمة الحق إلى ساحة الملوك والأمراء، البطانة تتلقاها فتحجها، والمكر يتحدثها فيطمسها، ونفاق البلاط يتلعها ويقتلها، وقليل من ملوك الدهر من يستطيع أن يصل بصره إلى ما وراء البطانة أو يمد سمعه إلى ما وراء أستار العرش، بل قليل من ملوك الدهر من يستطيع أن يلتوى على نفاق رجال القصر، أو يغلب مكر البطانة، أخذت بواكير الثورة تتراءى من كل حذب وصرب، بينما انطوى شيخ القصر على نفسه لا يكاد يعرف من أمر ذلك شيئاً، وانصرف حكام الأقاليم إلى مصالحهم الذاتية، وابتوا يرقبون بعين الحذر ما تظالمهم به الأيام، وأخذ كل منهم يترصب بصاحبه الدوائر، وأخذ الدهر يدس لهم قضائه بين ثنايا الأيام وطيات الليالى، حتى دهمهم بخيله ورجاله، فحيل بينهم وبين القصر، وحيل بين القصر وبين كل سلطان، وهب الشعب بثورته الاجتماعية الطاحنة، التي اندلعت نارها فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها وغادرت الأيام (منف)، وأضحى القصر عارياً من ثياب الملك، عطلاً من زينة السلطان، وزال نفوذه وتمطلت حقوقه، وتمطلت معها الحقوق المدنية والدينية جميعاً، وتمثلت الدنيا من كل قيد، وفتطلق الناس من عقابهم، وقد أخذ بعضهم يومئذ يموج فى بعض، واختفى الضمير الإنسانى الحى، وارتفع عن الناس يرفع الحشمة، فتجردوا من ثياب الوقار، وساد فى البلاد قانون الفوضى - إن صح أن يكون للفوضى قانون - فنأدى داعى الفوضى فى الناس بغريهم بكل شىء ويشير فيهم بدمتور الثورة ومنطقها، إن صح أن يكون للثورة دستور ومنطق»^(١).

وقال الدكتور أحمد فخرى فى هذا الصدد: «كانت هذه الثورة الاجتماعية ثورة الشعب على من ظلموه، ومهما كانت نتائجها المخربة وقت حدوثها، فإننا نحمد لها ما بعته فى الشعب المصرى من آراء جديدة، أهمها الإعلاء من شأن الفرد، وأن كل إنسان مسئول عما قدمت يداه من خير أو شر، بل عن حسن نيته أو سوءها، وأنه سيحاسب وسيحازى أمام الإله الأعظم على ذلك، دون نظر إلى فقره أو غناه، ودون نظر إلى قبر يشيده أو أوقاف يتركها ليستغلها الكهنة عندما يتلون الصلوات، أو يقدمون لروحه قرابين صورية يستفيدون منها دون غيرهم، عرفت مصر قيمة الفرد وعمله فى هذا الوقت المبكر من تاريخ البشرية قبل أن يصل إليه غيرها بقرون كثيرة»^(١).

تمثلت هذه الثورة فى الانتفاض على الهيئة الحاكمة، والخروج على تقاليد الخضوع لها، والهجوم على مخازن الحكومة ومكاتبها، وعلى تصور الإقطاعيين الذين استغلوا السلطة فتقاسموا والحكام خيرات البلاد.

ولم يعالج هذه الثورة حاكم حازم يوقف الحكام والإقطاعيين عند حدهم ويعيد الأمن ويقر النظام، ويرفع منار العدل والقانون بين الناس، وتعاقبت على البلاد الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشر، والبلاد تتردى فى هوة الانحدار والتفكك والفوضى، حتى انقرضت الدولة القديمة، واستمرت البلاد نحو ثلاثة قرون فى ظلام حالك.

سبعون ملكاً فى سبعين يوماً

ويقول ماتيتون عن الأسرة السابعة إن عدد ملوكها سبعون ملكاً وإنهم حكموا البلاد مدى سبعين يوماً.

ومعنى هذا أن الملك كان يحكم يوماً واحداً، وهذا أفضح مظهر للفوضى التي عمت البلاد وقتئذ.

وقد تحقق أخيراً هدف الثورة على يد رجل برز من صفوف الشعب، واعتلى عرش الملك، وهو (امنمحات) الأول الذى أسس الأسرة الثانية عشرة.

وجاءت أسرة (امنمحات) من خير الأسرات التي تولت الحكم، فأنقذت البلاد من الفوضى، وضربت على أيدي حكام الأقاليم الظلمة المستبدين والإقطاعيين، وأشاعت العدل بين المواطنين، وسنت قوانين عادلة لمصلحتهم، ورفعت من مستوى الموظفين، وجعلتهم خداماً للشعب، هذا إلى ما قامت به من المشروعات العمرانية التي عادت على البلاد وأهلها بالخير والرفاهية.

(١) أحمد بدوى. فى موكب الشمس ج ١ ص ٢٠٤.

(١) أحمد فخرى. تاريخ الحضارة المصرية. العصر الفرعونى ص ٦٠٣.

فانتهاه الدولة القديمة ، وتأسيس الأسرة الثانية عشرة في أوائل عهد الدولة الوسطى هو من نتائج تلك الثورة الشعبية .

ولم تعد مقاطعات الدولة-ملكاً لأحكام الأقاليم السابقين ، وتضاءلت العائلات الكبيرة التي كانت تنصل بالملك بروابط القرابة أو المصاهرة ، وصار حكام الأقاليم موظفين لدى الملك ؛ فأصبحت المقاطعات قومية بعد أن كانت ملكية^(١) ، وفي عهد (سنوسرت الثالث) خضعت aristocratic الحكام والكهنة للنظام ، ولم يعد هناك فارق كبير بين أبناء النبلاء وأبناء الطبقات المتواضعة ، وسادت المساواة للجميع أمام القانون ، وتطلعت الطبقات الشعبية إلى المناصب الرفيعة ، وكان هذا من نتائج الثورة الاجتماعية ، وانتقلت إلى الشعب حقوق الطبقة الأرستقراطية ، حتى الحقوق الدينية التي كانت وقفا على الكهنة الوراثيين .

ومن نتائج هذه الثورة ظهور الطبقة المتوسطة من الصناع والتجار وأرباب الحرف في المدائن والقرى ، واقتداء أفرادها بالطبقة العليا ، ومعظمهم من غير موظفي الحكومة ، ولذلك سموا أنفسهم (أهل البلد) وتغيرت معالم الحياة عما كانت عليه في عهد الدولة القديمة ، وارتقت الطبقة المتوسطة من الشعب ، وبعد الطبقة المتوسطة أتت طبقة العمال ، وجرت العادة وقتئذ أن يرسل هؤلاء العمال إلى معاهد خاصة ليتعلموا الصناعات المتنوعة .

وقد أعترف المؤرخون الأجانب بهذه الثورة فيما كتبوه عنها ، فقال عنها (موريه) Moret : إنها ثورة اجتماعية وسياسية وإنها استهدفت محاربة الأوضاع القائمة في أواخر عهد الأسرة السادسة^(٢) .

وقال (جون ويلسن) John Wilson : إن منزلة الملك نزلت إلى مستوى البشر العاديين ، وكانت الفكرة المميزة للدولة الوسطى إن الملك راع يقظ يسهر ضميره للمحافظة على الأمة ، وكان الاتجاه الثقافي الحديث يدعو إلى حقوق الأفراد^(٣) .

انتهاء الدولة القديمة

انقضى عهد الدولة القديمة في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد .

ومن الحق أن نذكر أنها في الجملة قد نهضت بمصر وحضارتها واحتفظت بمكانتها في العالم ، ويكفي أن نذكر ما قاله عنها مؤرخ منصف وهو العلامة بريستد Breasted إذ يقول عنها : « وقبل الفراغ من الكلام على تاريخ الدولة القديمة ، يجدر بنا أن نشيد بأعمال ملوكها العظام ،

(١) موريه Moret مصر الفرعونية L'Egypte Pharonique ص ٢٤٤ . وكان موريه مدرسا لمدرسة الدراسات العليا بباريس وهو من علماء الآثار المصرية المعدودين .

(٢) موريه Moret مصر الفرعونية المرجع السابق ص ١٩٥ وما يعلها .

(٣) تاريخ الحضارة المصرية لجون ويلسن تعريب الدكتور أحمد فخري ص ٢٠٢ و ٢١٢ و ٢٢٦ .

الذين حكموا القطر مدة ألف سنة تقريباً ، والذين يرجع إليهم فضل توطيد المملكة ، وجمع قوتها وتوجيه مجهوداتها نحو النافع المثمر العائد بالخير والرفاهية ، ولا تزال آثار هؤلاء القوم كالمعابد والأهرام المنتشرة على طول القطر لعدة أميال تلقى في نفس من يراها الإعجاب والدهشة ، وقد شيدت معظم هذه الآثار على سلسلة جبال ليبيا بحافة الصحراء الغربية ، وهذه الآثار تشهد لأصحابها إلى الآن بتوقد الذهن ، وعظم الجهد ، والبراعة في الأعمال الآلية (الميكانيكية) ، والأنظمة الداخلية ، وبناء السفن لعبور البحار ، وارتداد البلاد للكشف ، والحق يقال : إن هؤلاء القوم هم الذين ربطوا التجارة المصرية مع البلاد الأجنبية الحقيقية حتى أواسط إفريقية ، وحسبوا فني الحفر والنقش ، ووضوا بفن العمارة فشيّدوا العمدة العظيمة الشاهقة ، والمباني الضخمة ذات العمدة ، وبرعوا في سياسة البلاد داخلياً وخارجياً فسنوا قانوناً متيناً عادلاً وأنجبوا رجالاً متضلعين في القضاء . وقد اعتنى أهل الدولة القديمة بديانتهم كثيراً لشدة اعتقادهم أنهم في الحياة الأخرى محاسبون على أعمالهم ، وهم للآن أقدم أناس معروفين اعتقدوا بالبعث بعد الموت ، وأن الثواب في الآخرة على قدر الحسنات في الدنيا . وجملة القول إن أعمال هؤلاء القوم ومدنيتهم انتشرت في العالم فأعجب بها الخلق أكثر من إعجابهم بأى شعب آخر^(١) .

(١) بريستد - تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق - ص ٩٣ .

وأهم عمل للأسرة الحادية عشرة أنها عملت على توحيد البلاد ثانية بعد أن كانت مفككة الأوصال .

ولكنها لم تصل إلى هذا التوحيد كاملاً ، إذ كان حكام الأقاليم ينازعونها السلطة ، وظلت الأمور غير مستقرة ، ولعل عهدها كان تمهيداً للأسرة الثانية عشرة التي استقرت في عهدها إعادة الوحدة القومية .

الأسرة الثانية عشرة -

أسرة أمنمحات

(سنة ١٩٩١ - ١٧٧٨ قبل الميلاد)

أسرة أمنمحات هي من أعظم الأسرات في تاريخ مصر القديمة ، ومن أجلها شأننا . أسسها أمنمحات الأول ، وكان كما أسلفنا رجلاً عصامياً يبرز من صفوف الشعب ، وأوصلته مواهبه وحكمته إلى منصب الوزارة في عهد متوحتب الخامس ، وتولى العرش بعد وفاة هذا الأخير .

وتمتاز أسرة أمنمحات عامة بأنها نزلت قليلاً عن السلطة القدسية التي كانت للملك الدولة القديمة .

وتقربت إلى الشعب بإقامتها منار العدل ، وبالعديد من الإصلاحات والأعمال الاقتصادية والعمرائية التي زادت من رخاء الشعب ، وتجلت هذه الناحية في تاريخ أمنمحات الأول والثاني والثالث .

وميزة أخرى لهذه الأسرة ، وهي أنها قضت على حكم الإقطاع في الأقاليم وجعلت ولايتها عمالاً خاضعين لسلطة الملك بعد أن كانوا منذ أواخر عهد الدولة القديمة شبه ملوك مستقلين .

وفي عهد أسرة أمنمحات - أي في مدى مائتي عام تقريباً - تقدمت البلاد تقدماً عظيماً في شتى النواحي .

ويعرف هذا العصر عند الاثريين بعصر (الآداب) ، لأنها بلغت فيه أعظم شأوه ، فالشعر والنثر بلغا الذروة من حيث المتانة والجودة ، وارتقى فن الحفر والعمارة بدرجة تسترعى النظر ، وفاققت المصنوعات الفنية مثيلاتها في العصور الغابرة .

وزادت خيرات البلاد كثيراً لعناية الحكومة بشئون ضبط النيل وإقامتها مشروعات الري في الفيوم واستصلاحها أقاليم شاسعة من الأراضي الزراعية مما عاد على البلاد بالخير العميم . وكانت مصر في عهدها أقوى دولة في الشرق الأدنى .

الفصل الثالث

الدولة الوسطى

إد الدولة الوسطى وخاصة من عهد الأسرة الثانية عشرة قد سارت بالبلاد قدماً إلى الأمام ، وفي عهدها خيبت الحركة القومية والحضارة المصرية خطوات واسعة نحو الكمال ، وفي ذلك يقول سترابون (برستد) : « بقي علينا الآن أن نتفقد الحوادث ، لنعرف إذا كان اضمحلال الدولة القديمة وانقراض عقدها مستمر حتى أفسد النخوة القومية ، أو أن هذا الانقلاب كان حادثاً عرضياً فقط ، عالجت أذهان وأيدي رجال مصر العاملين فأرجعوا المياه إلى مجاريها ، وساعدوا بلدهم على التقدم والرفق حتى أدهشوا العالم »^(١) .

الأسرة الحادية عشرة

(سنة ٢١٣٤ - ١٩٩١ قبل الميلاد)

بداية الدولة الوسطى

هي أسرة من طيبة ، وقد اتخذتها عاصمة للدولة . وتأسس هذه الأسرة هو « أنتف » Antef وكان ملكاً حازماً عاملاً على إتهاض البلاد ، ثم تلتها « أنتف الثاني » ثم الثالث .

متوحتب الثاني وإعادة الوحدة القومية

ملكه ابنه متوحتب الأول Mentoheteb فمتوحتب الثاني .

يخرج من أهم ملوك هذه الأسرة ، وقد بقي في الحكم نحو نصف قرن ، وعمل على رآب الصدع ببيت سلطة العرش ، وقد نجح في إعادة الوحدة القومية بعدما اعتراها من التفكك والتخاذل سر سرحل الأرضين ، وكان انتصاره على معارضيه وتوحيد مصر جميعها تحت سلطانه بداية جديدة في تاريخ مصر القديم ، وكانت مدة ملكه عهد استقرار وطمأنينة ونهضة . متوحتب الثالث ثم متوحتب الرابع فالخامس^(٢) وهو آخر ملوك هذه الأسرة ، وكان منمحات (الذي أسس الأسرة الثانية عشرة .

١ - المرجع السابق - ص ٩٣ .

٢ - مصر الفرعونية المرجع السابق - ص ٢٢٧ .

أمنمحات الأول

كانت أمه من أصل نوبي ، وكان ملكًا عادلاً خبيرًا ، حكيمًا حازمًا ، أعاد الأمن والنظام والطمأنينة إلى البلاد ، ونظم أمورها الداخلية ، ونجى إلى الشعب بأعماله العمرانية ، فاهتم بإقليم الفيوم لتنظيم الري والاستفادة من بحيرة مورييس (بحيرة قارون) ، وإن كان الفضل في تنفيذ مشروعات الري في الفيوم يرجع إلى أمنمحات الثالث .

وبذل همه في استغلال المناجم والمهاجر ، وتسهيل وسائل التجارة ، ووضع حد لغارات البدو على الحدود الشرقية والحدود الغربية .

وبنى سلسلة من التحصينات في كليهما ، ونقل عاصمة البلاد إلى مقربة من منف ، ووجه عنايته إلى بلاد النوبة ، وعمل على ضمها إلى مصر ، وأخضع حكام الأقاليم ، وأخذهم بالحزم والحكمة ، فأبقى منهم أكثرهم ولاء له واتباعًا لأوامره ، فتمكن بهذه السياسة الرشيدة من جعلهم معاونين له ومساعدين ، ولما تقدمت به السن أشرك معه في إدارة شؤون الدولة ابنه (سنوسرت) ، وظل يحكم البلاد نحو ثلاثين عامًا .

قال الدكتور أحمد بدوى في صدد سيرته : « ولما تقدمت السن بالرجل ، وكان قد أمضى على عرش البلاد قرابة عشرين عامًا ، بدأ يحس بحاجة الملحة إلى معين ، فأشرك معه في إدارة البلاد بكر أولاده الأمير سنوسرت (سنوسرت الأول فيما بعد) وأسند إليه إمارة الجيش ، واستطاع بذلك أن يؤمّن سلطان القصر ، وأن يصل ماضيه بحاضره ، ثم وفق في استئناف جهاده في سبيل تطهير البلاد وإضعاف شوكة الحكام من أمراء الأقاليم الذين كانوا يبذلون غاية الجهد في الدفاع عن استقلال أقاليمهم ، والمحافظة على سلطتهم ، والواقع أن تلك الخطوة قد أعانت الرجل على التدخل في شؤون أولئك الأمراء كلما وجد إلى ذلك سبيلًا ، وكان من نتيجة ذلك كله أن آل إلى القصر حق تولية الموظفين الذين يديرون شؤون الأقاليم وحق عزلهم ، ولم يكن ذلك قبل أيامه من حق الملوك ، وبذلك استطاع أمنمحات أن يسترد ما كان للقصر من سلطان مفقود ، ولم يكتف أمنمحات بتلك الخطوة في سبيل تأييد العرش وتنظيم شؤون الحكم ، وإنما جعل على رأس الإدارة وزيرًا شدد به أزره ، وأشركه في أمره ، كى يسهل عليه تسيير الأمور في سبيل سهولة لا عسر فيها ولا توقف ، وليس من شك في أن ذلك النظام قد أراح البلاد من تلك الفوضى التي غمرتها أيام الإقطاع ، فأثبتت حكماتها ، ودفعتهم إلى الخصام والحرب ، وأعبت من ورائهم ذلك الشعب المسكين ، فأشقت وأضنته وكلفته الشلطة ، وأرهقته من أمره . سرا ، يمثل هذه الخطوات الحازمة التي قدمنا ، وضع أمنمحات حجر الأساس في بناء تلك النهضة الجديدة ، فمهد لخلفائه من بعده سبيل السير بها إلى أبعد غايات السمو ، وسجلها لتاريخ مصر في صحائف من ذهب ، على أن أعمال الرجل لم تقف عند حد ما ذكرنا من إصلاح زراعى وإدارى ، وإنما الراجح أنها أكثر من ذلك ، فقد نظر الرجل إلى واحة الفيوم من وراء قصره

وأخذ يفكر في استغلالها ، وإلى أيامه يعزو بعض المؤرخين أول تفكير في إصلاح تلك البقعة من الأرض إذ كان هو أول من فكر في إنشاء ذلك الخزان الذى تم على عهد أمنمحات الثالث ، وسماه المؤرخون في عصر اليونان « بحيرة مورييس »^(١) .

وقد توفى أمنمحات الأول سنة ١٩٦١ ق م .

خلفاء أمنمحات الأول

سنوسرت الأول SENOUSRET

هو ابن أمنمحات الأول ، وفي عهده توسعت مصر في بلاد النوبة .

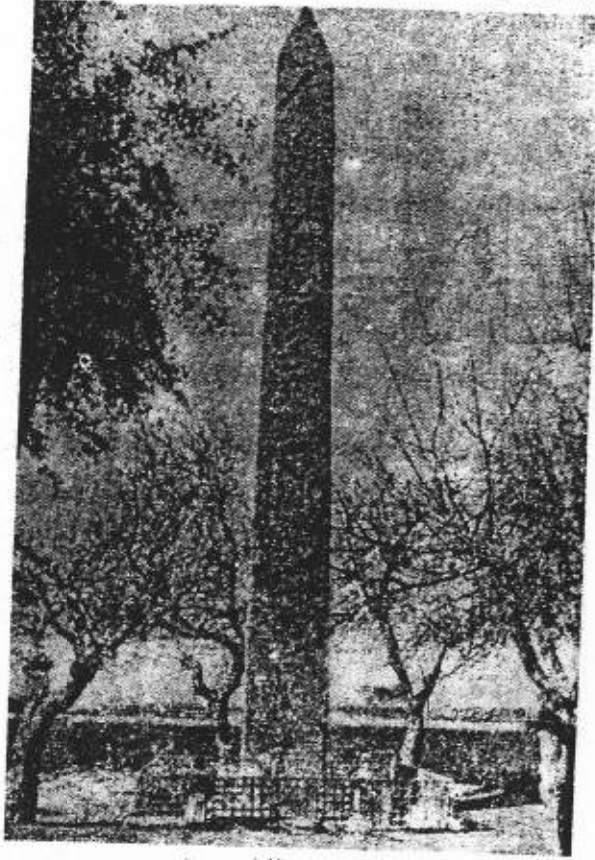


سنوسرت الأول - من أسرة أمنمحات
(الأسرة الثانية عشرة) ومشيد مسلة عين شمس

(١) أحمد بدوى : في موكب الشمس ج ٢ ص ١٠٠ .

مسلة عين شمس

ومن أعمال هذا الملك عدا إنشاء جامعة عين شمس إقامته مسلة عين شمس المشهورة (بالمطرية) والباقية إلى الآن ، ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً ، وهي قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر ، وقد أقامها في مدخل المعبد والمدرسة الجامعة اللذين بناهما في عين شمس (التي يسميها اليونانيون هليوبوليس) ، وهي أقدم مسلة قائمة في مكانها الأصلي^(١) .
وقضى سنوسرت في الحكم نحو أربعة وأربعين عاماً ، وهو من أعظم ملوك مصر .



مسلة سنوسرت الأولى بعين شمس

(١) يقول الدكتور أحمد بدوي في كتابه (موكب الشمس ج ٢ ص ١٣٠) إن مسلة عين شمس إحدى خمس مسلات مازالت في مكانها الأصلي وأما باقي مسلات الفراعنة فقد نقلها الضعف والهوى السياسي إلى ما وراء البحار إلى لندن وباريس ونيويورك وروما ولستانبول وفي روما وحدها مسلات تسع .

وعنى عناية كبيرة باستغلال المناجم في الصحراء يستخرجون منها الذهب والنحاس ، ويستخرجون من محاجر التوبة الأحجار الممتازة .
وكان ملكاً حازماً يحب العدل ، وإدارياً يقظاً ، يراقب رجاله مراقبة شديدة يضمن بها استقامتهم ورعايتهم للصالح العام .

كتب (أميني) أحد رجاله يصف مسلكه في حكم مقاطعة الغزال ، ويمتدح العدالة الاجتماعية التي كان ينشدها الناس ، وعلى رأسهم سنوسرت الأول قائلاً : إنني لم أسء معاملة بنت أي رجل ولم أظلم أية أرملة ، ولا يوجد فلاح احتقرته ولا راع أقصيته ، ولا رئيس عمال قد سخرت عماله ، ولا يوجد بائس في بلدي ولا جائع في عهدي ، وعند حلول سني القحط كنت أحرث كل حقول مقاطعة الغزال إلى حدودها الجنوبية والشمالية ، وبذلك حافظت على حياة أهلها ، مقدماً لهم الطعام حتى لم يبق فيها جائع ، وأغدقت على الأرملة والمتزوجة الخيرات على السواء ، ولم أميز العظيم على الصغير في كل ما أعطيت ، وبعد ذلك كان يأتي نيل يحمل الحبوب وكل الأشياء ومع ذلك فإني لم أحصل المتأخر على الحقول^(٢) .

ولا شك أن هذه التصريحات تعبر عن المثل الأعلى في الحكم والاستمساك بالعدالة الاجتماعية ورعاية الفقراء والمخدب عليهم ، ومهما قيل عنها من المبالغة في الوصف والإطناب في محامد أميني ، فإنها تدل على أن مثل هذا التقرير يقيد في السجلات العامة ويطلع عليه الملك ، فواضعه وكتابه قد اختار الصفات التي تتراح إليها نفس الملك العادل ، وتطمئن إليها نفوس المواطنين .

جامعة عين شمس

كانت مدينة (أون) - عين شمس - وقتاً ما مدينة العلم والنور ، كانت عاصمة البلاد الفكرية والدينية .

جاءها أفلاطون لينهل من علومها وفلسفتها وينقل من علومها .

ويقول المؤرخ بتلر : إن استرابون لما زار مصر دله الناس على المواضع التي كان أفلاطون يتلقى فيها العلم من قبل^(٣) .

وقد سماها الدكتور عبد المنعم أبو بكر (جامعة هليوبوليس)^(٤) .

وكانت هذه المدرسة الجامعة أشهر مدارس مصر القديمة كمدرسة منف ومدرسة طيبة .

(١) سليم حسن : مصر القديمة ج ٣ ص ٢٨٥ و ج ١٠ ص ١٤٤ .

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٥٠١ .

(٣) عبد المنعم أبو بكر : أختاتون ص ٦٣ .

الرجل الذى يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يقوى قلب العدو ، والشجاعة هى مضاء العزيمة ،
والجبن هو انتخاذل ، وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقاً»^(١) .



سنوسرت الثالث

قناة سنوسرت الثالث التي تصل النيل بالبحر الأحمر

يرجع إلى سنوسرت الثالث عمل من أجل الأعمال العمرانية ، وهو وصل النيل بالبحر الأحمر
بواسطة قناة مائية تيسر المواصلات التجارية .

وهذه القناة قد أعاد حفرها الملك (نيخاو) الثانى ، ثم الإمبراطور الرومانى تراجان .
وردت بعد ذلك إلى أن أعاد حفرها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وسميت
(خليج أمير المؤمنين) .

ففى عهد سنوسرت الثالث اتصل النيل لأول مرة فى التاريخ بالبحر الأحمر وعُرفت هذه القناة

(١) سليم حسن : مصر القديمة ج ٣ ص ٢٨ و ج ١٠ ص ١٤٤ .

أمنمحات الثانى

هو ابن سنوسرت الأول ، وكانت أيامه أيام هدوء وطمأنينة ، وقد أرسل البعوث الاقتصادية
إلى سيناء والنوبة فى مناطق التعدين وإلى الصومال (بلاد بونت) للتجارة ، وكان الوصول إلى
هذه البلاد أمراً شاقاً عسيراً فى ذلك العصر ، لبعُد المسافات بينها وبين مصر ، وهذا يدلنا على
المهارة ومضاء العزيمة فى النهوض باقتصاديات البلاد .

سنوسرت الثانى

لم يزد حكمه على تسعة أعوام ، وامتاز عهده بحسن العلاقات بين مصر والأقاليم الآسيوية .

سنوسرت الثالث^(١)

هو الفاتح الكبير ، زادت مدة حكمه على ثمانية وثلاثين عاماً ، وامتاز عهده بقضائه
الناس على نفوذ حكام الأقاليم وعلى نظام الإقطاع ، ثم بأعماله الحربية فى النوبة وفى فلسطين
وسورية .

وقد عمل منذ توليه الملك على ضم النوبة نهائياً إلى مصر ، فشق لأسطوله طريقاً بين صحور
الشلال الأول ، وأنشأ مهندسوه هذا الطريق المائى فى أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة
مائتين وستين قدماً بعرض أربعة وثلاثين قدماً وعمق ستة وعشرين قدماً ، وحمل على النوبة عدة
حملات وطلدت فيها السلطة المصرية .

وشيد حصنين متقابلين فى آخر الحدود الجنوبية للدولة على شاطئ النيل ، أحدهما فى (سمنة)
والآخر فى (قمّة) ، (انظر موقعهما على الخريطة المنشورة بالفصل السادس) .

يقول المؤرخ برستد : « ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية للآن تشهد لمصر فى تلك الأوقات
بالبراعة الحربية والكفاية فى اختيار مواقع الدفاع الحصينة ، والمقدرة على تشييد الحصون
التيعة »^(٢) .

وعلى الحدود الجنوبية (فى سمنة) نصب سنوسرت الثالث لوحته المشهورة التى يتحدث
فيها إلى المصريين عن الكفاح الوطنى ويحثهم عليه ، قال فى هذا الصدد : « ولقد جعلت تخوم
البلاد أبعد مما وصل إليه أجدادى ، وزدت فى مساحتها على ما ورثته ، ونى ملك يقول وينفذ ،
وما يختلج فى فؤادى تفعله يدي ، وإلى طموح إلى السيطرة ، وقوى لأحرز الفوز ، ولست بالرجل
الذى يرضى بالتقاعس عندما يُتحدى عليه ، أهاجم من يهاجمنى حسبما تقتضيه الأحوال فإن

(١) بسميه هيروودوت سيوسرتيس .

(٢) برستد تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق ص ٢٢٩ .



أمنمحات الثالث
صاحب مشروعات العمران الجليلة

أعمال الري والعمران

كان أمنمحات الثالث أكثر ملوك مصر اهتماماً بشئون الري وضبط مياه النيل ، وخاصة مشروعات الفيوم .

وقد بدأ التفكير في هذه المشروعات في عهد أمنمحات الأول ، ولكن تنفيذها كان على يد أمنمحات الثالث .

وأنشأ مقياساً للنيل في (سمته) بالنوبة عند الشلال الثاني ، لتسجيل ارتفاع النيل وليطمئن على حالة الفيضان ، وكانت أنباء مقاسات هذا المقياس ترسل لموظفي مكتب الوزير بالوجه البحري ، وكانوا يقدرون كمية الحبوب التي يمكن إنتاجها على ضوء هذه البيانات في السنة المقبلة .

خزان بحيرة موريس

وأنشأ سدّاً للمياه ذ فتحات على بحيرة موريس الكائنة بالجزء الشمالي الغربي لإقليم الفيوم ، ليتفجع بالبحيرة كخزان لحماية البلاد من الفيضانات العالية ، ولتؤخذ منها المياه لتحسين الملاحة ، ولرى أراضي الوجه بحري ، والاستفادة منها وقت التحاريق (انظر الخريطتين ص ٦٦ و ص ٦٧) .

في التاريخ بترعة سيزوستريس ، وهو الاسم الذي أطلقه الإغريق على سنوسرت ، أو ترعة الفراعنة .

وكانت هذه القناة تبدأ عند ضواحي بويستة وتأخذ مياهها من فرع النيل الثاني (نسبة إلى مدينة تانيس وهي صان الحجر الحالية) ، وتصل إلى البحيرات المرة ثم إلى خليج السويس .

ويقول موريه^(١) : إن هذه القناة أنشئت في عهد سنوسرت الثالث ، وقد حفرها في شرق الدلتا ، واتصل النيل بواسطتها بخليج السويس عن طريق وادي الطميلات والبحيرات المرة ، وتعد أقدم طريق مائي يصل النيل بالبحر الأحمر ، وإن هذه أول تجربة لوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بواسطة النيل .

مصر والبلاد الآسيوية

وفي عهد سنوسرت الثالث غزا المصريون الشام ، وقد اصطحب قائده (سبك خو) Sebek Khu في هذا الغزو حيث هزم الآسيويين ، ومن يومئذ وصلت سلطة مصر إلى هذه الأصقاع وماوست السيادة على الساحل الفينيقي وعلى فلسطين وقسم كبير من سورية . وسنوسرت الثالث يشبه في مواهبه الحربية (تحوتمس الثالث) الذي سيرد الكلام عنه في الفصل السادس .

أمنمحات الثالث

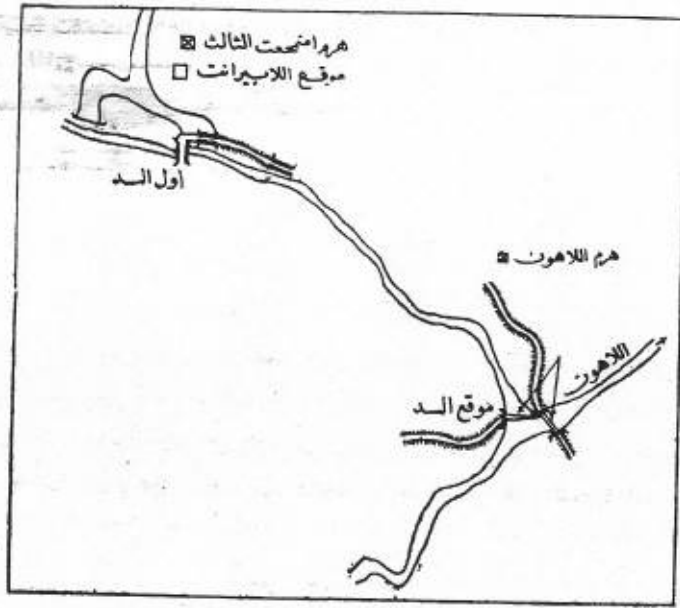
هو ابن سنوسرت الثالث وأعظم ملوك الأسرة ، ومن أعظم الملوك في تاريخ مصر القديمة . ومن أعماله الهامة مشروعات الري العظيمة التي نفذها والتي عادت على البلاد بالرخاء والرفاهية .

كان يحيا لصالح الشعب بمختلف طبقاته ، ولما تولى الملك وسع نطاق المناجم في سيناء لاستخراج كنوزها ، وذلك عقبات كتوداً كان يشكو منها العمال هناك ، وأهمها أمور سكناتهم ، فقد أسس لهم بيوتاً ثابتة بدل المساكن المؤقتة التي كانوا يأوون إليها بحيث لا تبقى أكثر من بضعة أشهر .

وانصرفت جهوده إلى مختلف نواحي الإنشاء والتعمير ، فأرسل عدة بعثات إلى سيناء لاستخراج المعادن منها .

(١) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٢٥٩ .

وقد بدأ الملوك الأول من الأسرة الثانية عشرة فى تصميم هذا المشروع ، ولكن الفضل الأكبر فى تنفيذه يرجع إلى أمنمحات الثالث الذى نظم السدّ العظيم بوفى مياه الرى لأراضى الوجه البحرى .



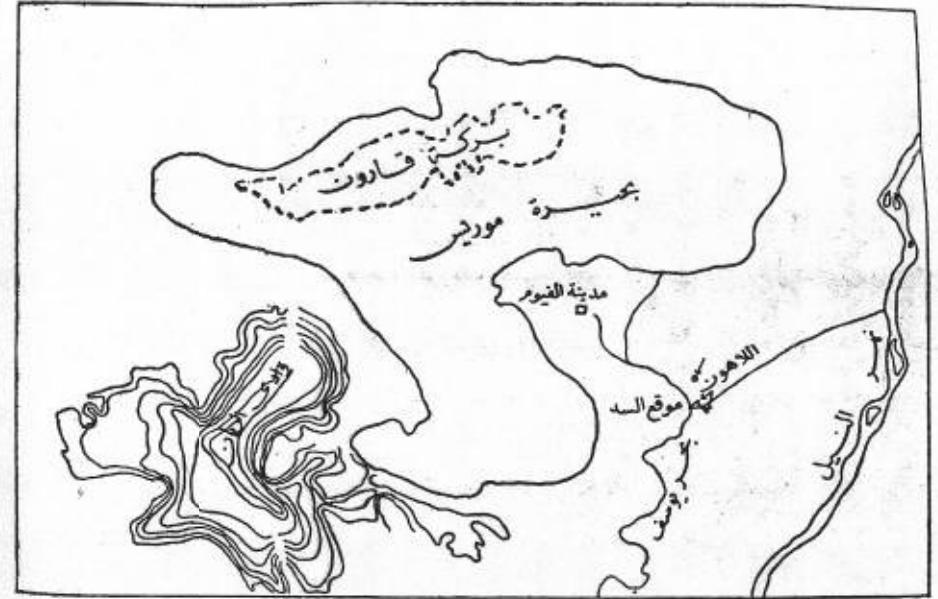
موقع خزان بحيرة موريس
كما رسمه العالم المهندس على شافعى فى كتابه (بحيرة موريس واللاهوت)
وترى فى الرسم هرم أمنمحات الثالث وقصر اللاهوت

يقول السير (وليم ويلككس) الذى كان وقتاً ما مديراً عاما للخزانات بمصر فى محاضرة له ألقاها سنة ١٩٠٤ عن بحيرة موريس : « إنه كان يوجد فى زمن الملك (مينا) اتصال بين النيل والمكان الذى فيه هذه البحيرة ، إلا أنه لم يوسع الترعة الموصلة بين النيل والبحيرة إلا الملك أمنمحات الثالث الذى جعل البحيرة التى كانت لا قيمة لها فى عصر الملك مينا بحراً خصباً واقعاً فى وسط الأرض يحفظها من غوائل الفيضانات العالية ، ولعمري لقد كان أولئك القراعة القدماء جبابرة فى علم الرى ، كما كانوا حكماء وذوى جرأة وإقدام »^(١) .

وقال : « إنه كانت هناك قناطر موازنة قائمة عند مدخل ومخرج بحيرة موريس فى الممر الذى

(١) عن محاضرة ألقاها السير وليم ويلككس عن « خزان أسوان وبحيرة موريس » ص ٣ .

وهذه الفكرة شبيهة بالفكرة التى أدت إلى إنشاء خزان أسوان فى العصر الحديث .
وتفصيل ذلك أن مياه النيل كانت تتدفق فى بحيرة (موريس) قرابة ستة أشهر فى العام .
وكان بحر يوسف كفرع من فروع النيل القديمة يصب فيها .
وكانت توجد فتحة بسلسلة جبال ليبيا بجهة الفيوم ، تصل النيل بإقليم الفيوم المنخفض عن سطح البحر ، وتسمى هذه الفتحة (بحر اللاهوت) .
وقبل حكم الأسرات الملكية كان فيضان النيل يغمر إقليم الفيوم محوياً إياه إلى بحيرة كبيرة .



بحيرة موريس القديمة
مقتبسة من كتاب (بحيرة موريس واللاهوت)
للعالم المهندس على شافعى مفتش عام رى الصحارى سابقا

فلما جاء ملوك الأسرة الثانية عشرة فطنوا إلى تخزين كمية عظيمة من المياه فى تلك البحيرة وتصريفها وقت التحريق .

فشيّدوا على الفتحة سالفة الذكر سدّاً عظيماً مزوداً بفتحات لخزن المياه فى بحيرة موريس ، تاركين فى الوقت نفسه مساحة كبيرة من الأرض للزراعة .

يوصل البحيرة بنهر النيل، فالقنطرة الأولى واقعة عن جسر اللاهون الحالي، والثانية عبارة عن ترعة متسعة منحدره من الصخر المنحوت بمنسوب موافق لمرور مياه الفيضان العالية، حيث يوجد الآن بحر يوسف الحالي، وكان في نهايتها سد ضخيم قائم على رأس وادي (البطس) الضيق، وكان هذا السد يزال في أيام الفيضانات العالية الخطيرة، وبجوار قنطرة الموازنة الثانية قرية (هواره المقطع) الحالية أو (هابوار- القديمة)^(١).

وقال في موضع آخر: « ولعمر الحق إن الأسرات الملكية الفرعونية التي جاهدت في سبيل حماية البلاد من عدويها اللدودين (الشرق والقيضان) وكفلت سعادة رعاياها في تلك الأزمان لجديرة بالثناء العاطر والذكر المجيد ».

ويقول المؤرخ برستد: « إن الزائر لمنطقة هذا السد العظيم يقدر جلال المجهود الإنساني الذي رفع من شأن الأراضي المنخفضة التي غمرتها المياه قديماً »^(٢).

ويقول (هيرودوت) الذي زار مصر حوالي سنة ٤٤٥ قبل الميلاد، في عهد الاحتلال الفارسي: إن فيضان النيل كان يغمر تلك البحيرة العظيمة عن طريق الفتحة الموجودة بجبال ليبيا، وإن المصريين كانوا يروون أرضهم زمن التحاريق من مياه هذه البحيرة الواسعة. وشاهد (استرابون) محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة من إقليم البحيرة المذكورة.

قصر اللايرنت

وأتشأ أمنمحات الثالث في الجهة البحرية للفتحة الموصلة لأرض الفيوم قصرًا ضخمًا يبلغ طوله حوالي ألف قدم، وعرضه ثمانمائة قدم، اتخذه معبداً دينياً، ومقرًا إداريًا للحكومة، وحوي نحو ثلاثة آلاف غرفة، وفي هذا القصر كانت تجتمع هيئة الحكومة أحياناً، وقد بقيت آثاره واضحة حتى وصفه (استرابون) الذي شاهده وأطلق على هذا القصر في العهد الروماني اسم (لايرنتا) Labyrinth أي (التيه) لكثرة ما حواه من غرف وأبهاء وعمرات. وقد شاهد (هيرودوت) هذا القصر، وقال عنه: إنه يفوق الوصف وإن عمارته منقطعة النظير، ولا يفضل عليه عمارة الهرم الأكبر.

وظل أمنمحات الثالث على العرش قرابة خمسين عاماً كانت من خير السنين في تاريخ مصر القديمة.

(١) عن حاضرة ألقاها السير ولين ويلكوكس « عزان أسوان وبحيرة مورييس » ص ٣ و ١٤.

(٢) برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور. المرجع السابق - ص ١٢٤.

أمنمحات الرابع

وقد خلفه على العرش ابنه أمنمحات الرابع. ولم يكن على غرار أسلافه في الهمة والكفاية، وحكم نحو تسع سنوات.

الملكة سبك نفرو

وكان آخر ملوك هذه الأسرة الملكية (سبك نفرو) ابنة أمنمحات الثالث. وقد حكمت نحو ثلاثة أعوام، ثم تقطع نسل هذه الأسرة، وهوى نجمها.

الأسراتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

بعد أن انتهى حكم الأسرة الثانية عشرة خلفتها الأسرة الثالثة عشرة وكانت عاصمة ملكها (منف).

وفي عهدا ضعفت الجبهة الداخلية لتنازع الطامعين في الحكم. وتدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد.

فبعد أن كان نظام الري ينفذ في أنحاء تحت إشراف الملك، اتعدم نظامه واضطربت شئونته، فقلت الحاصلات، والمصنوعات، ثم عمد حكام الأقاليم إلى استعمال الشدة والظلم مع المواطنين. ففرضوا عليهم الضرائب والأتاوات الباهظة، وأثقلوا كاهلهم، وجاءت هذه الأحداث هادمة لنهضة البلاد ورخائها اللذين كانا مبعث عناية أسرة أمنمحات في مدى مائتي سنة تقريباً. وليس معروفًا على وجه التحقيق كيف تبوأَت الأسرة الثالثة عشرة عرش مصر، وقد يكون للضعف الذي أصاب جبهتها الداخلية دخل في قيامها.

الأسرة الرابعة عشرة

وأعقبتها الأسرة الرابعة عشرة. وكلتا الأسرتين تناحذت أمام الغزو المكسوسي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

الفصل الرابع

ثورة الشعب على الهكسوس واجلاؤهم عن مصر سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد

رزت البلاد في القرن الثامن عشر قبل الميلاد بالغزو الهكسوسى .

وقع هذا الغزو حوالى سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد ، فى عهد الأسرة الثالثة عشرة^(١) .

والهكسوس - أو الرعاة - قوم من قبائل مختلفة ، لا تربطهم رابطة ، يرجع أصلهم إلى أواسط آسيا ، وقد انحدروا غرباً ، يقصدون النهب والسلب ، أو الاستعمار والغصب ، فنزحوا إلى بلاد الرافدين ، ثم استقروا وقتاً ما فى سورية ولبنان وفلسطين ، وحكموها دون أن يكونوا من أهلها ، ثم حدثتهم أنفسهم بأن يضموا إلى البلاد التى غزوها بلاداً أخرى طمعاً فى خيراتها ، وهى مصر . ولقد كانت حالة مصر الداخلىة فى عهد الأسرة الثالثة عشرة مغرية للهكسوس بأن يهاجموها ويفزوها ، فالاضطراب كان يسودها فى عهد هذه الأسرة ، والجيبة الداخلىة مفككة متخاذلة ، والنزاع على السلطة يفرق بين أبناء الوطن الواحد ، والحالة الاقتصادية والاجتماعية فى تدهور . قمصر كانت تمر بفترة انحلال وضعف قومى يسهل على الأجنبى المغير أن ينال منها .

أضف إلى ذلك أن الهكسوس كانوا يستخدمون فى هجومهم سلاحاً جديداً بالنسبة لذلك العصر ، وهو سلاح العربات التى تجرها الخيل فى ساحة الوغى ، ولم يكن هذا السلاح مألوفاً ولا معروفاً وقتئذ لدى المصريين القدماء ، فكان تميزاً للهكسوس فى تضالهم ضد مصر .

وليس فى المراجع القديمة ما يدل على وقوع معارك حاسمة بين المصريين والهكسوس ، بل يبدو مما كتبه المؤرخ المصرى (مانيتون) أن الغزو كان مفاجئة لمصر ، فهو يقول فى الحديث عنه : « وفى عهد الملك توتيمايوس Toutimaius لا أدرى لماذا أرسل الله فى عهده ريحا عاكستنا ، فقدم بلادنا أناس من الشرق ، محتقرون مهينون ، فأغاروا عليها ، وأخضعوها بسهولة ومن غير قتال ، وهذا أمر بعيد الاحتمال ولم يكن فى الحسبان ، فإن الأغرأب انقضوا على الدلتا وانتشروا فى أنحاء انتشار الجراد ، وما لبث أولئك الرعاة أن اختاروا سلاطيس Slatiis أحد رؤسائهم فولوه ملكاً عليهم ، وألزموا الأمراء الوطنيين الاعتراف به والخضوع لسلطانه » .

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس ج ٢ ص ٢٩٠ . وأحد فقيرى - مصر الفرعونية ص ٢٤٣ . وتاريخ العالم لناشره السير جون هامرتون ج ١ ص ٤٦٠ .

فهذا الوصف يدل على أنه لم يكن هناك معارك جديده أدت إلى غلبة الهكسوس ، بل كان غزواً فجائياً نكبت به البلاد على حين غرة ، وكان تخاذل الجبهة الداخلىة أول الأسباب لوقوعه . تخاذلت الأسرة الثالثة عشرة ، ثم الرابعة عشرة ، أمام الهكسوس ، فحكموا شرق الدلتا حكماً مباشراً وعاثوا فيها فساداً ، وكانوا قوماً مخترين . نغصفوا بكل مظاهر الحضارة المصرية ، واضطهدوا الأهلىن .

يقول موريه Moret إن هذه أول مرة منذ عهد الملك مينا استهدفت فيها مصر لغزوة أجنبىة طويلة المدى .

وبقيت الأسرة الرابعة عشرة تحكم غربى الدلتا موالية للاستعمار ، أما أمراء الوجه القبلى فقد احتفظوا بشبه استقلال ذاتى ، مع دفع الجزية للهكسوس ، وهذا مناه أن الهكسوس كانوا يحكمون شرقى الدلتا حكماً مباشراً ، وكانت لهم السيادة على غربىها ، وجزء من مصر الوسطى ، أما الوجه القبلى فكان له شبه استقلال ذاتى ، ولم يستطع الهكسوس إخضاعه لحكمهم المباشر .

ولم يطمئن الهكسوس يوماً على سيطرتهم ونفوذهم فى مصر ، ولذلك اتخذوا عاصمتهم فى (أواريس) ، وهى بلدة تقع فى الشمال الشرقى من الدلتا ، اختاروها لكى لا يُحاط بهم إذا تغلغلوا فى الدلتا أو الوجه القبلى ، وليكونوا على اتصال بمعقلهم فى فلسطين .

وليس معروفاً على وجه اليقين موقع (أواريس) هذه ، ويختلف الأثريون فى تحديدها ، فبعضهم كان يظن أنها (هواره) بالقيوم ، ولكن هذا الرأى قد استبعد استبعاداً تاماً لوضوح خطته ، وقال البعض إنها (صان الحجر) - تانيس - فى الشمال الشرقى من الدلتا ، وقال آخرون إنها فى المكان الذى أنشئت فيه (بر رعسيس) أى جنوبى ييلوز (الفرما)^(١) .

وقع الغزو الهكسوكى حوالى سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد كما أسلناه ، وتحررت منه البلاد حوالى سنة ١٥٧٠ ق . م .

وهذان التاريخان هما أرجح الآراء عن مدة بقاء الهكسوس فى مصر إلى طردهم منها ، أى أن احتلالهم دام قرابة قرن ونصف قرن من الزمان .

الغزو الهكسوسى والاحتلال الإنجليزى ومدة كليهما

ولا تهولنك هذه المدة ، ولا تجعلها موضع الدهشة والاستراب لطولها ، فإذا عقدنا مقارنة بين احتلال الهكسوس فى العصر القديم ، واحتلال الإنجليز مصر فى العصر الحديث ، نجد

(١) فى القاموس الجغرافى للبلاد المصرية للمرحوم محمد رمزى (ج ١ البلاد المتدومة ص ١٣٤) إنها فى الشمال الشرقى لبلدة القنطرة .

ويقول موريه Moret فى كتابه (مصر الفرعونية) ص ٢٨٧ إنها تقريباً فى مكان ييلوز والرأى الراجح أنها (قنره) الحالية مركز قافوس الآن .

أن الاحتلال الإنجليزي بدأ سنة ١٨٨٢ ميلادية ، ولم ينته إلا سنة ١٩٥٦ ، أى أنه بقى أربعاً وسعين عاماً جائئاً على صدر البلاد ، فى الوقت الذى ارتقى الشعور الوطنى والوعى القومى فى مصر الحديثة ، فلا تلام مصر القديمة على بقاء الاحتلال الهكسوسى فيها ضعف هذه المدة ، فالأمر كما ترى قريب من قريب .

على أنه فى كلا الاحتلالين ، كان ولاء الأسرة الحاكمة للاحتلال والاستعمار الأجنبى هو السبب الجوهري لوقوعه ولبقائه ردحاً طويلاً من الزمن والناس على دين ملوكهم . أو زعمائهم .

ويبدو حسن استعداد المصريين لكفاح الاستعمار أنه لم تكمد حرب التحرير تبدأ فى (طيبة) حتى لى الشعب نداء (سقن رع) ملك طيبة المجاهد .

وتملك المواطنى الروح القومية الوثابة وانضوا تحت علم الثورة ، حتى جلا المستعمر عن البلاد سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد .

تعاقت على البلاد الأسرات الزباعدة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة . ولم تبدأ حرب الاستقلال إلا على يد الأسرة السابعة عشرة .

ومن المحقق أن ملوك الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة كانوا من صميم الهكسوس . فلا يصح إحصاؤهم ضمن الأسرات المصرية . ومن أهم ملوكهم (خيآن) . وآخر ملوكهم (أموقيس) .

وبقى الأمراء الوطنىون فى مناطقهم شبه مستقلين - يدفعون الجزية للهكسوس ، ثم تزعمت طيبة حركة التحرير .

بدأت حرب التحرير على يد (سقن رع) ملك طيبة ، من ملوك الأسرة السابعة عشرة وكان أبو فيس الملك الهكسوسى يتحرش بسقن رع ويتحده ويريد إزالته ، ولكن سقن رع سارع إلى إعداد العدة لمحاربة المحتل الغاصب ، وأعلن الحرب على الهكسوس ، فحاربهم بمعاونة الشعب فى كفاحه .

وما زال (سقن رع) يحارب الهكسوس ، حتى سقط شهيداً فى ميدان الجهاد . وبعد مقتله حمل الراية من بعده ابنه (كامس) Kames فحاربهم واستولى على المدن الواقعة بين الأشمونيين وأطفيح .

على أنه مات هو أيضاً فى ميدان الكفاح ، فخلفه أخوه (أمس) Ahmes الذى ثابر على حرب الهكسوس ، واستمر يحاربهم فى الصعيد وفى الدلتا حرباً لا هوادة فيها . واستخدم المصريون السلاح الذى حاربهم به الهكسوس من قبل ، سلاح العريات التى تجرها البخيل ، كما تدرعوا بالشجاعة والصبر والإيمان .

فما زالوا يجاهدون الهكسوس حتى ارتدوا إلى (أواريس) ، التى اتخذوها من قبل عاصمة لهم كما أسلفنا ، فحاصروهم فيها المصريون وحملوا عليهم فيها ثلاث حملات حتى استسلمت سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد .

كانت حرب التحرير ضد الهكسوس حرباً ضرورياً . تجلت فيها بطولات كتائب التحرير المصرية ، سجل أحد الضباط الشبان (أمس بن ابانا) على جدران مقرته نصواً قال فيها : « أمضيت صدر شبابى فى مدينة الكاب ، وكان أبى ضابطاً فى جيش الملك سقن رع ، ولما توفى لى دخلت الجندية ، وأصبحت ضابطاً على سفينة من سفن الملك فى عهد أمس ، وكنت شاباً لم أتزوج بعد ، فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت إلى أسطول الشمال تقديراً لشجاعتهى . ثم يقول إنه نقل من البحرية إلى الجيش وأنه تولى قيادة الحرس الملكى وأنه كان يتبع الملك (أمس) فى سيره حينما أقتله عربته ، وأشار إلى أنه أظهر بسالة رائعة فى القتال ، وقد كافأه الملك أكثر من مرة بالذهب ورقاه إلى قيادة سفينة كبيرة اسمها (ضوء منف) يبدو أنها ساهمت فى حصار مائى يعلى أواريس ، وتحدث عن سقوط المدينة ورحيل الهكسوس عنها .

ولم يكتف بطرد الهكسوس من مصر ، بل تعقبهم فى فلسطين ، لكى يأمن عودتهم ، فاعتصموا فى (شاروهين) Sharuhin جنوبى غزة ، فحاصروهم فيها واستمر الحصار ثلاث سنوات حتى استسلمت وسلمت ، وفر فلول الهكسوس إلى الشمال .

أبطال الاستقلال من الرجال والنساء

أود أن أذكر فى هذا التبت أسماء أبطال الاستقلال البارزين من الرجال والنساء الذين امتازوا ببطولتهم فى الثورة على الهكسوس وتحرير مصر من احتلالهم ، لأن أقل ما يجب علينا نحوهم أن نخلد ذكراهم المجيدة .

سقن رع

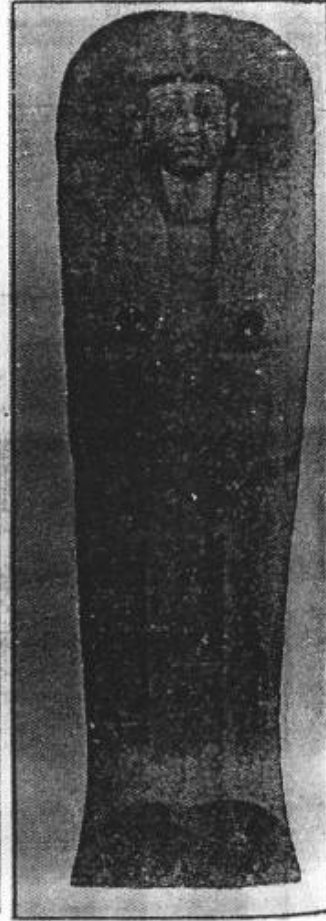
هو أول ملوك طيبة الذين أثاروا الشعب على الهكسوس ، وحملوا علم الجهاد ضدهم ، فهو بطل من أبطال الجهاد القومى ، وقد قُتل فى ساحة الرغى ، ولم يتجاوز الثلاثين من عمره . وموميأؤه محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وفيها آثار الجراح القاتلة التى أصابته فى صدره ورأسه .

وطيبة هى المدينة التى بدأت فيها حرب الاستقلال ، وانبعثت منها الشرارة الأولى للثورة على الهكسوس .

أبطال الثورة على الهكسوس



الملكة تتي شري أم سن رع
كانت بطلة ، أم بطل
وجدة بطل (أحمس)



الملك سنقن رع
بطل حرب الاستقلال
ضد الهكسوس

الملكة تتي شري Tetisheri

وهي أم سنقن رع ، وكانت من صميم الشعب ، أي لم تكن من سلالة ملكية ، وقد غرست ولا ريب في ابنها روح البطولة والتضحية ، وكانت بطلة ، أم بطل ، وجدة بطل (الملك أحمس) .

الملكة إياح حوتب

هي زوجة سنقن رع ، وأم الملك أحمس ، وهي التي بثت في ابنها روح الاستمرار في الجهاد بعد مقتل أبيه سنقن رع ، وهي من الملكات الخالدات ، جاهدت مع زوجها ، وجاهدت مع ولديه : كامس ، وأحمس .

وقد أقام الملك (أحمس) لوحة في معبد الكرنك خلد فيها أعماله وأعمال والدته (إياح حوتب) ، ومما قاله عنها في هذه اللوحة : « اسمها رفيع الشأن في كلد بلد أجنبي ، فهي التي تضع الخطة للجماهير ، زوجة ملك ، وأخت ملك ، وأم ملك ، العظيمة الحاذقة ، التي تهتم وتضطلع بكل شؤون مصر ، وهي التي جمعت جيشها ، وحمت أولئك الناس ، وأعدت الهارين ، وجمعت شتات الذين هاجروا ، وهدأت روح مصر العليا (أي مملكة طيبة) وأخضعت عَصائته ، الزوجة الملكية إياح حوتب العائشة » (١) .

كامس

ابن سنقن رع ، حمل لواء الثورة بعد أبيه ، واستمر يجاهد ويتم رسالته ، وقتل هو أيضًا في حرب التحرير .

أحمس

هو ابن سنقن رع وأخو كامس ، وقد خلفه في قيادة حرب التحرير ، واستمر يحارب الهكسوس حتى قضى عليهم واستولى على عاصمتهم (أواريس) ، وتعبهم في فلسطين ، وقضى على قلوبهم في (شاروهين) وفرروا إلى سورية .

نفرتاري

بنت إياح حوتب من سنقن رع ، كانت أختا لكامس وأحمس ، وتزوجتهما واحدًا بعد الآخر (٢) وظل لها النفوذ الكبير في عهد ابنها امنحوتب الأول .

(١) سليم حسن : مصر القديمة ج ٤ ص ٤٠٥ .
(٢) كان زواج الأخ بأخته مألوفًا في الأسرات الملكية في ذلك العصر .

أبطال الثورة على الهكسوس

تابع أبطال الثورة على الهكسوس



أحمس الأول
محرر مصر من الهكسوس

تمجيد البطولة وتخليدها

إن بطولة المصريين في حرب التحرير من الهكسوس ، جديرة بأن تكون مخلدة في ملاحم من الشعر ، تحوى وقائع هذه البطولة وأسبابها ، ومرآجلها وأطوارها ، والشعر أول ما يعنى بتخليد هذه البطولات .

ولعمري إن بطولات المصريين في هذه الحرب أولى بالتخليد من بطولة اليونانيين في حرب طروادة ، تلك البطولة التي خلدها شاعر اليونان الكبير هوميير Homere في ملحمة الإلياذة Iliade وملحمة الأوديسه Odyssee .



الملكة نفرتارى بنت إياح
حوتب وأخت كامس وأحمس



الملكة البطلة إياح حوتب زوجة
سقن رع أم أحمس

ما هي الإلياذة ؟ وما هي الأوديسة ؟

الملاحم تقدم قصائد الأدب اليوناني ، وأعظم شاعر نظمها هو هوميرو ، وطروادة مدينة ذات أسوار منيعة كانت تقع قرب بوغاز الدردنيل بالشمال الغربي لآسيا الصغرى . وأشهر الملاحم التي نظمها هوميرو هو الإلياذة والأوديسة ، وهما صورة واضحة المعالم للمجتمع اليوناني في عصر الأبطال .

عاش هوميرو في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد ، وأشهر أشعاره الإلياذة والأوديسة . وصف في ملحمة الإلياذة حوادث حرب اليونان ضد طروادة حوالي القرن الثاني عشر ق م في مرحلتها الأخيرة .

فبينما كان (باريس Paris بن بريام Briam) ملك طروادة ، يسير في الجبل إذ قابل أفروديتا وأثينا وهيرا وطلبن منه أن يحكم على جماهن . فحكم بأن (أفروديتا) أعظمهن جمالاً .

وقد ساء أثينا وهيرا هذا الحكم ، « وعولتا على الانتقام من مدينة طروادة بالانضمام إلى اليونان في حربهم ضدها . وأوحت أفروديتا إلى باريس بالذهاب إلى اليونان ليخطف هيلينا زوجة الملك مينيلوس شقيق اجاممنون ، وقد أغرتها الآلهة بالرحيل معه إلى طروادة .

فغضبت المدن اليونانية ، وصمم أهلها على غسل هذه الإهانة . فأجمعوا أمرهم على حرب طروادة وتدميرها ، وأعدوا جيشاً أبحر تحت قيادة أجاممنون سيد الإغريق عامة ، ليستردوا هيلينا رمز الجمال ويدمروا طروادة . واستمرت الحرب بين الفريقين عشرة أعوام ، وصف الشاعر هوميرو حوادث الأسابيع الأخيرة منها .

وقد انتهت الحرب بانتصار اليونانيين .

وكان (أخيل) أعظم بطل في المعسكر الإغريقي .

وتقع الإلياذة في خمسة عشر ألف وخمسمائة وثلاثين بيتاً .

ويُعد (أخيل) بطل الإلياذة الأول .

ونظم هوميرو في الإلياذة ما وقع بين اليونانيين وأهل طروادة من الحروب وما ظهر من اليونانيين من السياسة والشجاعة في هذه الحروب .

ويجمع النقاد على أن هذه الملحمة حوت أحسن ما يمكن في ذلك العصر أن يأتي به خيال ناغر ، في تمجيد الأبطال ووصف عواطف النفس وخطرات الأفتدة . أما الأوديسة فتألف من اثني عشر ألف بيت ، وهي تروى قصة بطلها الأول (أوديسيوس)^(١) ومغامراته ، وزوجته الجميلة (بيلوبى) .

لقد ذهب (أوديسيوس) مع غيره من أبطال اليونان ، واشترك في حرب طروادة ، وأثناء عودته ضلت سفينه طريقها وحاضرتها الأمواج ، فألقت به على شواطئ مخوفة بالمهالك ، ولكن (أوديسيوس) صارع الأهوال عدة أعوام (و بيلوبى) تنتظره وفيه له إلى أن عاد إليها زوجها وحببها . وأجمع النقاد القدماء والمحدثون على أن الإلياذة والأوديسة هما أجمل ما نظم في شعر الملاحم ، وأن بعض أجزاءها تعد من أجمل ما ظهر في عالم الشعر . والإلياذة والأوديسة فيهما تمجيد للبطولة ، وتصوير لها في أشعار خالدة ، تغرس في النفوس حب البطولة والفداء .

ومن طريف ما يذكر عن تأثير الإلياذة أنها أثرت تأثيراً بالغاً في نفس الإسكندر الأكبر ، فقد كان يتلوها المرة بعد المرة ، واتخذ بطلها أخيل مثلاً يحتذى ، ولعل إعجاب الإسكندر الأكبر بشعر هوميرو في الإلياذة كان نتيجة لإعجاب أستاذه الفيلسوف (أرسطو) بها ، فقد كتب شرحاً واقفاً لها وأشاد بها في كتاب (فن الشعر) .

هل لنا في هوميرو الثورة على المكسوس ؟

فهل لنا أن نأمل في تخليد بطولة المصريين في حرب التحرير ضد المكسوس ، وأن تمجد هذه البطولة في ملحمة من نظم شاعر عربي يشيد بالروح الوثابة التي اتبعثت في الشعب المصري القديم وجعلته يكافح المكسوس من أجل حرية الوادى واستقلاله ؟ هل نجد في شعرائنا هوميرو الثورة على المكسوس ؟ إننا نأمل ونرجو .

(١) أو عوليس كما تسميه المراجع العربية .

الفصل الخامس

الدولة الحديثة

من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الثلاثين

يعتبر المؤرخون بداية الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة ومؤسس هذه الأسرة هو أحسن الأول محرر مصر من الهكسوس وللأسرة الثامنة عشرة شأن عظيم في تاريخ مصر وقد امتدت حدودها في عهدها إلى أقصى ما وصلت إليه في ذلك العصر

الأسرة الثامنة عشرة

(١٥٧٠ - ١٣٠٤ قبل الميلاد)

أحسن الأول

هو مؤسس الأسرة الثامنة عشرة

ومع أنه يعتبر من الأسرة السابعة عشرة لأنه ابن (سقن رع) من ملوك هذه الأسرة ، وقد سبق الحديث عنه ، ولكن المؤرخ المصري (مانيتون) وضعه على رأس الأسرة الثامنة عشرة . لأنه وقد حرر مصر من الهكسوس جدير بأن يكون على رأس أسرة جديدة .

وحسنًا فعل مانيتون . لأن تحرير البلاد من الهكسوس حادث تاريخي هام بحق أن يكون بداية لأسرة جديدة ، بل لعصر جديد .

وفي الحق أن الأسرات الأولى للدولة الحديثة تمثل مصر الكبرى ، وقد بلغت البلاد في عهدها أرفع درجات الحضارة والتمتع .

حروب قومية دفاعية

ولا غرو فإن غزو الهكسوس قد استثار في نفوس المصريين الشعور القومي والتعلق بالحرية ، وحفزهم وملوكهم إلى الجهاد في سبيل الذود عن الاستقلال ، وتم لهم ما أرادوا .

ثم إنهم فطنوا إلى أن تأمين الاستقلال لمصر ، لا يكون بتحسين حدودها فحسب ، بل لابد لها من بسط نفوذها على البلاد المجاورة التي جاء منها الغزو الأجنبي .

ولقد كان (أحسن) أول من طبق هذه سياسة الحكيمة ، فإنه بعد أن حرر البلاد من الهكسوس ، تعقبهم في جنوب فلسطين وحاربهم وحاصرهم في شاروهين حتى استسلمت . ولكنه لم يفتض عليهم القضاء التام ، فإن مكث الهكسوس قد فرّ منها قبل أن تستسلم ، وظل يقومه يدبرون مكائد في فلسطين ، وفينيقية (لبنان) وسورية .

فكانت سياسة مصر في الدولة الحديثة أن تحارب بقايا الهكسوس في تلك البلاد .

ولم تكن في سياستها معتدية أو باغية . ولم تكن هذه الحرب هجومية هدفها الفتح والغزو والاستعمار ، بل كانت حرباً دفاعية اقتضاها الدفاع عن النفس ، وتأمين حرية مصر واستقلالها . قال (ستاثلي كوك) تأييداً لهذه الفكرة : « قد قاومت شاروهين الحصار ثلاث سنوات قبل أن تنسقط ، وهذا دليل على أن حملة أحسن لم تكن مجرد غارة كالتى شنها سنوسرت (انظر ص ٦٣) ، بل كانت تستهدف غرضاً خطيراً وتقصد محاربة عدو لم يزل قوياً ، أضف إلى هذا أننا نعود فنجد جيوشه تحارب ظافرة في شمال فلسطين وفي بلاد فينيقية ، وأكبر الظن أن الغرض من هذه الحروب فيما يرجح لم يكن هو التوسع الإمبراطوري بل كان يقصد منها تأمين مملكة مصر وتوطيدها بعد تحريرها ، فلم تكن حروب أحسن في سورية سوى تكملة لحرب التحرير »^(١) .

هذا ، ولم تكن مصر تحارب أهل هذه البلاد ، بل حاربت الهكسوس الذين استبعدوها واتخذوا منها قواعد لمهاجمة مصر كلما سنحت لهم الفرصة ، ولقد نفذ هذه السياسة الدفاعية القومية ملوك مصر وخاصة (تحوتمس الثالث) و (رمسيس الثاني) كما سيحيى بيان ذلك فيما يلي :

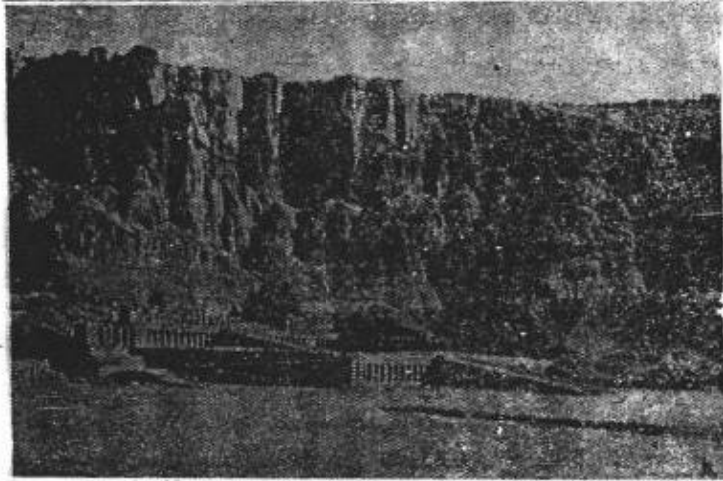
ووجه ملوك مصر عنايتهم إلى تقوية الجيش المصرى ، وإذكاء الروح الحربية في نفوس المصريين ليطمئنوا على سلامة الوطن وحرية .

وفي ذلك يقول برستد Breasted : كان حكم الهكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين ، أفهمتهم لأول مرة حقيقة الاستعمار وسياسة البطش ، فأنشئوا جيشاً عظيماً منتظماً ، استعملوا فيه المركبات الحربية التى تجرها الخيل ، فتحوطت مصر بذلك إلى دولة حربية ، وتعتبر الإمبراطورية المصرية في عهد الأسرة الثامنة عشرة من أكبر إمبراطوريات العالم ، لأنها امتدت شمالاً من سورية وأعلى القرات إلى شلال النيل الرابع جنوباً ، وكان تشييد هذه الإمبراطورية المعتبرة الأولى في العالم مصحوباً بشهرة باذخة ، وعز عظيم ، فى جهاتها الشاسعة بدرجة لم تبلغها مصر فى عصر آخر ، حتى صارت (طيبة) مركز التمدن العالمى ، وصاحبة الآثار الشامخة ، وخيمت الروح الحربية على انفسر المصريين مدة قرن ونصف بعد طرد الهكسوس ، فصار أبناء الفرانعة يعينون قواداً للجيش ، ثم زيد عدده وزود بال سلاح والعتاد ، ودرت

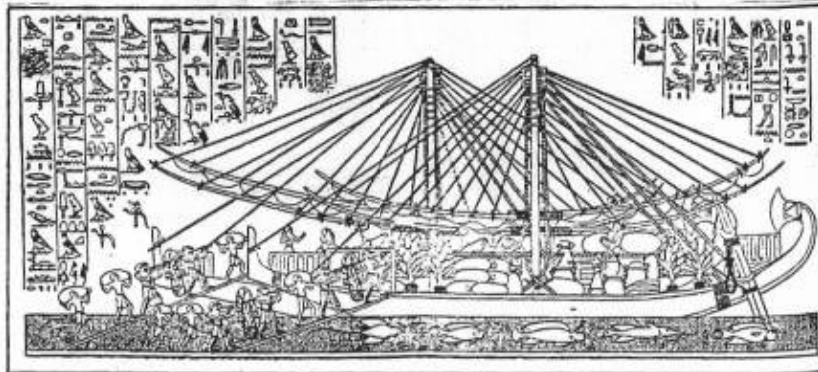
(١) تاريخ نعام - إخراج السير جون هارنيز - ج ١ ص ٦٨٩ .

الملكة حتشبسوت Hatshepsout

ولما مات تحتمس الثاني آل الملك إلى (حتشبسوت) ابنة تحتمس الأول بالاشتراك مع تحتمس الثالث (ابن أخيها) ، وتجدد النزاع على من ينفرد بالحكم . واستطاعت (حتشبسوت) بتأييد أنصارها في الدولة أن تنفرد به نحو سبعة عشر عاما ، نزلت فيها الوصاية على العرش إذ كان تحتمس الثالث لا يزال صبيًا ، وكذلك انتهت (نفروخ) .



معبد الدير البحري بطيبة
شيدته الملكة حتشبسوت



سفينتان من سفن الحملة البحرية التجارية
التي أنفذتها حتشبسوت إلى الصومال (بلاد بونت)

الحروب المصريين على الأساليب الحربية الحديثة (وقتئذ) ، ويعتبر هذا التقدم الحربي أقدم ما عرف من نوعه في التاريخ ، وقد قسم الجيش المصري إلى فرق وفيالق ، وقسمت قواته إلى قلب وجناحين ، واستكمل بذلك نظام المعارك الحربية ، وتمكن المصريون من القيام بحركات التفاف حول أعدائهم^(١) .

كان عهد (أحمس) دور اليقظة من سبات عميق ، وتقوية للمواهب القومية الدينية في الأمة المصرية ، ولا غرو فقد كان هو مثال الشجاعة والجد والحكمة والدهاء ، قوى الإرادة ، ماضى العزيمة ، فهابه الجميع واحترموه ، وحكم البلاد اثنين وعشرين سنة ، وكانت وفاته حوالي سنة ١٥٥٧ ق م . وهو واضع اللبنة الأولى في صرح الإمبراطورية المصرية في مصر القديمة .

خلفاء أحمس الأول

أمنحوتب الأول Amenhotep

هو ابن أحمس الأول ، وقد حافظ على عهد أبيه ، وكانت النوبة قد انتقضت على مصر ، فغزاها أمنحوتب ووصل إلى حد الدولة الوسطى بجهة الشلال الثاني . وحارب الليبيين حين حدثتهم أنفسهم بالعدوان على غرب الدلتا . فصدتهم وهزمهم ، وحكم البلاد نحو عشرين عاما .

تحتمس الأول

وخلفه تحتمس الأول ، وفي عهده وصلت مصر إلى الشلال الرابع على النيل جنوبا ، إذ كان على رأس حملة وطلدت سلطة مصر في بلاد النوبة . وحارب بقايا المكسوس في فلسطين وسورية ، ففتحهم ماقتشوا يلوذون بهذه النواحي بعد هزيمتهم في شاروهين .

وفي عهده خضعت لحكم مصر الأقاليم الآسيوية في تلك الأصقاع . ووصل إلى نهر الفرات شمالا ، وأقام على ضفته لوحة تذكارية لهذا الحادث التاريخي . وبلغت مدة حكمه ثلاثين سنة ، وهو من أعظم ملوك مصر .

تحتمس الثاني

هو ابن تحتمس الأول وقد تزوج من أخته لأبيه (حتشبسوت) . وكانت سيدة طموحا إلى الملك ، فانفردت به ، واستسلم لها زوجها . وبقي على العرش نحو عشرين عاما .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق - ص ١٠ و ١٥٣ .

رحلة بحرية إلى الصومال

وأُوفدت (حثبوسوت) حملة بحرية كبيرة إلى بلاد الصومال (وكانت تسمى بونت) لتبادل
بحر معها .

وكانت حملة سلمية ودية ، مؤلفة من خمس سفن شرعية .

وقد أقامت هذه السفن من طيبة على النيل ، واتجهت شمالاً حتى بلغت وادي الطميلات ،
بسات في القناة التي حفرت في عهد سنوسرت الثالث حتى بلغت البحيرات المرة ، فالتبحر
لأحر .

وحملت السفن إلى الصومال كثيراً من مختلف الجواهر والمعادن والحلى والأطعمة
والأشربة والسلاح ، وعادت بالكثير النفيس من حاصلات تلك البلاد ومنتجاتها ، كشجر
الر والبخور والصمغ والأبنوس والتبر والعاج والحيوان وكانت هذه الحملة من أهم أعمالها
العمراتية .

وأُرسلت البعثات إلى سيناء لاستثمار ما فيها من المناجم ، ونهضت بمصنوعات البلاد وزادت
من ثروتها ، وكان عهدها عهد سلام وازدهار ورخاء للشعب .
فلما توفيت انفرد تحوتمس الثالث بالملك ، وحا اسمها من الآثار التي خلفتها .

تحوتمس الثالث

(١٤٩٠ - ١٤٣٦ قبل الميلاد)

هو ابن تحوتمس الثاني . وابن أخى حثبوسوت

ووالدته تدعى (إيزيس) ، وهى زوجة ثانوية لأبيه (من الجوارى) ، ومن حقها أن
تفخر بأنها أنجبت لمصر البطل العظيم تحوتمس الثالث .

ولما توفى أبوه كان تحوتمس لا يزال صبياً لم يبلغ الحلم بعد ، فتولت حثبوسوت وقتاً ما
لرعاية عليه وعلى ابنتها نفر ورع ، ثم انفرد بالحكم بعد وفاة حثبوسوت .

وهو أعظم ملوك مصر قاطبة كما سيحىء في الفصل التالى .

وسكت (تحوتمس الثالث) على هذا الوضع ، ولم يرأى شقاق أو نزاع حرصاً على وحدة
الصف ، وبرهن منذ الساعة الأولى على بعد نظره وما تدرع به من الحكمة والأناة .

وكانت (حثبوسوت) سيدة عظيمة ، وملكة عظيمة . وقد صورت على بعض آثارها
مرتدية زى الرجال ، وكان لها من النشاط ما يفوق نشاط كثير من الرجال ، على أنها لم تكن
عجارية ، ولم تكن تميل إلى امتشاق الحسام .

فصرفت همتهما في الإصلاح والتعمير بعد التخريب الذى أصاب البلاد أثناء حكم الهكسوس .
وهى بانية معبد « الدير البحرى » المشهور فى طيبة ، القائم فى حوض الجبل (انظر ص ٨٩)
والذى يقصده الناس من كل فج حتى اليوم ليشاهدوا فيه جمال الفن وروعة التصميم والبناء .

وكان لمهندسها القدير (سنموت) Senmout فضل كبير فى هذا البناء الضخم وتصميم
كثير من الآثار التى خلدت اسم حثبوسوت ، وكان سنموت هذا أهم شخصية فى عهدها ،
وكان أثيراً عندها والمربى الأول لابنتها (نفرورع) . وصاحب الكلمة النافذة فى الدولة ، إلى
أن تغيرت عليه فى أواخر عهدها وأقصته عن النفوذ والسلطان .

وقد أقامت مسلتين كبيرتين بساحة الكرنك ، وتعتبران أعلى الآثار المصرية التى يرجع
تاريخها إلى تلك العصور ، لأن ارتفاع كل منهما بلغ حوالى سبعة وتسعين قدماً ونصفاً أما زنة
كل منهما فتقرب من ٣٥٠ طناً ، ولا تزال إحداهما شاخصة فى مكانها الأصيل إلى الآن تسترعى
أنظار الزائرين كل حين وبلغ عدد المسلات التى أقامتها ستاً .



تمثال الملكة حثبوسوت
فى شكل (أبو الهول)



تحوتمس الثالث (أو الأكبر) بلغت مصر القديمة أوجها في عهده
في القرن الخامس عشر قبل الميلاد



إيزيس والدة البطل العظيم
تحوتمس الثالث

الفصل السادس

أوج المجد

مصر في عهد تحوتمس الثالث - أو الأكبر

بلغت مصر القديمة أوج المجد في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، على عهد تحوتمس الثالث Thoutmes . ويسمى (الأكبر) .

عندما تولى هذا الملك عرش مصر ، كانت الأطماع تتجه إليها ، وكان الطامعون قد أخذوا يترصون بها حين رأوا قوة مصر الحربية مسالمة متراخية في عهد الملكة (حتشبسوت) ، فظنوا بجيش مصر الظنون .

وخيل لهم الوهم أن الملك الشاب تحوتمس الثالث لا يقوى على إحباط مؤامرتهم وصد تحركاتهم العدائية .

ولم تكن مواهب تحوتمس الثالث الحربية قد تجلت بعد وظهرت للعيان . لأنه لم يسبق له قبل تولى العرش أن مارس الحرب والكفاح .

فحدث تحالف بين أعداء مصر في سورية ولبنان ، يتزعمه أمير (قادش)^(١) ، وهو من بقايا الرعاة (الهكسوس) فأخذ هو وحلفاؤه يثيرون فريقاً من الأهلين ضد الحكم المصري الذي كان مبسوطاً على البلاد نحو خمسين عاماً منذ عهد تحوتمس الأول ، وانضم إلى هذا الحلف بعض سكان سورية وفلسطين ، كما انضمت إليه مملكة (ميثاني)^(٢) ، وتآلبوا جميعاً على مصر لينالوا منها ويقوضوا سلطانها في تلك الجهات .

وإذ توالت النذر بأن هذا الحلف إذا ترك وشأنه فإنه لا يلبث أن يكون مصدر خطر على مصر ، فقد بادر تحوتمس الثالث إلى مهاجمة هؤلاء الخلفاء في عقر دارهم ، واعتزم في أوائل حكمه أن ينازلهم حيث كانوا ، فأعد للزحف عليهم جيشاً مدرّباً منظمًا كان هو على رأسه ، واستعد للحرب والنضال .

وبدأ زحفه في أبريل سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد من مدينة ثارو Tharu^(٣) .

وكان جيشه مؤلفاً من نحو عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألف مقاتل ، وسار بقيادته ، فوصل إلى

(١) قادش هي الواقعة على نهر العاصي (الأورونت) جنوبي بحيرة حمص (انظر الخريطة الملتقة بهذا الفصل) .

(٢) من بلاد الرافدين (انظر موقعها على الخريطة الملحق بهذا الفصل) .

(٣) مكاتها الآن عند مدينة المنطرة الحالية .

غزة التي تبعد نحو ١٢٥ ميلاً عن (ثارو) بعد مسيرة تسعة أيام ، وهي مدة وجيزة بالنسبة لذلك العصر لانتقال جيشه بأكمله طول هذه المسافة ، ثم استمر زحفه إلى الشمال ، ثم إلى الشرق ، قاصداً سهل (مجدو) حيث كان الأعداء يحتشدون هناك^(١) .

معركة مجدو

(سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد)

تعد معركة (مجدو) من المعارك الفاصلة في التاريخ . تقدمت قوات أمير (قادش) وحلفائه جنوباً ، واحتلت حصن (مجدو) على المنحدر الشمالي لجبل (الكرمل) ، واتخذته أول موقع منيع لصد زحف الجيش المصري القادم من سهل مجدو .

وحين علم تحوتمس الثالث باحتلال الأعداء هذا الحصن ، اتجه إليه بجيشه . وكان أمامه ثلاث طرق لعبور تلك المنطقة الجبلية ، اثنان منها يدوران حول سفح جبل الكرمل ، والثالث طريق ضيق صعب المرتقى يصل مباشرة إلى أبواب مجدو . وعقد تحوتمس مجلساً حربياً ، شاور فيه مستشاريه العسكريين في أي الطرق يختار ، فأشاروا عليه باجتباب الطريق الضيق واختيار أحد الطريقين الآخرين .

ولكنه أصر على السير في الطريق الوعر ، لأنه أقرب الطرق وأكثرها استقامة .

وفي فجر يوم الواقعة (١٥ مايو سنة ١٤٧٩ ق . م .) أمر تحوتمس الجيش بالزحف والمهجوم على العدو ، واعتلى مركبته الحربية البراقة ، المصنوعة من خليط الذهب والفضة ، وسار على رأس جيشه في الطريق الوعر ، فبعث في نفوس جنوده الحماسة والحمية ، وشجعهم هو قائلاً : سأسير أمامكم لكي أظهر لكم الطريق فتفتقوا أثرى .

وقد تأججت في نفوس الجنود روح الحرب وبلغت مشاعرهم ذروتها . وإذ شاهد أمير قادش هذا الهجوم ألقي بجنوده بين جيش تحوتمس ومجدو ، فانقض عليهم تحوتمس وهو في مقدمة جيشه شاهراً حسامه ، وأخذ الجيش المصري يدرهم ويفتك بهم . وعلى أثر هذا الهجوم تفهقر العدو وارتد نحو مجدو ، واحتسى بها ، فحاصرها الجيش المصري ، وظل على حصارها حتى سلمت بعد أن فر منها أمير قادش ، وعظمت غنائم الجيش المصري في هذه الموقعة ، وكانت نصراً مبيهاً فرحت له نفوس المصريين جميعاً .

يقول برستد Breasted تعليقاً على هذا النصر : « لكي يتصور القارئ الصعوبات التي قاساها تحوتمس الثالث في حروبه الآسيوية يجدر به أن يطلع على الأحوال التي قاستها جنود نابليون

(١) انظر موقع مجدو على الخريطة ص ٩٦ .

نتائج معركة مجدو

قررت معركة (مجدو) مصير فلسطين ووطدت سلطة مصر فيها ، وفتحت أمام تحوتمس الثالث طريق لبنان وسورية ، ووصل إلى منحدرات هذين القطرين ، وكانت تحت حكم أمير قادش ، فسرعان ما سلمنا للمصريين ، وقد امتلأت نفوس الأعداء نزعاً من هيبة .

وأخذ تحوتمس ينظم ما أخضعه من البلاد ، ويوطد السلم والأمن فيها ، ويستبدل بحكامها المعادين آخرين موالين له .

وسمح للحكام الجدد أن يحكموا البلاد بحرية بشرط أن يدفعوا لمصر الجزية ، ووصلت سلطته إلى جبال لبنان الشمالية ، وتوغل حتى مدينة دمشق .

وعامل الأهليون بالرفق والعدل ، وحب إليهم العلوم والمعارف ، وغرس في قلوبهم حب مصر .

وعاد إلى مصر في أوائل أكتوبر من ذلك العام (١٤٧٩ ق م .) ووصل إلى طيبة ، فاستقبله الشعب استقبالاً مجيداً .

وجدد تحوتمس على تعاقب السنين حملاته على الأقطار الآسيوية حتى وصل إلى الفرات . وقد رأى بثاقب نظره أن مدينة قادش الواقعة على نهر العاصي (الأورونت) تقف عقبة أمامه وتحول دون وصوله إلى وادي الفرات .

فأعد أسطولاً يشترك مع الجيش البري في هذه الحملات ، واتخذ من الشواطئ الفلسطينية والفينيقية التي فتحها مواقع لتأمين خطوط جيشه في الزحف .

قال برستد في هذا الصدد : « ولا شك أن هذه الخطوات سديدة لدرجة يستحيل على أي ضابط حربي حديث أن يتكرر أحسن منها بحيث تناسب أحوال تلك العصور ، أو أن ينجزها بمثل ما أنجزها تحوتمس من الدقة والمثابرة ، والحق أن الحلفاء لواتبعوا في الحرب العالمية (الأولى) هذه الخطة في محاربة الترك لفازوا بالنصر هناك في أقل من سنة واحدة^(١) .

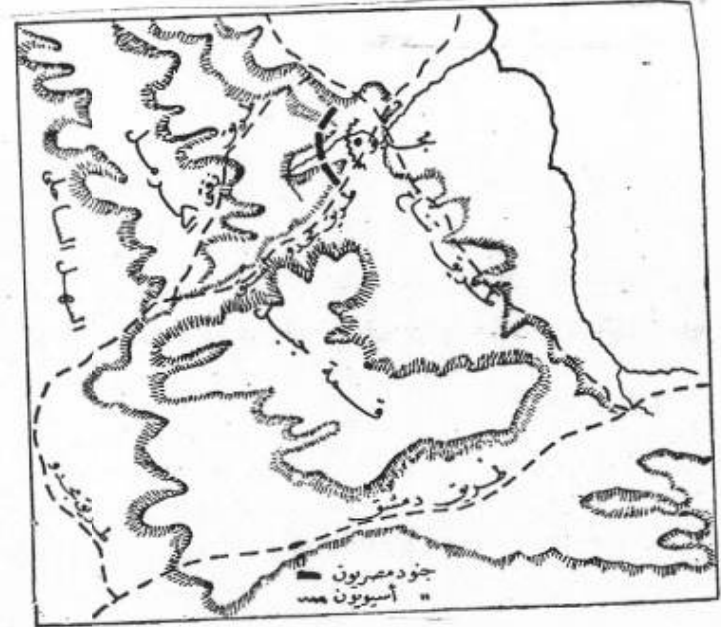
سقوط قادش

ووصل تحوتمس الثالث إلى قادش معقل أميرها الذي ناوأه في حملاته وضرب عليها الحصار وهاجمها حتى سلمت ، وكان سقوط قادش انهياراً لآخر صرح للهكسوس .

وأتم إخضاع شاطئ فينيقية (لبنان) .

(١) برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ١٩٦ .

في تلك المنطقة سنة ١٧٩٩ بعد الميلاد أثناء زحفها من مصر إلى مدينة عكا التي تبعد عن حدود قطر المصري بقدر المسافة التي تبعد بها مجدو (تقريباً) . ويقول أيضاً : (هذا هو أقدم جيش معروف لأن دخل ذلك السهل التاريخي الذي أصبح من ذلك الوقت معتركاً حربيًا حتى اللورد (ألتني) سنة ١٩١٨ ميلادية ، ويلاحظ أن (ألتني) في زحفه على الجيش التركي المتقهقر قد اتخذ نفس الطريق الذي سار فيه تحوتمس الثالث^(٢) .



خريطة معركة مجدو
سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد
(مقتبسة من خريطة برستد)

وعامل تحوتمس الأسرى من الأعداء معاملة حسنة كريمة .

وعلق على ذلك المؤرخ ويجول Weigall بقوله : « إن المصريين كانوا أعظم شعوب العالم القديم رحمة وإنسانية^(٢) .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق - ص ١٩٠ و ١٩٤ .

(٢) سليم حسن - مصر القديمة - ج ٥ ص ٤٠٥ و ويجول

نابليون الشرق

ذاعت شهرة نحمس الثالث كقائد عظيم ، وتجلت مقدرته الحربية في حروبه وحملاته الموفقة التي بلغت سبعة عشرة حملة كان النصر حليفه فيها جميعا .
وقد لقبه المؤرخون بنابليون الشرق .

وصارت طيبة عاصمة العالم المتمدن ، وعرفت لدى الإغريق بالمدينة ذات المائة باب ، وجاء ذكرها بهذا الاسم في أشعار هوميير ، فأطلق عليها نفس الاسم « المدينة ذات المائة باب » يتسع كل باب لمائتي رجل ، وتخرج منها جيوش فرعون بكامل عدتها وعتادها فوق عجلاتها الحربية .

بين مصر وسورية

عامل نحمس الأهلين في فلسطين ولبنان وسورية بالرفق والعدل ، لم يكن جباراً في الأرض ولا متغطرساً ، بل كان حاكماً قوياً يحب العدل ويدافع عنه ، يكره الانتقام وسفك الدماء ، لم ينتقم من الأمراء الذين ساروا في ركاب أمير (قادش) بل أبقى الموالين منهم في مراكزهم .
وفي سبيل دعم الروابط بين مصر وسورية ، أمر بإيفاد بعض أبناء حكام تلك البلاد إلى مصر ليتتقنوا وينهلوا من العلوم والمعارف ، وليغرس في قلوبهم حب مصر .

لم يكن يبغي من فتح هذه البلاد تأمين كيان مصر فحسب ، بل أراد أن يجمع بين فلسطين وسورية ولبنان ومصر في وحدة شاملة ، ففي فتوحه الآسيوية لم يرهق الأهلين ولا كان يحاربهم ، بل كانت حروبه ضد حلف يتزعمه أمير قادش من بقايا ملوك المكسوس (الرعاة) ، ولم يكن أمير قادش من أهل هذه البلاد ولا من المواطنين فيها ، بل كان من غزاتها وسليل غزاتها السابقين .
ومن المحقق أن الهيبة التي كانت لنحمس في النفوس والتي نتجت عن انتصاراته في ميادين القتال ، والقوة الحربية التي اعتمد عليها في بسط سيطرته على تلك الأصقاع ، كانت هي الدعامة الأولى للدولة الترامية الأطراف التي أنشأها في آسيا ، ولولا تلك القوة لما استطاع أن يوطد سلطانه فيها .

وفاة نحمس الثالث

توفي نحمس الثالث سنة ١٤٣٦ ق م ، بعد أن جلس على عرش مصر أربعة وخمسين عاما كانت أوج المجد لمصر القديمة .

يقول برستد في وصفه وتمجيده : « إن صفات نحمس الثالث وشخصيته برزت في التاريخ المصري القديم بدرجة منقطعة النظير ، في ملوك مصر قاطبة ، والحق يقال إن نشاطه فاق كل نشاط سواء أكان قبله أم بعده ، زد على ذلك أنه كان هاوياً فنانياً يتلهى وقت فراغه بصياغة الأوالي

ويهدع أشكائها ، وكان حسن التدريب في السياسة ، حاد الذاكرة ، يقوم بالحروب الكبيرة في سيا مستعملا في الوقت نفسه شدته في منع انتشار الرشوة والحيث في أثناء جمع الضرائب من الأهلين ، لذلك اعتبر عهد نحمس الثالث عهداً ممتازاً في مصر والشرق عامة ، ولم يظهر في التاريخ إلى ذلك العهد ملك جمع إيراد مملكته الشاسعة وأقام عليه إدارة حكومية مركزية ثابتة مستمرة دامت سنوات عدة كما فعل ، وهو يذكرنا بتاريخ الإسكندر المقدوني ، ونابليون لتشابه تاريخهم جميعاً ، وخلاصة القول أن نحمس كان أول رجل في التاريخ أسس إمبراطورية حقيقية ، فهو لذلك أقدم بطل معروف على الأرض ، ولا غرابة فقد خضعت لقوته آسيا الصغرى وأعلى القرات ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، ومستنقعات بابل وشواطئ ليبيا السحيقة وواحات الصحراء ، وهضاب الصومال ، وشلالات النيل العليا ، يضاف إلى ذلك أن أمراء تلك الجهات تسابقوا في تادية جزيتهم وهداياهم إليه ، ويعتبر هذا برهاناً ساطعاً وتذكيراً عظيماً للعالم على نجاح نظمه وترتيباته الحديثة ، وقد تجلت شخصية هذا الملك العظيم وشدة توقيعه للقصاص العادل في مشاهدات أمراء سورية ، فظهر جو الشرق السياسي من المفاسد ، ومن أجمل مآثر هذا الملك مستلته الأثرين العظيمتان - المنصوبتان على شاطئ المحيط الأطلسي (١) .

وقد اعتبرت هاتان المستلتان في بلادنا نحن الغربيين تذكيراً عظيماً لأول بناء للإمبراطوريات في تاريخ العالم (٢) .

وقال في وصف نتائج الروابط بين مصر والأقاليم الآسيوية : « يمتاز هذا العهد بكثرة رخائه وتقدم مدنيته ، فقد زالت العوائق التي أوجدتها المكسوس بين مصر وآسيا ، ومحا نحمس الثالث بحروبه أثرها من الوجود ، فتيسر التعامل بين إفريقية وآسيا ، وزالت الفوارق القديمة فلم يبق هناك ممالك صغيرة بل أصبحت البلاد كلها الممتدة من منابع القرات إلى أعلى النيل متحدة على تباين عناصرها ولغاتها ، وأخذت تجارة شرقى البحر الأبيض المتوسط تتحول تدريجياً من إقليم القرات وبابل إلى مصر ، وبالأخص إقليم الدلتا الذي كثرت خيراته وتضاعفت روابطه التجارية ، وكان هذا الإقليم منذ عدة قرون على اتصال بالبلاد الآسيوية بالقناة التي توصل البحر الأحمر بالنيل ، فانحصرت تجارة العالم في الدلتا ، وصارت أكبر أسواق العالم ، وكانت آشور في هذا الوقت فتية ، واتعدم من بابل نفوذها السياسي تماما في البلاد الغربية ، فأصبحت سلطة فرعون على إمبراطوريته الشاسعة عظيمة مهيبة (٣) .

(١) إحداهما الآن بلندن والثانية بنيويورك .

(٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٢١١ .

(٣) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٢١٢ .

تقديمه مع ميل حقيقي للحرية وحكمة مؤكدة بالنظر لما ركب في طباع السوريين والكنعانيين من مجاناة للمرونة ، فما بعد الفارق بين هذه المعاملة التي تشرف أبناء وادي النيل وبين الوسائل القاسية للملوك الآسيويين الذين عرفوا بالمدائح والنهب وتشريد السكان تشريداً جماعياً ، وإحلال الجند المستعمرين محلهم في البلاد المحتلة»^(١) .



الملكة (تي)
زوجة أمنحوتب الثالث

تزوج أمنحوتب الثالث من فتاة مصرية من صميم الشعب تدعى (تي) .
كان أبوها كاهناً ، وأميها إحدى سيدات القصر المشرفة على الملابس .

(١) موريه - Moret مصر الفرعونية ص ٣١٨ L'Egypte pharaonique .

خلفاء تحوتمس الثالث أمنحوتب الثاني^(١)

هو ابن تحوتمس الثالث ، وقد أنشأه أبوه النشأة العسكرية وغرس فيه الشجاعة والفروسية ودربه على القتال وكان ملكاً قوياً نافذ البصيرة ماضى العزيمة ، وقاد الجيش المصرى بنفسه كما كان يفعل ملوك الأسرة الثامنة عشرة .

وكان من ملوك الأسرة الثامنة عشرة .

تحوتمس الرابع

هو حفيد تحوتمس الثالث ، وقد ذهب على رأس جيشه إلى سورية والفرات لقمع الفتن والثورات ، وكان آخر ملوك مصر الحارثيين من الأسرة الثامنة عشرة .

وقد معاهدة صداقة مع (ميثانى) ثم مع (بابل) ، وتزوج من ابنة ملك ميثانى ليؤكد الصداقة بين البلدين ويفتح بين دول الشرق عهداً جديداً من الصلات الودية والمصاهرة والتحالف . ومن أعماله أنه أتم إقامة المسلة التي تركها جده تحوتمس الثالث بمدخل الكرنك الجنوبي ، وارتقاع هذه المسلة الشاهقة مائة وخمسة أقدام ، وهى أكبر مسلة باقية إلى الآن . وقد نقلت إلى إيطاليا حيث لا تزال منصوبة بروما .

أمنحوتب الثالث^(٢)

هو ابن تحوتمس الرابع من زوجته الميثانية . وفى عهده تنافست بابل وأشور وميثانى وقبرص فى اكتساب صداقة مصر ، ويعتبر هذا أول مظهر سياسى دولى فى تاريخ الممالك المعروفة وقتئذ . وقد سعى (موريه) النظام الذى أنشأه ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى البلاد الآسيوية نظام حمية مقرونا بالانجازات الحرة والرفق بالأهلين .

قال فى هذا الصدد : « إن الإدارة المحلية لهذه البلاد كانت إدارة أهلية فى معظم نواحيها ، وكانت ذات أهلية مع بعض فئات من الضباط والموظفين المصريين ، وهناك مفتشون لهم سلطة واسعة يعملون تحت رقابة الملك الشخصية ، وهذا النظام قد أسسناه فى العصر الحديث الحديث . وقد اقتبسناه فى القرن التاسع عشر ، وما يشرف المصريين أنهم طبقوه فى آسيا الحديثة .

(١) موريه - Moret مصر الفرعونية ص ٣١٨ L'Egypte pharaonique .
(٢) موريه - Moret مصر الفرعونية ص ٣١٨ L'Egypte pharaonique .

وكانت (تى) فى عهده لها النفوذ الكبير باعتبارها ملكة مصر ، وكانت على جانب كبير من الذكاء والجمال ، وكانت لها فى نفسه منزلة كبيرة .

ومن دلائل حبه لها أن أمر بحفر بحيرة نلهو بها فى قارب من خشب الأبتوس مصفح بالذهب بجوار قصرها ، وبلغ طول هذه البحيرة نحو ١٨٠٠ متر وعرضها ٣٥٠ مترا ، وكان حفره لهذه البحيرة تلبية لرغبة عابرة لها .

ثم تزوج عليها من أخت دشراتا ملك ميثانى ، وكان يكثر من الزوجات والجوارى . على أن (تى) ظلت زوجته المفضلة ، واستمرت على نفوذها وسيطرتها على الملك وعلى شؤون الدولة .

وقد أرسل (دشراتا) ملك ميثانى إلى أمنحوتب الثالث (صهره) خطابا يدل على الود بينهما ، ويدل على السداجة فى التفكير ، وعلى أن مصر كانت مطموعا فى ثروتها وخيراتها حتى ممن كانوا يرتبطون بها بصلات الود والمصاهرة .

قال : « إلى أخى وصنهرى الذى يحبى وأحبه أمنحوتب الثالث الملك المعظم وفرعون مصر .

« من دشراتا الملك العظيم أخيك وحبيك الذى يحبك ، أنا نى صحة جيدة ، لعلك أنت كذلك ، وكذا ومنلك وأختى وسائر زوجاتك وبناتك وعملاتك وخيلك ، وكبار رجالك وأرضك وكل ممتلكاتك ، لعلكم جميعا بخير ، كان أبائك قديما على أوفق وثام مع آبائى ، لكنك قويت تلك الرابطة عما كانت عليه كثيرا ، حقيقة كنت صديقا حميما لوالدى ، وتجاوزنا أطراف الصداقة معا ، لكنها الآن أشد مما كانت عشر مرات ، لعل المعبودات تزيد من ودنا هذا على توالى الأيام ، ولعل المعبودة (تشوب) (معبودة مملكة ميثانى) والمعبود آمون يحافظان على هذا الود كما هو الآن ، لما حضر إلى رسول أخى المدعو (مانى) قائلاً إنك تخطب كريمتى لتكون ملكة على مصر ، لم أتجاسر على تكدير قلب أخى ، بل استمررت على أداء ما هو واجب نحو صداقتنا ، وتنفيذا لرغبتك يا أخى أرسلتها مع (مانى) الذى سر جدا برويتها ، فإذا وصلت إلى أرضك يا أخى أتعشم أن المعبودة (عشتار) ، والمعبود آمون ، يجعلانها محبوبة ومقبولة لديك ، لقد أحضر لى رسولى (جيليا) خطبك يا أخى ، ولما قرأته فرحت فرحا جزيلاً حتى أنني قلت وقتئذ إذا فرضنا أن صداقتنا ذهبت ، فإن هذه الرسالة ستجعلنى أثار على الود لك الآن ، وكسبت لك يا أخى قائلاً : أما من جهتى فإننا سنكون أعز أصدقاء وأوفى أخلاء ، ثم سألتك يا أخى أن تقوى صداقتنا أكثر عشر مرات مما كانت عليه أيام آبائنا ، ولقد طلبت منك يا أخى مقدارا كبيرا من الذهب قائلاً : أرسل لى يا أخى أكثر مما كان يرسل لوالدى من قبل ، لقد كنت ترسل لوالدى كميات كبيرة من الذهب ، أما الذى أرسلته فعبارة عن قرص من الذهب يظهر أنه مخلوط بنحاس ، لذلك أرسل لى يا أخى كميات كبيرة من الذهب

لإحساب وليكن مقداره أكثر من الذى كنت ترسله لوالدى ، لأن الذهب فى أرضك يا أخى كثير كالتراب»^(١) .

فمملكة ميثانى فى شمال العراق ربطتها بمصر روابط التحالف والود والمصاهرة ، ولكن ملكة الحيشيين بالأناضول ناصبتها العداء ، فاستنجد ملكها بمصر فأمدته أمنحوتب الثالث بنجدة أعادته ، ففتح ملك حيتا (الحيشيين) على مصر وألب عليها عناصر الشعب فى سورية .

وفى آخر عهده ظهرت بوادر الهجوم من جانب (الحيشيين) فلم يذهب إليهم على رأس جنده يرد هجومهم كما فعل تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع ، بل اكتفى بإرسال جيش لغارتهم .

وكان أمنحوتب الثالث مترخيا فى شئون الدولة العليا ، فتدخل الحكم المصرى فى آسيا ، وظهرت المؤامرات فى سورية يديرها أمير قادش وملك حيتا (الحيشيين) .

ولم يكن ميالا إلى الحرب والهيحاء ، وركن إلى حياة الدعة والاستمتاع

وتوفى بعد أن حكم البلاد نحو ست وثلاثين سنة

وبعد وفاته خلفه ابنه أمنحوتب الرابع (إخناتون) من زوجته (تى) . وكان قد اشترك فى الملك مع أبيه أمنحوتب الثالث عدة سنين قبل وفاته .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق ص ٢٢١ .

الفضل السابع

إخناتون وثورته الدينية

(١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق م)

كانت مصر في حاجة بعد وفاة أمنحوتب الثالث إلى ملك قوى لشكيمة مثل تحتمس الثالث ، يصد عنها هجوم الظالمين فيها ، ويفقههم عند حدهم ، ويقمع لفتن التي يديرونها في بعض الأضلاع الآسيوية .

ولكنها وجدت من إخناتون (أمنحوتب الرابع) ملكا مسلما ، وفيلسوبا هادئا ، منصرفا إلى دعوة دينية .

حقا إن دعوته هي اقتراب من رسالة التوحيد .

فقد فكر طويلاً في تبسيط العقيدة الدينية ، ورأى من تعدد المعبودات ما يتنافى مع التبسيط الذي ينشده ، كما رأى في استفحال سلطان كهنة المعابد وتدخلمهم المستمر في شؤون الدولة خطراً على أداة الحكم ، فناوهم وناووه ، ودعا إلى توحيد الآلهة ، وجعل من القوة الكامنة في الشمس (أتون) رمزاً للإله الواحد .

كل هذا لا شبهة فيه ، فدعوته وقتئذ كانت سليمة ، وكان تفكيره تقدماً .

ولكن الواجب الأول على رئيس الدولة أن يعمل على حفظ كيانه ، لأن المحافظة على كيان الوطن أول واجب مفروض عليه ، بل على كل مواطن . وهو واجب مقدم على الأبحاث الفلسفية والدينية .

أما (إخناتون) فقد صرف كل همه إلى الثورة الدينية ، في وقت كان فيه الوطن في خطر ، ومن هنا كانت المآخذ على شخصيته وسياسته .

ففي عهده حرك الحثيون الفتن في سورية ، واستولوا على مدن الشمال ، وانتقضت مدن عديدة في فينيقية وفلسطين ، وسرى الانحلال إلى أطراف الدولة ، فلم يترك (إخناتون) ساكناً ، ومضى في تأملاته ودعوته الدينية .

وفي نحو السنة السادسة من حكمه أعلن دعوته ، وجاهر بها على ملأ الناس ، وخاصم من أجلها الكهنة ورجال الدين كافة .

كانت دعوته قريبة من التوحيد ، ولكنها لم تصل إلى الكمال الذي وصلت إليه الرسائل السماوية .



إخناتون
ملك مصر ، وصاحب الثورة الدينية
القوية من التوحيد

فمن نشيده الدينية الدالة على ذلك قوله (١) :

أنت تشرف بهاء في أفق السماء
بأشرف الخي ، يا بداية الحياة
عندما تشرق في الأفق الشرقي
تملأ البلاد بجمالك

أنت جميل ، عظيم ، متلائم ، وعال فوق كل بلد
وتحيط أشعتك بالأراضى كلها التى خلقتها
لأنك أنت « رع » وتصل إلى نهايتها
وتخضعها لابنك المحبوب

وبالرغم من أنك بعيد . فإن أشعتك على الأرض
وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك
وعندما تغرب في الأفق الغربى :

تسود الأرض كما لو كان حل بها الموت
ينام الناس داخل حجرة وقد لقوا رءوسهم
فلا ترى عين عنا أخرى

ويمكن أن تسرق أمتعتهم التى يضعونها تحت رءوسهم فلا يحسون بذلك
يخرج كل أسد من عرينه

وجميع الزواحف تخرج لتلدغ
ويلف الظلام كل شيء ويعم الأرض السكون
لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفاقه

وعندما يصبح الصباح وتطلع من الأفق
وعندما تضىء كآتون أثناء النهار
تطرد الظلمة وتمنح أشعتك

فالأرضان فى عيد كل يوم
ويستيقظ الناس ويقفون على الأقدام
لأنك أنت الذى أيقظتهم .

يغسلون أجسامهم ويلبسون ملابسهم

(١) كما عربها الدكتور أحمد فخرى فى كتابه (مصر الفرعونية) ص ٣٠٩ .

ويرفعون أذرعهم ابتهالاً عند ظهورك

والناس جميعاً يؤدون أعمامه
وتقع كل الحيوانات بمراعيه
وتزدهر الأشجار والنباتات
والطيور التى تطير من أعشاشها
تشر أجنحتها لتمدح قوتك

وتقف الحيوانات على أرجلها وكل ما يطير أو يحط
إيهم يعيشون لأنك أشرفت من أجلهم
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر
وتسبح الأسماك فى النهر أمامك

...

لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط

أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء

إنك أنت الذى يجعل من البقرة السائلة إنسانا

إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه

وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه

لأنك تعنى به وهو فى الرحم

أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم

عندما ينزل الطفل من بطن أمه ليتنفس فى اليوم الذى يولد فيه

تفتح فمه ، وتمده بكل ما يحتاج إليه

وعندما يصرخ الفرخ وهو داخل البيضة

فأنت الذى يمدده بالنفس فى داخلها ليعيش

وعندما تتم خلفه داخل البيضة تجعله يكسرها

ويخرج من البيضة وهو يصوص عندما يحين موعده

ويمشى على رجليه عندما يخرج منها

...

ما أعظم أعمالك التى عمستها !

إنها خافية على الناس

أنت الإله الأواحد . لا شريك لك فى الملك

لما النيل الحقيقي فإنه ينبع من العالم الآخر . لأجل مصر

تلقى أشمك كل مرج
وعندما تشرق ، تجا وتسمى لأجلك
وجعلت فصول السنة لتلقى كل ما خلقت
فالتشاء يرد أجسامهم

والحرارة تجعلهم يحسون بك
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق منها

وحى زرى كل ما صنعت
وذاك عندما كنت وحيداً

تشرق في صورتك كأتون الحى
لايتا . مستيقا ، فى جيتك ورواسك

جعلت ملايين الصور من نفسك وحدها
وسواء أكلت مئتا أم بلاذا أم حقولاً طريفاً أو نورا

فإن كل عين تراه فوقها مشرقاً
لأنك آتون (شمس) النهار على الأرض

أنت فى قلبى

وليس هناك من يبروك
غير أبك (إيمانون)

لأنك أنت الذى خلقتك عالما بمفاسك ويدر كما لتوتك
أنت الذى صنعت الدنيا بيدك

وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم
فهم يحون عندما تشرق

وهيونون عندما تغرب
إنك أنت الحياة بعينها

وهيش الإنسان فقط إذا أردت
تعلق العيون بالحصل حتى تغيب

ويترك الناس أفعالهم تغرب فى الغرب
ولكن عندما تشرق ثانية
يرددهر كل شيء لأجل الملك

لقد خلقت الدنيا كما شئت

عندما كنت وحيداً
الناس والاشية والرحوش الضارية

وكل ما على الأرض يسقى على قلبه
وكل ما يرتفع فى السماء ويظهر يحتاجه

فى بلاد سورية والنبوة وأرض مصر

تضع كل شيء فى مكانه
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه

ويحصل كل شخص على طعامه ، وسنوات حياته مقدرة له
مختلف الناس فى اديانهم
كما يختلفون أيضا فى طياتهم

يمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية

أنت الذى خلقت نبلا فى ذلك العالم الآخر
وأنت الذى يأتى به عندما يشاء ، لتبقى على الناس

وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك
وأنت سيدهم جميعاً ، سيدهم الذى يشمل نفسه من أجلكم

سيد كل أرض . الذى يشرق لأجلكم
أنت آتون شمس النهار عظيم البهاء

أنت الذى يعطي الحياة أيضا لكل البلاد الأجنبية البعيدة
لأنك خلقت نبلا فى السماء

ليترك لأجلكم ويحدث أمواتاً فوق الجبال
مثل أمواج البحر

لترزى حقوهم فى قراهم
ما أجمل أصمالك يا رب أديبة

فأقبل الذى فى السماء خلقته للأجانب
وكل حيوانات الصحراء التى تسمى على الأقدام

منفردون خير أم الله الواحد القهار»^(١) . ومعلوم أن يوسف كان سجيناً عند فرعون مصر ، ونجيب على هذا بأن عقيدة الشرك لم تدخل إلا مع العرب في الجاهلية الذين دخلوا مصر في العهد القديم ، أي قبل عصر الأسرات ، وأن الوثنية أتت من بلاد العرب في الجاهلية بدليل أن محمداً ﷺ وجد بالكعبة ٣٦٥ صنماً فهشمها ، وأن من الأصنام العربية اللات والعزى ومناة»^(٢) .
ثابر إخناتون على دعوته ، ونقل العاصمة من طيبة إلى بلدة جديدة (أخت أتون) أي سماء تون ، ومكانها الآن في تل العمارنة»^(٣) .



الملكة نفرتيتي
زوجة إخناتون

(١) سورة يوسف الآية (٣٩) .

(٢) صحيفة (اللواء) عدد ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٠٧ .

(٣) بمحافظة جرجا الآن .

لأنك أنت الذى خلقت الأرض
وأنت الذى خلقتهم (الناس) لأجل ابنك
الذى ولد من صلبك
ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ، إخناتون
وزوجة الملك العظيمه .. نفرتيتي
عاشت متمتعة بالشباب دائماً وإلى الأبد »
فالقارئ لهذا الدعاء يرى فى واضعه سعة الأفق وعمق التفكير ، وإحاطته بالكثير من أسرار
الكون بالنسبة للعصر الذى ظهر فيه إخناتون أى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .
ولعلك تلاحظ فى حديثه عن رافة الله بشعوبه . أنه ذكر سورية والنوبة قبل مصر فى تعداد
الشعوب ، وهذا يدل على أن تأملاته الفلسفية قد طغت على النظرة القومية الجديرة بملك مصر ،
بل بكل مواطن من أهلها .

التوحيد عند قدماء المصريين

ويبدو من المحاضرة التى ألقاها علينا العلامة المؤرخ أحمد كمال باشا سنة ١٩٠٧ بنادى المدارس
العليا ، أن عقيدة التوحيد كانت معروفة لدى المصريين القدماء قبل إخناتون ، وقبل عصر الأسرات
الملكية ، فقد قال فى هذه المحاضرة تحت عنوان (التوحيد عند قدماء المصريين) :
« قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ،
هذه هى صيغة التوحيد عند المسلمين ، وهى موافقة تقريباً للصيغة التى كان يدين بها المصريون
قبل عصر الأسرات الملكية ، ويدلنا على ذلك رسوم هيروغليفية وجدت فى أوراق البردى
القديمة وترجمتها :
(الله وحده ، لا ثنى له ، يودع الأرواح فى الأشباح ، أمت الخالق ، تخلق ولا تخلق ،
خالق السموات والأرض) .

وإن الإفرنج كانوا يعتمدون إلى ما قبل عشر سنين^(١) أن قدماء المصريين وثنيون ، ولكن زال
هذا الاعتقاد - باكتشاف هذه الصيغة التى يعزها عدم وجود أصنام فى مقابر ذلك العهد القديم ،
ثم قال : من أين أتى التوحيد لقدماء المصريين على هذه الصورة ؟ أتأمم التوحيد من نوح عليه
السلام ، فقد كان موحداً بدليل قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾^(٢)
والخطاب للمسلمين الذين قدما عقيدتهم فى التوحيد ، وهنا يتجه اعتراض مؤداه إن الشرك
كان شائعاً عند قدماء المصريين بدليل قوله تعالى : حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ أرباب

(١) سابقة على سنة ١٩٠٧ .

(٢) سورة الشورى الآية (١٣) .



توت عنخ آمون ، القناع الذهبي لموميائه .

آى

انقطع نسل ملوك الأسرة الثامنة عشرة بوفاة توت عنخ آمون من غير عقب من الذكور . واعتلى العرش بعده الكاهن (آى) فترة وجيزة ، إذ كان موظفًا كبيرًا فى القصر الملكى ، وكان شيخًا كبيرًا طاعنًا فى السن ، فأهله هذه الظروف مجتمعة إلى اعتلاء العرش .

حور محب

ومرت فترة ضعف واضطراب بدأت من أواخر عهد إخناتون . وكادت البلاد تقع فى هاوية الانقسام الداخلى والانحلال ، لولا أن قبض الله لها زعيمًا من عامة الشعب أهلته مواهبه وشخصيته لتسلم زمام الأمور وإتخاذ الوطن ، وهو (حور محب) الذى كان من ضباط الجيش فى عهد إخناتون وقائد الجيش فى عهد توت عنخ آمون . ثم شغل المركز الذى شغله من قبل أمنمحات الأول .. ، فلقد برز أيضًا من صفوف الشعب وأنقذ مصر من الفوضى والانحلال ، وكلاهما كان عصاميًا . وكلاهما أسس ملكًا عظيمًا .

وتسمى باسم آتون فغير اسمه وسمى نفسه (إخناتون) أى سرور آتون بعد أن كان اسمه أمنحوتب وناصره قلة من قومه ، ولكن كهنة المعابد ، كهنة آمون حاربوه حربًا شعواء ، وانضمت إليهم غالبية الشعب ، فكان عهده عهد ثوران فى الخواطر وتبلبل فى الأفكار .

على أنه عنى بتقدم الفنون الرفيعة ، فكان عهده مهبداً للشأو الرفيع الذى بلغته فى عهد صهره توت عنخ آمون .

وجاء تراجع الدولة وتفككها فى عهده ، وتغلغل الحثثيين فى الولايات السورية ، وسكون إخناتون عنهم ، وامتداد العصيان إلى فلسطين ، فكانت هذه الأحداث مضغضة لدعوته الدينية . ولا غرابة فى ذلك ، فإن المصير السياسى للدول له الشأن الأول فى النجاح أو الإخفاق الذى يصبب الدعوات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية فيها ، فلا عجب أن أخفقت دعوة إخناتون ، لأن كيان الدولة السياسى قد تصدع فى عهده ومات بعد أن حكم نحو تسعة عشر عامًا .

خلفاء إخناتون

تزوج إخناتون بفتاة مصرية اشتهرت فى التاريخ ، وهى (نفرتيتى)^(١) فصارت ملكة مصر . ولم يرزق منها بأولاد ذكور ، وأنجبت له بنات .

سمنخ كارع

ولما توفى إخناتون خلفه على العرش صهره وأخوه (سمنخ كارع) ، ولم يدم ملكه طويلا .

توت عنخ آمون

وبعد وفاته خلفه (توت عنخ آمون) ، وهو صهر آخر لإخناتون ، وقد حكم نحو عشر سنوات . وتقدمت فى عهده الفنون ، والهندسة والعمارة ومظاهر الثراء والحضارة الرفيعة ، ومات فى سن مبكر إذ لم يتجاوز العشرين من العمر .

وهو الذى اكتشف مقبرته وكنوزه سنة ١٩٢٢ ، ذلك الاكتشاف الذى دوى صداه فى العالم ، وجعل اسم توت عنخ آمون فى الخالدين ، وصار على تعاقب السنين حديث الناس فى شتى أقطار المعمورة ، لما بدا على ذخائره من الروعة والعظمة ، وتجلى فيها مبلغ ما وصلت إليه مصر القديمة من الحضارة والتقدم فى الفنون الرفيعة ، وفى أساليب المعيشة وقوة العقيدة .

(١) هى أخت إخناتون وبنت أمنحوتب (أمينوفيس) الثالث ، وكان زواج الأخ بأخته فى الأسرات الملكية مألوفاً فى ذلك العصر .

وعقد مع ملك (خيتا) معاهدة ضمنت له استقرار الأمور مؤقتاً على الحدود ، وتفرغ لإصلاح الداخل ، حتى تستعيد البلاد قوتها وهبتها .

فنظم شؤون الجيش ، وسنّ القوانين الصالحة لمحاربة الرشوة والفساد في دواوين الحكومة ، وأصلح الأحكام ، ومنع الاختلاس والتهريب عند دفع الضرائب ، وطاف في أنحاء البلاد باحثاً عن الأشخاص الأكفاء الذين يمكن أن يأتمنهم على شؤون الحكم والعدل والقضاء بين المواطنين ، وعاد الأمن وعادت الطمأنينة إلى البلاد ، ومات بعد أن حكم ثلاثين عاماً .

كتب عنه الدكتور أحمد بدوى بعنوان (حور محب أبو الشعب وصديق الفلاح) ما يلي ضمن ما قال :

« كان يؤذيه ما رأى من حال الشعب ، فالفلاح المسكين قد أهل حاله واشتد بؤسه بعد أن تجرع مرارة العيش قبل أيام (حور محب) ، فشرب منها بالكثير وبالصغير .. ، فارتاع من حال الشعب ، وعزم على إصلاح شأنه وتأمين رزقه ، وتوفير سعادته ، فعمد إلى إصدار قانون ينظم حياة الأمة أملاه بنفسه على كتابه .

« ثم فرض على من يخالف القانون أشد أنواع العقاب والمها ، يستوى في ذلك لديه كبراء الأمة ، ومن كان صغيراً ، فهو يحصى الفلاح من قسوة رجال الإدارة حين جمع الضريبة ، وحماه من أداء الضريبة مرة أخرى إن هي فقدت في طريقها إلى دواوين الدولة ، ونظم تحصيل الضرائب المفروضة على محاصيل الخضر المنزرعة في أرض التاج ، وتحصيل الضرائب من أرزاق الأرض وغلاتها جميعاً ، كما حدد القانون شروط تعيين القضاة في محاكم الدولة فاخترهم من أحسن الناس سيرة وأكرمهم خلقاً ، وأجرأهم قلباً ، وأطهرهم لساناً ، وأعفهم يداً ، وحرّم على القضاة أن يصادقوا أحداً من الناس ، أو يتهادوا مع الناس ، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مالية .. وهكذا كان حور محب رجل حزم وعزم ، لا يلين في الحق ، ولا تأخذه في تنفيذ لومة لائم ، ردّ على القوانين المصرية حرمتها وجلالها ، فجنب البلاد شر الظلم ، وطهرها من آثار العبث ، وصفها من شوائب الباطل ، وليس أدل على حزم الرجل وصدق وفاته لشعبه من تصريحه حين إصدار القانون إذ يقول : « إني قد وضعته لضمان رفاهية شعبي » ، ثم يخاطب رجال حكومتنا أمراً فيقول : نفذوا أوامري في تطبيق مواد هذا القانون ، فإني قد رأيت في هذه البلاد ظلماً شديداً ، ومن ذلك يتضح لنا أن حور محب كان مصلحاً ومشرعاً وقيماً على تنفيذ ما أصدر من قوانين حريصاً على تطبيقها بالعدل .

وكان فوق ذلك كله إنساناً قلّ أن نعرف له في تاريخ الملوك والمالكيين من آل فرعون نظيراً^(١) .

(١) أحمد بدوى في موكب الشمس ج ٢ ص ٦٨١ .



حور محب برز من صفوف الشعب

(حور محب) من إقليم المنيا ، ولم يكن طامعاً ولا راعياً في أن يؤسس أسرة ملكية ، ولا أن يكون هو ملكاً ، ولذلك يُعد من الأسرة الثامنة عشرة ، وإنما مهد الأسرة التاسعة عشرة التي كان لها في تاريخ مصر القديمة شأن كبير .

تولى حور محب الملك لأن الظروف دفعته إلى ذلك دفعاً ، لإنقاذ البلاد من الهاوية التي تردت فيها ، فقد دخل طيبة زعيماً لمصر وقائداً لجيشها ، وتوج فيها ملكاً عليها .

فعاد إلى مصر الاستقرار الداخلي .

ولم يكن مؤيداً لدعوة إخناتون الدينية ، ووقف في صف كهنة آمون ، فأيدوه وناصروه .

ومع أنه نشأ نشأة عسكرية ، وكان قائداً للجيش فإنه قدم توحيد الجبهة الداخلية على خوض غمار الحرب .

على أنه حارب الحيثيين .

الفصل الثامن

رمسيس الثاني وحروبه الدفاعية

الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٤ - ١١٩٥ ق . م)

رمسيس الأول

كان رمسيس الأول زميلاً لحورعحب ، ووزيره الأول ، وهو أول ملوك الأسرة التاسعة عشرة ومنشأه في مدينة صان الحجر (تانيس) بشمال الدلتا .

وأهم عمل لرمسيس الأول أن بدأ في إنشاء بهو الأعمدة العظيم بالكرنك الباقي إلى الآن شامخاً في مكانه ، والذي يعد نسيج وحده بين آثار الفراعنة .

ولكنه لم يتمه ، وترك إتمامه لابنه سيتي الأول وحفيده رمسيس الثاني .

ولم يعترف رمسيس الأول امتشاق الحسام وتجريد جيش محاربة الحيثيين أعداء مصر الذين كانوا يتحرشون بها ويغتصبون أملاكها ، ولم يجرم ساكناً لضغفه واعتلال صحته ، وتقدمه في السن ، وقصر مدة حكمه .

وترك هذه المهمة لخلفائه من بعده ، ومات قبل أن يتم عامين ونصفاً في الحكم .

وترجع شهرته إلى شخصيته وإلى أنه أنجب سلسلة من الفراعنة العظام الذين كان لهم الشأن الكبير في تاريخ مصر القديمة ، وهم :

سيتي الأول

هو ابن رمسيس الأول ، وقد بدأ يستعيد بعض ما فقدته مصر في فلسطين وسورية ، وكانت مملكة خيتا (الحيثيين) هي العدو اللدود لمصر في تلك الجهات .

وقد ظلت مصر تبسط سيادتها عليها منذ منتصف القرن الخامس عشر ق . م . في عهد تحوتمس الثالث حتى القرن الثاني عشر ، أي أن سلطان مصر ظل مبسوطاً على سورية وفلسطين زهاء أربعة قرون .

جهز سيتي الأول جيشاً محاربة الحيثيين ، واستعاد أكثر من ثلث أملاك مصر الآسيوية ودانت له فلسطين وفينيقية وجنوب سورية ، ولم يكن يحارب الأهلين فيها ، بل كان يحارب جنود خيتا (الحيثيين) وأعدائهم .

وعاد سيتي إلى مصر بعد انتصاره في الأقاليم الآسيوية فاستقبله البلاد استقبال الظاهر ، وذهب

رجال الحكومة لمقابلته في مدينة ثارو « القنطرة » واجتمعوا على رأس الجسر المشيد على القناة لغلبة الموصلة النيل بالبحيرات المرة ، وهناك شاهدوا الجنود المصريين العائدين من القتال يعلو وجوههم الغبار ، وتبدو عليهم علامات التعب ، يتقدمهم سيتي راكباً مركبته الخربية ، فهتف الجميع بحياته ، ولما وصل إلى طيبة أقيمت له احتفالات عظيمة أخرى .

وانتهى الصراع بينه وبين الحيثيين بعقد معاهدة صداقة بينهما ظلت مرعية الجانب حتى وفاة سيتي .

وكان حد الدولة المصرية الذي يفصلها عن مملكة خيتا عند نهر الكلب شمال بيروت .

وصد هجومًا لليبيين على حدود مصر الغربية وانتصر عليهم .

وسار سيرة عدل وإصلاح ، ونشطت في عهده الفنون والعمارة ، واستمر في العمل الذي بدأ به رمسيس الأول في تشييد بهو الأعمدة العظيم في الكرنك .

وقضى في الحكم نحو تسعة عشر عامًا .

رمسيس الثاني

أو الأكبر

حكم ٦٧ عامًا (من سنة ١٢٩٠ إلى ١٢٢٣ ق . م)

يُعد رمسيس الثاني من أعظم ملوك مصر . وبنى تحوتمس الثالث في المكانة والشهرة . قضى في الحكم سبعة وستين عامًا ، أي قرابة ثلاثة أرباع قرن ، فهو من أطول الملوك عهدًا بالحكم ، وقد ساعده ذلك على ذبوع شهرته بين ملوك مصر والعالم .

وهو ابن سيتي الأول ، تولى الحكم وهو في نحو العشرين من عمره .

وكانت مملكة خيتا (الحيثيين) في عنفوان قوتها ، لم تحترم المعاهدة التي أبرمت بينها وبين سيتي الأول ، بل اتخذتها ذريعة لتحصين ما وضعت يدها عليه من الأقاليم السورية .

وزحف (موتللي) ملكها على وادي نهر العاصي ، واستولى على (قادش) مركز النفوذ في سورية منذ عهد تحوتمس الثالث .

وصارت هذه المملكة خطرًا على مصر ، وخاصة بعد أن تم لها التغلب على مملكة ميثاني في أعالي الفرات .

تولى رمسيس الثاني الحكم ، ورأى الحيثيين واضعين أيديهم على معظم الأقاليم السورية يتحدثون مصر ويناصبونها العداة فجرد جيشًا لمحاربتهم .

واتبع رمسيس الثاني طريقة تحوتمس الثالث .

فبدأ أولاً بإخضاع الشاطئ البحرى ليتخذة قاعدة حربية لحركته ، لأن المواصلات البحرية كانت أسهل وأسرع من البرية .

ثم زحف بجيشه من مدينة ثارو - (الفنطرة شرق) ، وتولى بنفسه قيادة فيلق (آمون) فى مقدمة الجيش ، تتلوه فيالق : رع . وبتاح . وسوتخ . على التعاقب .
وكان يبتدى حذو تحوتمس الثالث ، فسار فى الطريق القديم الذى سلكه تحوتمس ، ووصل إلى بلاد كنعان ، واتجه شمالاً متبعاً الشاطئ حتى شمالى بيروت ، ومن هناك توغل فى الداخل حتى بلغ وادى نهر العاصى .

معركة قادش

التقى رمسيس الثانى بجيش الحيثيين فى العام الخامس من حكمه بالقرب من (قادش) على نهر العاصى ، وتقدر قوات الجيش المصرى بنحو عشرين ألف مقاتل ، عدا الجنود المرتزقة ، وجيش (موتلى) ملك الحيثيين يمثل هذا العدد ، وكلاهما عدد لا يستهان به فى ذلك العصر .
وكانت المعركة فى المرحلة الأولى منها نصراً للحيثيين ، ذلك أن رمسيس لم يكن المكان الذى حشد فيه موتلى جنوده ، ولم يخبره أحد من ضباطه بهذا المكان ، وصدق ما قاله بدويان جاسوسان ادّعى أنهما هربا من جيش الحيثيين وزعما أن (موتلى) قد انسحب بجيشه شمالاً إلى حلب .
والواقع أن هذه القصة كانت خديعة لاستدراج رمسيس إلى التقدم شمالاً .

فاعتزم رمسيس أن يسرع خلف عدوه ، وعبر على عجل ، ولم يتنظر حتى تتجمع بقية جيشه ، وسار لفتح قادش مطمئناً إلى خلوها من الحيثيين ، وتقدم مصحوباً بحرسه الخاص وحده تاركاً خلفه فيلق آمون يتبعه ، وكانت الفيالق المصرية الأخرى لا تزال متفرقة على مسافة ثمانية أو عشرة أميال من الطريق .

وعلم رمسيس أخيراً أن (موتلى) حشد قواته خلف قادش ، فى الوقت الذى كانت قوات رمسيس لم تعبر بعد نهر العاصى .

وعبر (موتلى) النهر جنوبى قادش ، قائداً جيشه اللجب ، فشطر فيلق رع شطرين .
وكانت قوات (موتلى) راكبة مركباتها الخربية التى تزيد على الألفين وخمسمائة مركبة .
بينما كان فيلق رع مكوناً من المشاة فقط .

وقد ظفر (موتلى) بالقسم الجنوبى من هذا الفيالق ، أما جنود القسم الآخر فارتدوا إلى



رمسيس الثانى - أو الأكبر
فى عفران شباه
عن تمثاله الموجود بمتحف تورين بإيطاليا ، ويعبر
أجمل تمثال يزين هذا المتحف

لم يكن رمسيس يحارب أهل هذه البلاد ، بل كان يحارب ملك خيتا الذى استعبد أهلها ، كانت حروبه ضد الحيثيين لا ضد السوريين مثلما كان يفعل تحوتمس الثالث فى حروبه الآسيوية ، فقد كانت مشبوبة على بقايا المكسوس لا على المواطنين .

خطر الذي أحدث بجيشه ، وبعد المسافة بينه وبين بقية هذا الجيش . فقد هجم بشجاعة نادرة على الحثيين المتدفقين عليه وركز هجومه على القسم الشرقي من قوات الأعداء ، فأوقع في قلوبهم زعج ، وأقام في النهر تحت أعين موتلى الذي وقف على الشاطئ المقابل مصحوباً بشمانية آلاف من مشاته .

وساق القدر إلى رمسيس حادثاً رجح كفته في ميدان المعركة ذلك أن الحثيين الذين أحاطوا بالمصريين من الجنوب والغرب لم يتابعوا هجومهم ، لاشتغالهم بالتهب والسلب ، فقد أخذوا يسلبون ما وصلت إليه أيديهم من مهمات المصريين ومتاعهم ، بدلاً من الاستمرار في تعقبهم ، واتفق في وقت اشتغالهم بالتهب أن وصلت إمدادات حربية مصرية آتية من الشاطئ ، وهي غير الفياق التي يتكون منها جيش رمسيس ، فانقضت هذه الإمدادات على الحثيين على غرة ، وأبادتهم عن آخرهم .

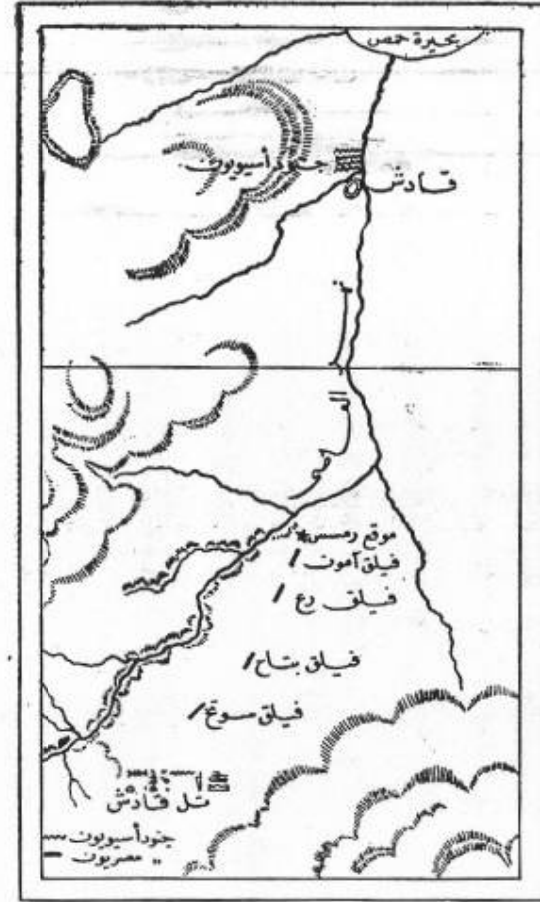
فكان ثبات رمسيس الثاني أمام المفاجأة الأولى ، وشجاعته في صد هجوم الحثيين ووصول هذه الإمدادات واشتراكها في القتال ، كل هذه الأسباب قد جعلت المعركة في مرحلتها التالية نصراً مؤزرًا للجيش المصري .

قال برستد في سياق وصفه للمعركة : « والمعروف أن المصريين دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال حتى اضطروا (موتلى) أن يمد جنده بآخر رديف ، وهو المكون من ألف مركبة حربية مسلحة ، وبالرغم من هجوم رمسيس على أعدائه ست مرات فإن (موتلى) لم يرسل جنده للشاة الثمانية آلاف الذين كانوا معه على الشاطئ الشرقي لنهر العاصي ، ولذلك لم يحارب من الحثيين إلا قسم المركبات الحربية ، أما المشاة فلم يشتركوا في الكفاح ، ويلاحظ أن مقاومة رمسيس دامت حوالي ثلاث ساعات كان يراقب بلهفة في أثناءها ، وصول قواته الجنوبية التي لم تكون عبرت النهر بعد ، ولما مالت الشمس للمغيب لاحت في أفق السماء رهوس حراب فيلق بتاح لامعة مسرعة مكفهرة ، فابتسم لها محيياً رمسيس ، إذ علم بقرب نجاته . فوقع الحثيون بين قوتين مصريتين ، واضطروا أن ينسحبوا إلى قادش بعد ما تكبدوا خسائر جسيمة»^(١) .

وإذ أدرك ملك الحثيين عظم الخسارة لحقت بجيشه فقد أرسل إلى رمسيس خطاباً يطلب فيه الصلح ، فوافق رمسيس على هذا الطلب ، ووقف القتال .

لم تكن معركة قادش معركة فاصلة ، ولم يستطع رمسيس أن يستولى على قادش ذاتها ، واتفق الطرفان على أن يحترم كل منهما حدود الآخر ، وهذا يدل على قوة مملكة الحثيين . وعاد رمسيس إلى مصر . واقتصرت الدولة المصرية في آسيا على فلسطين ولبنان وجزء صغير من سورية .

(١) برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٢٩٨ .



خريطة معركة قادش
مقتبسة من خريطة برستد

معسكر رمسيس ودخلوه مبهوتين من المفاجأة ، ثم اقترب الحثيون من المصريين ، واتسعت مقدمتهم حتى طوّقت المعسكر المصري تماماً .

وفي المرحلة الثانية من المعركة تحول الموقف ، وكان النصر حليف رمسيس ذلك أنه على عظم

معاهدة صلح وعدم اعتداء بين مصر وخبثا

(سنة ١٢٨٠ ق . م)

وثابر رمسيس على حروبه في آسيا عدة أعوام . ثم توفي موتلى ملك الحيثيين فخلفه أخوه (خاتوسيل) . ورأى من الحكمة أن يجارب مطامع آشور ، فأثر التحالف مع مصر ، وعقد مع رمسيس معاهدة صلح وعدم اعتداء .

وتعد هذه المعاهدة أقدم وثيقة من نوعها في تاريخ الشرق القديم ، بل في التاريخ الدولي العام .

وتوثقت الصداقة بين مصر وخبثا وقتاً ما .

وأكدتها صلة المصاهرة ، فقد زوّج ملك خبثا (خاتوسيل) ابنته لرمسيس الثانى ، وجاء زائراً لمصر ومعها ابنته وحضر الاحتفال البهيج فى طيبة بتأهيلها لرمسيس .

على أن رمسيس فى حروبه الآسيوية لم يصل إلى ما بلغه تحوتمس الثالث .

وبالرغم من هجوم سبتي الأول ، وحروب رمسيس الثانى ، لم تتجاوز حدود مصر الآسيوية فلسطين وسورية الجنوبية ، واستحال على المصريين أن يحكموا سورية ثانية حكماً مستمراً .

ويبدو الفرق جلياً بين رمسيس الثانى وتحوتمس الثالث ، فتحوتمس الثالث كان من أبطال الحرب والكفاح ، على حين كان رمسيس أميل إلى السلم ، ولم يكن على كفاءة تحوتمس فى قيادة المعارك ، فإن تسرعه فى معركة قادش كاد يورده مورد الهلاك ، لولا تدخل القدر فى المعركة .

وقد تزوج رمسيس الثانى فى حياته الطويلة بزوجات كثيرات ، عدا المحظيات والزوجات الثانويات ، كما تزوج من ثلاث من بناته ، ورزق بأولاد بلغ عددهم ٧٩ من الذكور و ٥٩ من البنات ، فزاد أولاده وبناته على ذرية أى ملك مصرى آخر^(١) .

وعظم النفوذ السامى بمصر وقتئذ ، ثم ظهر الأوريون لأول مرة فى تاريخ مصر القديمة ، فأنزلوا جنودهم على ساحل غربى الدلتا ، واتحدوا مع الليبيين على اقتحام الوجه البحرى ، فصدتهم جيش (منفتاح) ولبعدهم إلى بلادهم الأصلية كما سيرد ذلك فى الفصل التاسع ، ثم اضطرت أحوال القطر المصرى بعد ذلك فسقطت الأسرة التاسعة عشرة .

وكانت طيبة عاصمة العالم المتمدن فى ذلك العصر ، وشغلت هذا المركز قبل روما بألف عام^(٢) .

(١) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٣٥٦ .

(٢) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٣٦٩ .

ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢

تكريم رمسيس الثانى

فى سنة ١٩٥٥ نقلت حكومة الثورة تمثال رمسيس الثانى الضخم الذى كان ملقى على الثرى فى ميت رهينة منذ آلاف من السنين واقامته على قاعدة جرانيتية فخمة وسط ميدان من أكبر ميادين العاصمة ، وهو ميدان باب الحديد ، وأسمنته ميدان رمسيس ، وأسمنت الشارع المؤدى له شارع رمسيس ، فصار هذا التمثال رمزاً لعظمة مصر القديمة ، يشاهده القادمون إلى العاصمة من داخل القطر وخارجه .

وإن فى إقامته فى هذا المكان تكريماً وتقديراً لرمسيس العظيم .

أمجاد رمسيس الثانى البنائية



معبد الرمسيوم بالقرنة (بالبر الغربى للنيل)

إنها منشآت ضخمة شيدها رمسيس الثانى فى مناطق عديدة بالوجه القبلى والوجه البحرى ، والتوبة .

ولا يوجد ملك من ملوك مصر له مثل هذا العدد من العماثر الشاهقة ، ولعلها كانت ولم تزل السبب فى ذبوع اسمه ورفعته شأنه بين ملوك مصر قاطبة .

فقد أسس مدينة (بر رمسيس) بشمال الدلتا ، ومكانها الآن على أرجح الآراء فى (قنتيرة) الحالية بمركز فاقوس الآن .

وحسبنا أن نذكر معابده العديدة التي شيدها، تلك المعابد التي هي من مفاخر مصر القديمة ، وكان لها الفضل الأكبر في تخليد اسم رمسيس ، وهي رمز خالد لما كانت عليه مصر من حصرة وعظمة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

ولقد شيد لنفسه معبداً ضخماً رائعاً بالبهر الغربي للتيل بطيبة يعرف بالرمسيوم ، (ص ١٣٦)
وصرحاً شامخاً بمعبد القصر .

وأتم تشييد البهو الكبير ذى العمدة العظيمة في معبد الكرنك ، وهو الذي بدأ إنشائه في عهد رمسيس الأول ، ثم سبى الأول ، وأتمه رمسيس الثاني ، ويعد من أعظم عمائر معالم القديمة والحديثة ، والباقي إلى اليوم ، ويبلغ ارتفاع أوسط هذا البهو أربعة وعشرين متراً ، وسقفه مرفوع على عمد ضخمة عددها ١٣٤ عموداً ، يتجاوز قطر الواحد منها عشرة أمتار (انظر ص ١٣٧) .

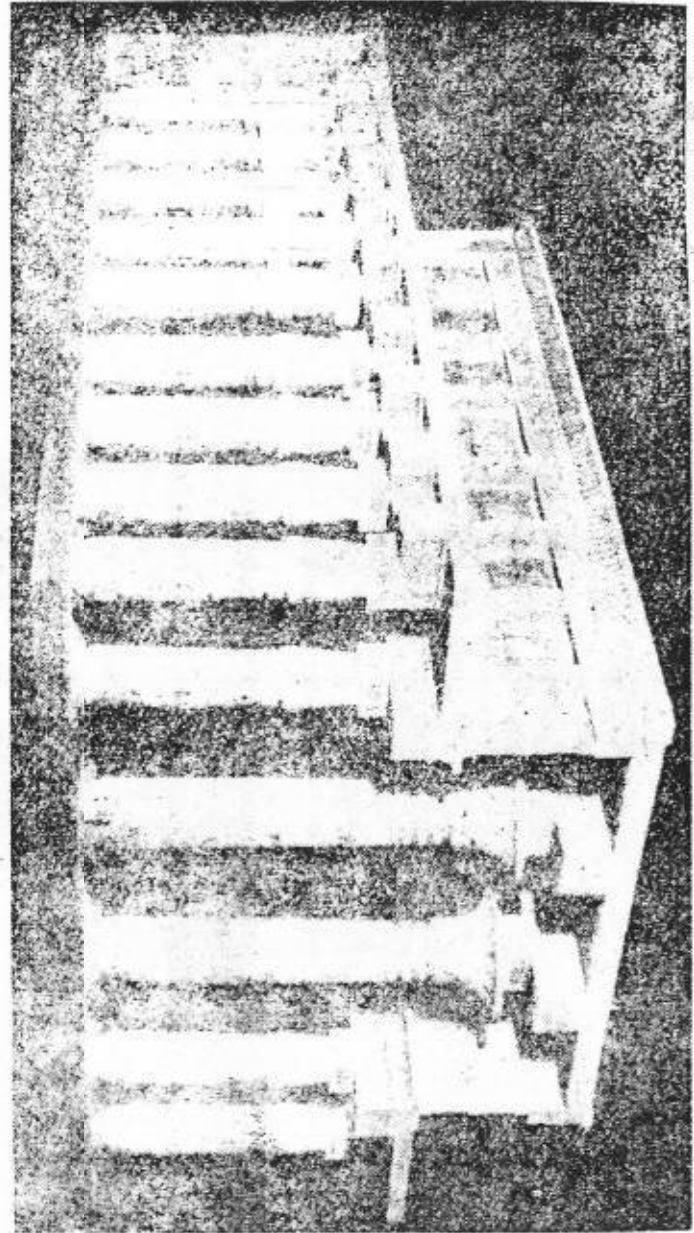
يقول (برستد) يصف بهو الأعمدة الكبير بالكرنك : « إن هذه الساحة أعظم العمارات تأثيراً في النفوس ، وقد وافق هلى هذا الأستاذ رسكن Ruskin حيث قال : « إن أقل ما يقال عن هذه الساحة أنها ضخمة شاققة لدرجة تؤثر كثيراً في نفس ناظرها ، فإذا وقفت بجوار عمدتها والقيت بنظرك على تلك العمدة العديدة الشامخة المعتبرة أعظم أعمال البشر ، وأمكنت في رعوسها الباسقة الحاملة لصحن المعبد ، نقول : إذا لاحظت أن مسطح قمة كل عمود يسع ما يقرب من مائة رجل ، وأن جذر هذه الساحة تسع فيما بينها كيسة نوتر دام Notre Dame بباريس ، ويبقى منها مكان فسيح ، وإذا نظرت إلى باب ذلك المعبد العظيم البالغ طول عتبه أربعين قدماً وزنتها مائة وخمسين طناً تقريباً ، إذا تأملت كل ذلك لا يسعك إلا الإعجاب والإشادة بأعمال ذلك العصر الذى شيد رجاله أعظم ساحة ذات عمد أقامها البشر على ظهر البسيطة إلى الآن^(١) ، وإذا كان تأثر السائح من ضخامة هذه الساحة أكثر من تأثره بجمالها ورونتها ، فليذكر أن العمال الذين شيدها قد شيدها أيضاً معبد رمسيس المعروف بالرمسيوم الذى لا يقل في الجمال والكمال عن أحسن عمارات الأسرة الثامنة عشرة^(٢) »

معبد أبو سمبل

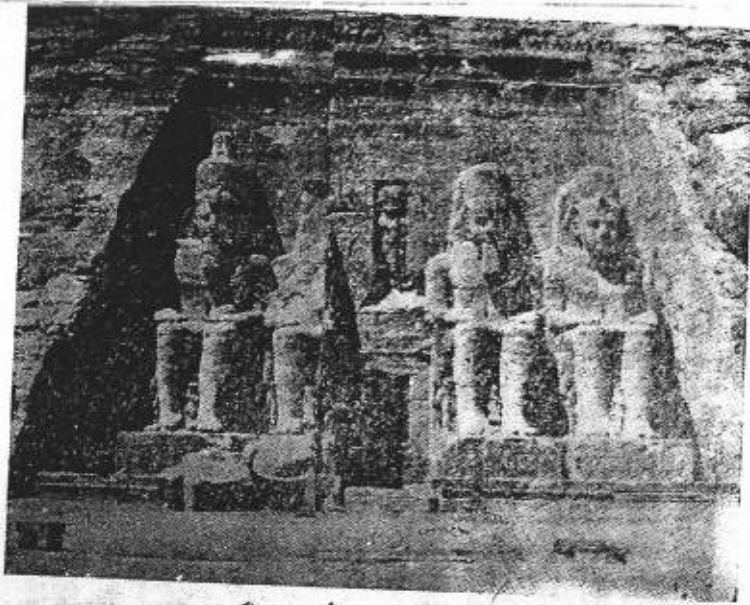
وشيد رمسيس الثاني معبده في النوبة .
أهمها معبد (أبو سمبل)^(٢) أعظم وأجمل آثار رمسيس الثاني بالنوبة ، وقد نحنا في الصخر الذى يتكون منه الجبل ، بدلا من إقامتهما من الحجر ، فجاء آية في الروعة والضخامة والخلود على الزمن . ويقعان على شاطئ النيل .

(١) و (٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق ص ٣٠٣ .

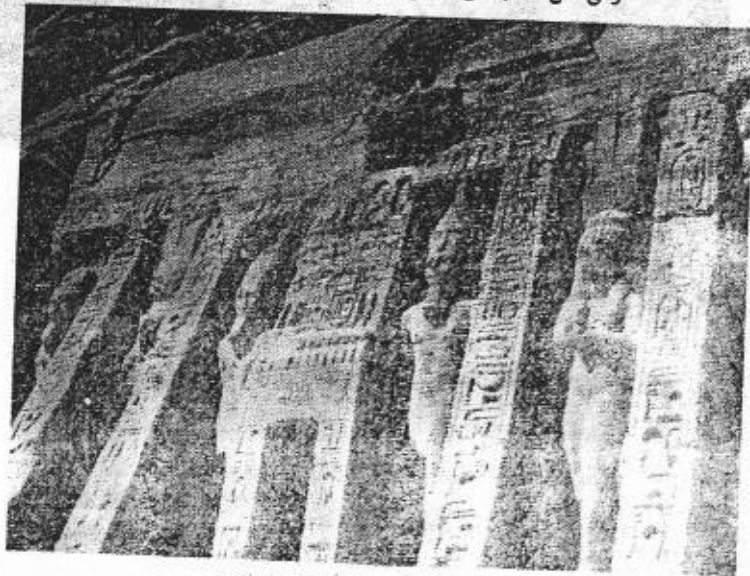
(٢) على بعد ٢٨٠ كيلو مترا جنوبى أسوان .



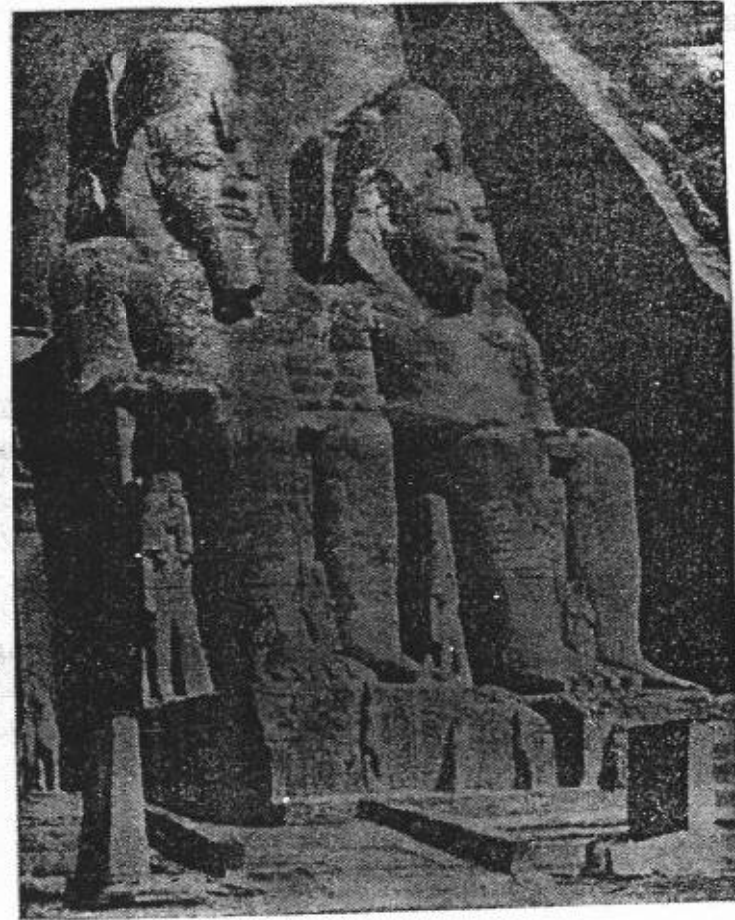
البيرو الكبير ذو العمدة العظيمة بالكرنك ، ويبلغ ارتفاع الأعمدة العظيمة المخرولة بجوانبها بأحجام الرزم ٨٠ قدماً ، وعميقها ٣٣ قدماً ، أما الأعمدة الرابطة المخرولة بجوانبها على هيئة الرزم (زهر النبات) قبل أن يفتح يبلغ ارتفاعها نحو ٤٣ قدماً



واجهة معبد (أبو سمبل الكبير)
وعلى كل جانب من مدخل المعبد تماثلان هائلان لرئيس القاه جالساً



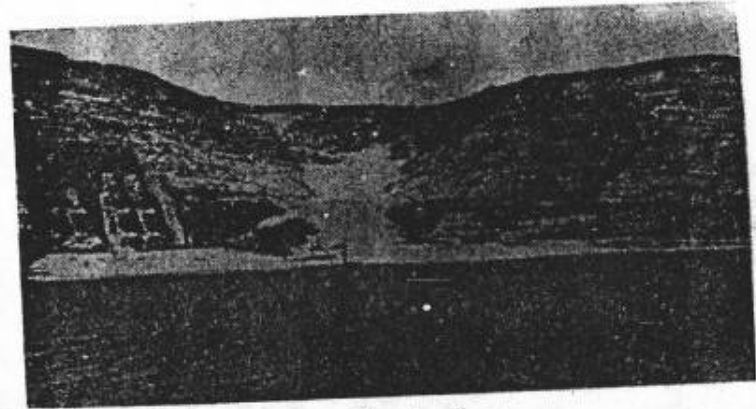
واجهة معبد (أبو سمبل الصغير)



التمثالان الهائلان لرئيس القاه جالساً
بمدخل معبد (أبو سمبل) الكبير
ارتفاع كل منهما عشرون متراً
(انظر صورة مدخل المعبد جمائله الأربعة ص ١٤٦)

وعلى مدخل المعبد الكبير من اليمين تماثلان هائلان لرمسيس الثاني جالسًا يبلغ ارتفاع كل منهما عشرين مترًا (ص ١٤٠) ، وفي الجانب الأيسر من مدخل المعبد تماثلان هائلان آخران بنفس الارتفاع أحدهما قد كسر جزؤه (العلوى ص ١٤١) .
وقد بناه رمسيس لعبادة المعبود (حور أختي) ، ويبلغ ارتفاع واجهة هذا المعبد ٣٣ مترًا ، وفوق بوابة المعبد نحت تماثل المعبود (حور أختي) ، وبجانب أرجل التماثيل الهائلة الأربعة على المدخل أو بينها ، توجد تماثيل لعائلة رمسيس الثاني ، كأمه وزوجته المفضلة نفرتارى ، وبعض بناته وأبنائه .

وعندما يدخل الزائر مدخل المعبد يشاهد صالة الأعمدة الضخمة التى تحتوى على ثمانية أعمدة على الوجه الأمامى لكل منها تماثل ضخم لرمسيس الثاني .



معبد (أبو سمبل) الكبير والصغير
على شاطئ النيل
الصغير إلى اليمين والكبير إلى اليسار

أما سقف الصالة فمزين تارة بالصقر المجنح وتارة بالنجوم ، وعلى جدران صالة الأعمدة مناظر معركة (قادش) التى نشبت بين رمسيس والحيتيين ، ويشاهد الجيش المصرى وهو يزحف نحو المدينة ، والمعسكر المصرى وقد اكتظ بالجند والمركبات الحربية ، ومنظر الاسيرين اللذين أمسكت بهما القوات المصرية وهما يجلدان ليعترفا بمواقع جيش الحيتيين ، ثم رمسيس الثانى وهو يعقد مجلس الحرب ، ثم التحام الجيشين ، وانقضاء رمسيس الثانى بمركبته الحربية على العدو لذى أحاط به ، كما يشاهد الزائر مدينة قادش والجيش الحيتي وهو يتقهقر .



الملكة نفرتارى
زوجة رمسيس الثانى المفضلة
كما تبدو منقوشة على جدران معبد (أبو سمبل) الكبير

وكان رمسيس يعامل العمال الذين اشتغلوا في إقامة هذه المباني الضخمة معاملة إنسانية نعموا في خلالها برغد العيش وعاشت طبقات الشعب في عهده عيشة رخاء .
وتوفي رمسيس الثاني حوالي سنة ١٢٢٥ ق . م . وقد بلغ من العمر نيفًا وتسعين سنة ، وكانت وفاته في السنة السابعة والستين من حكمه ، وقد استمر عشرة فراعنة يسمون أنفسهم باسمه بعد وفاته .

الفصل التاسع

الدفاع عن كيان مصر في عهد خلفاء رمسيس الثاني

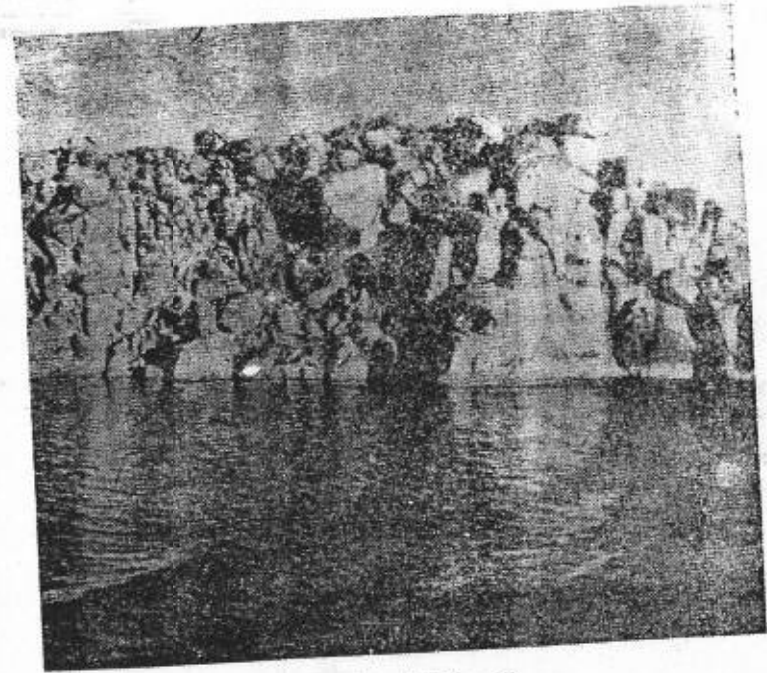
أخذ جيران مصر في أواخر عهد رمسيس الثاني ، يتطلعون إلى انتقاصها من أطرافها ، وخاصة حين تقدمت به السن وضعفت لديه الرغبة في الحرب والهيحاء ، على أنهم ظلوا ساكتين تهيأ من سطوته وبطشه ، فلما مات أخذوا يتحرشون بمصر .
وفي الحق إن خلفاء رمسيس الثاني قد صمدوا لهذا التحرش وأعقبه من هجوم ، وقاموا بواجبهم في النضال عن كيان الوطن ، ودافعوا عنه بكل ما أوتوا من حول وقوة .
وفي ذلك يقول موريه : « في مدى مائة وخمسين عامًا تقريبًا (من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١١٦٨ ق . م .) من عهد رمسيس الأول إلى الثالث قد أدهشت مصر العالم الشرقي بتفوقها في القوة الحربية وبارتقاء حضارتها التي لم يستطع الهمج أن يتألوا منها . »^(١)

منفتح

هو ابن رمسيس الثاني ، ولم يكن صغير السن حين آل إليه الملك ، بل كان في نحو الستين من عمره .

منفتح يصد الغارات عن مصر

وفي عهده تأمر الليبيون^(٢) وقرصان بحر الأرخيبيل على مهاجمة مصر من الغرب .
فانبرى لهم (منفتح) وجرده عليهم جيشا صد هجومهم ، وكسرهم في غرب الدلتا وأوقع بهم هزيمة كبيرة أسفرت عن قتل عدة آلاف من المغيرين وأسر أخرى منهم ، فأمنت مصر شر الغزو الليبي .
أما من جهة الشرق فلئن ظلت العلاقات ودية وقتًا ما بين مصر و (الحيشيين) تنفيذًا لمعاهدة الصداقة التي عقدت بينهما سنة ١٢٨٠ ق . م . منذ نحو ست وأربعين سنة ؛ فإن هذا الود ؛ يدم طويلاً .



صخور النوبة على شاطئ النيل

(١) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٣٢٦ .

(٢) في معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٧ ص ٣٤ عن ليبيا أنها (لوبية) وينسب إليها (لوبى) .
أما تنطق الآن ليبيا (المملكة الليبية المتحدة) . وقد جربنا على هذا النطق .

فمنفتح بالرغم من كبر سنه أظهر مضاء في العزيمة وقوة وصلابة في الكفاح ، واستحق إعجاب لصدده الهجمات الأجنبية عن مصر من الشرق والغرب . ومات بعد أن حكم نحو عشر سنوات .

سيتي الثاني

لم تقع في عهده أحداث تستحق الذكر ، وقعت في البيت المالك انقسامات أودت بالأسرة التاسعة عشرة .

الأسرة العشرون

(١١٩٥ - ١٠٨٠ ق م)

رمسيس الثالث

اعتبر المؤرخ (مانيتون) رمسيس الثالث مؤسساً للأسرة العشرين . وقد عنى هذا الملك بإصلاح نظام الجيش ليكون عدته في الدفاع عن البلاد . وصدَّ غارة لسكان البحر المتوسط ، ونازلهم بأسطوله على شواطئ فينيقية فأوقع بهم ، وغرقت سفن كثيرة من سفنهم ، وأتخذ مصر من هذا الغزو الذي كان شبيهاً بغزو الهكسوس ، لولا أن سحقه رمسيس الثالث ، فاستحق الثناء العظيم على شجاعته في ردِّ العدوان الخارجي الغادر .

واستردت مصر بفضل هذا الدفاع نفوذها في جزء من سورية وفي فلسطين

وصدَّ هجومًا آخر لليبيين وحاربهم وهزمهم .

وحكم البلاد إحدى وثلاثين سنة .

ويعتبر آخر الفراعنة العظام من المحاربين في تاريخ الأسرة العشرين .

وتبع رمسيس الثالث في الحكم تسعة من الملوك سموا باسم رمسيس ، من رمسيس الرابع إلى الحادي عشر ، ولكن ليس فهم همه رمسيس الثاني ولا مضاء عزيمته ولا نباهة ذكره .

الأسرة الحادية والعشرون

وتبعتها الأسرة الحادية والعشرون ، فحكمت نحو مائة وخمسين سنة ، وكانت عاصمة البلاد في عهدها تانيس (صان الحجر) .

ولم يقع في عهد هذه الأسرة حادث يستحق الذكر ، وخيم على البلاد جو من الخمول والتراجع والانتكاس .



منفتح

ابن رمسيس الثاني وخليفته في الحكم

فقد تبين أن الحثيين عاودتهم أطماعهم وعداوتهم القديمة ، وساعدوا قرصان بحر الأرخيل، على شنِّ الغارة على مصر .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أوقدوا نار الفتنة في الأقاليم السورية الخاضعة لمصر ، فهبت فيها وفي فلسطين اشتراكت فيها قبائل بني إسرائيل .

فأنبرى لهم منفتح في السنة الثالثة من حكمه وحاربهم وقمع هذه الفتنة وأمن حدود مصر الشرقية .

الأسرة الثانية والعشرون

(سنة ٩٥٠ - ٧٣٠ ق م)

وظلت البلاد تعاني مرارة الفوضى والانقسام ، حتى قام زعيم يدعى (شيشنق) وأسس الأسرة الثانية والعشرين .
وقام هذه الأسرة راجع إلى ضعف الأسرة الحادية والعشرين وإلى وفاة آخر ملوكها وانقراض ذريتهم .

شيشنق الأول Sheshonk

هو الذى زعم بعض المؤرخين أنه لىبي ، وأنه أسس أسرة لىبية ، وأن اللبيين حكموا مصر فى عهده وعهد خلفائه .

والصحيح أنه وإن كان أصله البعيد يرجع إلى ليبيا ، لكن أسرته تمصرت منذ أن استوطنت مصر من عدة أجيال مضت وسكنوا أهناسيا المدينة ، وصاروا من المواطنين المصريين ، وتقلد كثير منهم مناصب الدولة ، وأظهروا فيها إخلاصاً لوطنهم .



شيشنق الأول
مؤسس الأسرة الثانية والعشرين

فلا يصح القول بأن هذه أسرة لىبية وأن اللبيين حكموا مصر ، بل الصحيح أنها أسرة مصرية اندمجت فى المواطنين فصارت منهم ، شأنها فى ذلك شأن بعض الأسرات المائكة التى تولت الحكم ولا تزال تتواله فى بعض البلاد الأوروبية ، ويرجع أصلها البعيد أو القريب إلى سلالة أجنبية ، ولم يقل أحد إن هذه البلاد يحكمها الأجانب أو أشباه الأجانب ، فما يرى على أوروبا يسرى على مصر .

وفى ذلك يقول الدكتور أحمد فخري : « من التجنى على التاريخ أن يسمى وجود أفراد هذه الأسرة على عرش البلاد أنه استعمار لىبي ، أو أن مصر فقدت استقلالها وأصبحت محكومة بغير نياتها ، ففى كثير من بلاد الأرض فى الأزمان الغابرة وفى وقتنا الحاضر عائلات ملكية من أصل أجنبى ولكن لم يقل أحد إن إنجلترا محكومة بالأمان أو أن اليونان وبلجيكا وهولندا وغيرها مستعمرات ألمانية ، أو أنها فاقدة لاستقلالها لأن ملوكها الحاليين من أصل ألماني غير وطني » (١) .
كان تولى (شيشنق) العرش برضا الأهلىين ، ولم يجد أى معارضة منهم ، وقد اتخذ تل بسطة (الزقازيق الحالية) عاصمة للملكه .

حقاً إن كهنة آمون فى طيبة لم يرتاحوا لجلوسه على العرش ، خرقاً على سلطاتهم وامتيازاتهم ، ونقموا منه تعيينه أحد أبنائه فى وظيفة الكاهن الأكبر لآمون ، وغضبوا لذلك ، ورحلوا إلى نياتا بالنوبة ، وأسسوا فيها أسرة حاكمة ولكن هؤلاء الكهنة لم يكونوا فى معارضتهم يمثلون الشعب .
اعتبر مانيتون شيشنق مؤسس الأسرة الثانية والعشرين التى حكمت نحو قرنين ونصف حكماً حازماً .

وكان حريصاً على وحدة مصر واستقلالها ، عاملاً على رفعة شأنها ، وقد أعاد إليها الأمن والنظام ، وسعى جاهداً فى أن يسترجع لها عظمتها ومجدها وهبتها فى الخارج .
وقد زوج ابنه وولى عهده (أوسركون) بابنة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وبذلك خلع عليه الدم الفرعونى .

وأخذ يسيطر نفوذ مصر على فلسطين حتى جعل سيادة مصر فيها فعلية ، بعد أن تراخت فى عهد الأسرة الحادية والعشرين بل منذ وفاة رمسيس الثالث ، واستولى على بعض المدن التى كان يحتلها اليهود .
وغزا فلسطين كلها تقريباً ، واستولى على أورشليم (بيت المقدس) ، فجدد ؛ بذلك عهد فراعنة مصر الأقدمين .

وفى ذلك يقول برستد : « وهكذا أرجع شيشنق لمصر لأمد قصير بعض مجدها القديم الذى

(١) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٣٩٦ .

شاهدته الإمبراطورية في عهد الأسرة التاسعة عشرة لما أخذت ترد على خزائنها جزية الأقاليم الواسعة الممتدة من شمالي فلسطين شمالاً إلى أعالي النيل جنوباً^(١) .

وردد ذكره في التوراة باسم (شيشق) بالإصحاح الرابع عشر بالآية الخامسة والعشرين . ومات حوالي سنة ٩٢٠ ق م . بعد أن حكم مصر ٢١ سنة .

وخلفه ابنه (أوسركون) الأول فاتبع سياسة أبيه .

وتلاه ملوك آخرون من أسرة شيشق ، إلى أن أضمحل شأنهم وتفككت الجبهة الداخلية في عهد أواخرهم .

وفي أواخر عهد هذه الأسرة ظهر الخطر الآشوري على مصر .

الأسرتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون

ناصر كهنه آمون ، ملوك الأسرة الثانية والعشرين العلاء ، وأقاموا ملكاً بدلهم ، فأسس الأسرة الثالثة والعشرين ، وتنازع أمراء البلاد السلطة وضعف شأن الحكم .

وظهر أمير يدعى (تفتخت) Tafnakt حاكم سايس (صا الحجر) غربي الدلتا^(٢) ، وأسس الأسرة الرابعة والعشرين ، وتنازع الملك مع منافس له ، فازدادت البلاد ضعفاً . إذ صار فيها بيتان مالكان .

قانون بوخوريس Bochoris

بدأت مصر منذ فجر التاريخ بنظام قانوني أصيل هو أقدم نظام عرفته الإنسانية ، وقد استمر هذا النظام قائماً أكثر من أربعين قرناً ، ولا يوجد له مثيل في تاريخ الأمم الأخرى ، ولكنه لم يجاوز المرحلة التي وصلت إليه جميع الشرائع القديمة ، وهي مرحلة التدوين أو التقنين أى وضع القوانين في صيغ محددة ونشرها على الناس^(٣) .

ولما تولى الحكم بوخوريس بن تفتخت مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين لم يحكم سوى أربع سنوات ، وقد وضع قانوناً يسمى (قانون بوخوريس) عام ٧٤٠ ق م . أدخل فيه كثيراً من الإصلاحات والتعديلات على القانون القديم . وأتى فيه بجديد ، وأخرج قواعد القانون عن دائرتها الدينية وأضفى عليها طابعاً مدنياً .

ويعتبر هذا القانون المرحلة الأخيرة التي وصل إليها تطور القانون المصرى في عهد الفراعنة ،

(١) برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق - ص ٢٥٩ .

(٢) مكانها الآن قرب كفر الزيات . وهي غير صا الحجر (تقيس) .

(٣) عمر ممدوح مصطفى ، أصول تاريخ القانون ص ٥ .

وقد أشاد الإغريق بمكانة بوخوريس من هذه الناحية واعتبروه أحد عظماء المشرعين في مصر القديمة .

ومن أهم اصطلاحات بوخوريس أنه نظم المعاملات على أساس حرية التعاقد ، ولم يبق فيها أثر للشكلية القديمة .

وفي الأحوال الشخصية ساوى بين الرجل والمرأة ، ومنحها حقوقاً لم تتمتع بها المرأة اليونانية ولا الرومانية ، وبقي الطلاق من حق الزوج وأصبح للزوجة بحكم مبدأ حرية التعاقد أن تشتترط أن يكون لها الحق في فسخ عقد الزواج أو ما يدعى عنها خطر الطلاق ، كأن تحصل على إقرار من الزوج بمبلغ معين يلتزم به كنفقة حين الطلاق ، أو تتفق معه على شرط جزائي ، فيقوم الزوج بدفع مبلغ من المال إذا طلق زوجته .

وظل تعدد الزوجات مباحاً ، وحرم فقط على الكهنة ، ولكن الزوجة تستطيع أيضاً أن تنص في عقد الزواج على الألباح للزوج أن يتزوج من أخرى وبذلك كان يتعذر على الزوج أن يتخذ أكثر من زوجة واحدة^(١) .

الأسرة الخامسة والعشرون

بعنخي Biankhi

كانت البلاد في حاجة إلى منقذ يستخلصها من الفوضى والانقسامات ، ويعيد إليها وحدتها . لم يكن هذا المنقذ سوى الشاب (بعنخي) الذى أتقذ من (نباتا) على الشلال الرابع جيشه لاستخلاصها من الهاوية التي تردت فيها .

و (بعنخي) هذا هو الذى زعم بعض المؤرخين الأجانب أنه أثيوبي ، وأنه أسس أسرة أثيوبية ، وأن أثيوبيا حكمت البلاد في عهده وعهد أسرته .

والصحيح أنه من النوبة ، والنوبة جزء لا يتجزأ من مصر ، وكانت ثقافتها مصرية ، وديانتها مصرية من عهد الفراعنة الأقدمين ، هذا إلى أن أصل أسرته من كهنة (طيبة) الذين هاجروا إلى الجنوب .

وكانت (نباتا) حصناً من حصون مصر الجنوبية في زمن (امنحوتب الثانى) ، وكان لكهنة آمون الكلمة النافذة فيها ، وسبق أن أسسوا بها أسرة حاكمة .

حارب بعنخي جيش الأمير (تفتخت) حاكم بلدة سايس (صا الحجر الحالية) بمرکز كفر الزيات الآن الذى ادعى أنه الأحق بالملك ، وذهب بنفسه إلى طيبة ليقود جيشه ، وسار منها شماًداً حوالي سنة ٧٢١ ق م . واستولى على صعيد مصر ، ودانت له مدنه مدينة تلو الأخرى .

(١) عمر ممدوح مصطفى : أصول تاريخ القانون ص ٢٢٧ .

الفصل العاشر

تحرير مصر من الاحتلال الآشوري

كانت الدولة الآشورية من أقوى دول ما بين النهرين (دجلة والفرات) ، وعاصمتها (نينوى) .

وقد اتجهت أطماعها الاستعمارية إلى غربي آسيا في القرن التاسع قبل الميلاد . ولما جلس (سرجون) الثاني على عرش هذه الدولة حوالي سنة ٧٢٢ ق . م . تفاقمت أطماعها ، وكانت مصر قد أمّدت الأهلين في فلسطين وسورية ليقاوموا الغزو الآشوري . فنقم منها (سرجون) هذا الموقف ، وزحف على فلسطين ومنها إلى مصر ، فبلغ (رفح) ووصل إلى الحدود المصرية ، والتقى بقوات مصرية تعاون الفلسطينيين ، فردّته على أعقابها ورجع عن محاولة غزو مصر .

وبعد موته جلس ابنه (سنحريب Senahrib) على عرش آشور ، فقرر أن يغزو فلسطين ، ووقفت مصر تؤازرها وأرسلت إلى الحدود جيشاً بقيادة (طهارقه) .

وجاء سنحريب يهاجم مصر ، ففضى الطاعون في جيشه فارتد عنها ، ولم تعاوده فكرة مهاجمتها ، وعاد إلى بلاده ومات مقتولا في الطريق بيد أبنائه سنة ٦٨١ ق . م .

فتولى بعده ابنه (أسر حدون) ، وتولى طهارقه في العام نفسه عرش مصر ، فأعدّ العدة لمقاتلة الآشوريين إذا حدثتهم أنفسهم بغزو مصر .

وانتقل من طيبة إلى صان الحجر (تاتيس) ، ليكون على مقربة من حدود مصر الشرقية ، وليستعد لصدّ الهجوم الآشوري إذا وقع ، وأخذ يثابر على تخريص الفلسطينيين على الثورة على آشور . فتقدم (أسر حدون) نحو مصر عن طريق سيناء ، وساعده بدو الصحراء الذين أمّدوه بالإبل تحمل المؤن والماء لجنته ، وأرشدوه إلى مسالك الطريق حتى بلغ وادي الطميلات ، وسار في زحفه .

وقاومه طهارقه مقاومة بأسلة ، ولكن قوات (أسر حدون) غلبته على أمره ، واستمر في هجومه حتى بلغ (منف) واستولى عليها .

وارتد طهارقه جنوبا حوالي سنة ٦٦٧ ق . م .

ثم لم يلبث أن عاد إلى الشمال ، وهزم الحامية الآشورية واسترد منف . وعاد (أسر حدون) إلى مصر يريد احتلالها ، ولكنه مات في الطريق فخلفه على عرش آشور

وتابع السير حتى بلغ منف ، فاستعصت عليه أولاً ، ثم حاصرهما حتى استسلمت . وجاءه أمراء الدلتا واعترفوا به ملكاً على مصر ، وسار منها شمالاً حتى بلغ أثريب (بنها) ، فجاهه بقية الأمراء واعترفوا له بالملك .

وإذ رأى الأمير تفنخت الذي كان يطمع في الملك أن أمراء لبلاد قد اعترفوا ببعنخي ملكاً استسلم له هو أيضاً ، ودانت مصر كلها شمالها وجنوبها لبعنخي مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين .

وساس بعنخي البلاد سياسة حكيمة ، وظل على العرش واحداً وعشرين عاماً .

وفي عهده بدأ عصر النهضة والإصلاح الذي ينسبه بعض المؤرخين إلى (أبسماتيك) الأول ، وهو في الواقع قد بدأ في عهد الأسرة الخامسة والعشرين ، أي من عمل بعنخي وخلفائه . فقد نهضوا بالبلاد نهضة شاملة ، وأعادوا لها بعض مجدها القديم .

خلفاء بعنخي

وبعد وفاة بعنخي خلفه في الملك على التعاقب أخوه ثم ابنه ثم ابن آخر له ، وهو (طهارقه Taharka) ، الذي كان له شأن كبير في المقاومة الوطنية ضد الزحف الآشوري كما سيرد في الفصل التالي ، وكان أعظم ملوك هذه الأسرة وأمجدهم أعمالاً وحكم البلاد نحو خمسة وعشرين عاماً .

الأسرة السادسة والعشرون أبسماتيك الأول

هو ابن الأمير (نيخاو) . وقد أسس الأسرة السادسة والعشرين حوالى سنة ٦٦٣ ق م .
وجعل (سايس)^(١) حاضرتها .

وهو محرر مصر من الاحتلال الآشورى ، وقد أصبحت البلاد مستقلة فى عهده .
فهو قريب الشبه من هذه الناحية بأحمس الأول الذى حرر البلاد من حكم الهكسوس
واستقلت البلاد فى عهده ، وكذلك فعل أبسماتيك الأول ، وإنه ليشرفه أن يشبه من هذه
الناحية أحمس الأول .

وكان على جانب كبير من الذكاء والحصافة ، وقد أصبح من شئون البلاد ونظم جيشها
وأسطولها ، وأعاد إليها الأمن والوحدة والرخاء .
ويسمى المؤرخون عهده عهد النهضة^(٢) .



أبسماتيك الأول
محرر مصر من الآشوريين

(اشور بانيبال) Achour Banypal ؛ فأعد جيشًا آخر أغار على مصر ، وكتب له الفوز ،
وهزم الجيش المصرى بعد حروب عنيفة ، واستولى على منف .

فارتد طهارقه ثانية إلى الجنوب ، واستولى آشور بانيبال على طيبة ، وخرّبها تخريبًا وحشيًا .
وكان الآشوريون مضرب الأمثال فى القسوة والفظاعة فى معاملة الشعوب التى تغلبوا
عليها .

وتعاون أمراء الدلتا على محاربة الآشوريين .
وكان منهم أمير يدعى (نيخاو) امتاز بأنه من أكثرهم همة فى مقاومتهم ، ولكن الآشوريين
نجحوا فى حملتهم الثانية ودخلوا طيبة وخرّبوها .
وارتد طهارقه إلى نباتا بالنوبة ، ولم يأن يستسلم للآشوريين ، ومات بها مثقلًا بأعباء الكفاح
والمقاومة .



طهارقه . بطل المقاومة ضد الغزو الآشورى

لم ييأس الشعب من الخلاص من الاحتلال الآشورى ، ومازال الأمراء يقودونه فى المعركة ،
ومنهم الأمير (نيخاو) ويعملون جاهدين على التحرر من هذا الاحتلال البغيض .
وقد اعترفوا لزميل لهم وهو (أبسماتيك) بن نيخاو ، كما اعترف له الشعب بالملك ، وتحالفوا
جميعًا على طرد الآشوريين من البلاد .

وإذ عادت الوحدة إلى الصفوف واتحدت كلمة المواطنين ، فقد هزموا الحاميات الآشورية ،
وتحررت البلاد من الاحتلال الأجنبي على يد بطل من قِمتائها وهو ابسماتيك الأول .

(١) هى صا الحجر القريبة من كفر الزيات الحالية ، وهى غير صان الحجر بمركز فاقوس شرقية .
(٢) كما يسمونه بالمعهد الصاوى نسبة إلى صا الحجر العاصمة .

وقد استرد جزءاً من فلسطين من الآشوريين ، وتوفي سنة ٦٠٩ ق . م . ، وحكم نحو ٥٤ عاماً وترك البلاد في رخاء لم تر مثله منذ وفاة رمسيس الثالث .

على أن خطاه الأكبر أنه أكثر من استخدام الإغريق (اليونانيين) في الجيش المصرى وفى الحكومة ، وكان اليونانيون قد بدءوا يفدون على مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد .

نأذى استخدام الأجانب إلى إضعاف الروح القومية فى نفوس المصريين ، ولم يفكر فى العواقب الوخيمة التى تترتب على هذه السياسة الحمقاء .

وأسس اليونانيون فى عهده مدينة لهم سموها نقراتيس (نقراس)^(١) على فرع النيل الكائى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد .

فضل الحضارة المصرية على حضارة اليونان

وفى عهد أيسماتيك الأول نشأت العلاقات التجارية والثقافية والعلمية بين مصر وبلاد اليونان وجزر بحر إيجه ، وأخذ علماء الإغريق وكتابتها ينظرون إلى مصر على أنها مهد الحضارة والعلم ، فنقلوا إلى بلادهم كل أنواع العلوم المصرية من رياضة وفلك وهندسة وقوانين وديانة ، ويقتبسون ما يلائم تفكيرهم .

ومن دلائل ذلك أن (سولون) المشرع الإغريقى العظيم أخذ بعض تشريعاته عن القوانين المصرية .

يقول برستد فى هذا الصدد : « ولا يخفى أن العالم الغربى مدين بكثير من علومه وآدابه إلى أهالى وادى النيل ، كيف لا وهم زودوا أوروبا الجنوبية بالمدينة والمعارف ، فأخذت هذه تنتشر شمالاً متبعة سير النيل إلى الأقاليم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . »

وقال أيضاً : « وقد اجتمعت فى مصر السيادة الحربية والمدينة من أقدم العصور إلى ظهور مدينتنا وحضارتنا الحديثتين ، ولقد كان من أهم واجباتنا المقدسة ونحن من سلالة سكان أوروبا الأقدمين أن نرفع الستار ونزيل الحواجز ، التى تحجب عنا حوادث العصور السابقة ، تلك العصور التى تسلم فيها أجدادنا وديعة هذا التمدن الحديث . »

وقال فى هذا الصدد : « ويرجى أصل المدينة الحديثة إلى الأمم التى نشأت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، الشرقية وإلى البلاد المجاورة لتلك الجهات . وذلك منذ نحو ستة آلاف سنة تقريباً ، وكانت بلاد العراق مركزاً ثانياً لمدينة قديمة ، لكنها لم تشترك فى تكوين حضارتنا الحديثة ، لعدم اتصالها بسكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويمزى ذلك إلى عدم اتصال هذا البحر بنهر الفرات ، مع أنهما كانا متصلين قديماً قبل ظهور هذه الحضارة ، لذلك اعتبر

المؤرخون أن حضارتنا الحالية نشأت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، من المحيط الأطلسى إلى الأراضى الصحراوية شمالى إفريقية ، وإلى الخليج الذى كان متصلاً بالبحر الأحمر ، ثم إلى الشمال فى القارة الآسيوية ، ويخترق هذا الإقليم الشاسع واديان عظيمتان متجهان شمالاً وجنوباً ، يعرف أولهما بوادى دجلة والفرات ، وهو فى القارة الآسيوية ، أما الثانى فإفريقية ، ويقال له وادى النيل ، وهذان الواديان هما منشأ المدينة القديمة ، فصار لذلك الجبهتين اللتين يبحث فيها عن تاريخ الإنسان القديم ، حتى ظهور الحضارة الأوروبية الحديثة ، وقد كانا أيضاً المهدين الوحيدين لحضارتين مختلفتين عمناً تدريجياً البلاد المجاورة حتى التقنا معاً بأسيا لصغرى ، ثم انتشرتا إلى جنوب أوروبا »^(٢) .

ويقول الدكتور أحمد فخرى فى هذا المعنى : « إن اليونانيين أنفسهم يعترفون بفضل حضارات الشرق عليهم ، ويفتخر الكثيرون من رجائهم الذين وضعوا أسس العلوم اليونانية أنهم درسوا سنوات عدة فى مصر ، وتلقوا من كهنتها الكثير مما حملوه معهم إلى بلادهم ، لافى الطب أو فى القانون أو فى الرياضيات فقط ، بل فى كثير من النواحي الأخرى كالنحت والموسيقى .. إن المائة سنة الأخيرة قد أمدتنا بوثائق لا حصر لها عن مدى تقدم الشرق فى حضارته ، ومدى أثر مصر على غيرها من الحضارات ومن بينها حضارة اليونان ، لقد ثبت الآن أن افتخار اليونانيين بأنهم تعلموا ما تعلموه من مصر لم يكن مجرد ادعاء أو محاولة إضفاء شىء من الفخر على أنفسهم ، لما كان معروفاً عن بلاد النيل بأنها كانت بلاد الحكماء القدماء ، بل كان حقيقة مؤكدة ، لأنه بالرغم من أن الحضارة المصرية لم تكن فى وقت اتصال اليونانيين بها ، مصر القوية المثوبة التى كانت من قبل ، إلا أن شعلة العلوم لم تكن قد خبت وانطفأت ، ولكنها ظلت مضيئة على الأقل بين كهنة المعابد وغيرهم من الطبقات ، وبخاصة من الموظفين ، ولم تلبث مصر بعد ذلك حتى دخلت فى دور جديد من أدوار تاريخها ، وهو دور النهضة التى ظهرت منذ الأسرة الخامسة والعشرين واستمرت طيلة أيام الأسرة السادسة والعشرين ، ويطول بنا الحديث لو حللنا أقوال كبار فلاسفة اليونان وعلمائها وإشاداتهم بمصر ، واعترافهم بأنهم تعلموا من المصريين ما تعلموه ، وما علموه بعد ذلك لتلاميذهم ، ويكفى أن نذكر ما كتبه فلاطون الذى قضى ثلاثة عشر عاماً فى مصر ، لندرك قيمة ما كان يحس به اليونانيون القدماء من دين للمصريين »^(٣) .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق ص ١

(٢) أحمد فخرى : تاريخ الحضارة المصرية لئحة من العلماء العصر الفرعونى ص ٥٩٩ .

خلفاء أبسماتيك الأول

نيخاو الثاني

خلف أبسماتيك الأول ابنه (نيخاو) الثاني ، وحذا حذو أبيه في دعم أسباب النهضة ، وزاد عليها أن عُني بالأسطول ، فأنشأ أسطولاً تجارياً رفع علم مصر فوق ظهر البحار ، وكان هذا الأسطول سيد بحار العالم في التجارة ، وأكبر أسطول تجارى في البحر الأبيض المتوسط . وأنشأ أيضاً أسطولاً حربيًا ، وقد سعى في استرداد أملاك مصر الآسوية التي كانت لها في عهد تحوتمس الثالث .

وكانت آشور قد تولاهما الضعف منذ أن زاحتها (بابل) على السيادة والسيطرة ، ومازالت بها حتى استولت عليها .

معركة أخرى في مجدو

(سنة ٦٠٨ ق م)

زحف نيخاو على فلسطين ، وأستولى على غزة وعسقلان ، وكانت فلسطين قد تحررت من آشور وآل الأمر في يهوذا إلى ملك يسمى (بوشيا) ، فظن أنه يستطيع أن يصدّ المصريين كما صدّ الآشوريين من قبل ، فدارت بين نيخاو وبوشيا حوالى سنة ٦٠٨ ق م . معركة في سهل (مجدو) الذى وقعت فيه أول معركة كربية منذ تسعمائة سنة بين تحوتمس الثالث وأمير قادش ، وانتصر فيها تحوتمس انتصاراً عظيماً كما سلف القول (ص ٩٥) .

وانتهت المعركة هذه المرة بهزيمة بوشيا . وأصيب بجراح توفى على أثرها في أورشليم (القدس) .

وتمكن نيخاو من استرجاع فلسطين وسورية .

الطواف حول القارة الإفريقية

وعهد نيخاو إلى بعض الملاحين اكتشاف سواحل إفريقية ، فقصوا في هذه المهمة نحو ثلاث سنوات في رحلتهم حول شاطئ إفريقية ، وعادوا إلى مصر من برغاز جبل طارق . يقول موريه Moret :

« كان لا بد من انتظار أحد عشر قرناً حتى يتسنى للبرتغاليين بقيادة فسكودى جاما لبيدوا من جهة مضادة الدوران حول القارة الإفريقية الذى بدأ به نيخاو ، والذى عاد بالفوائد العظيمة على علم الجغرافيا والتجارة العالمية »^(١) .

(١) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٥٧ .

قناة نيخاو

ومن أهم أعماله العمرانية إعادة شقّ القناة المائية التي تصل النيل بالبحر الأحمر ، والتي تخرج من فرع النيل البيلووزى القديم وتسير في وادى الطميلات ، ثم تنثنى جنوباً فتخترق البحيرات المرة ثم تصب في البحر الأحمر ، ويقول برستد : إن مهندسى نيخاو نصحوه بعدم الاستمرار في حفر هذه القناة لظنهم أن سطح مياه البحر الأحمر أعلى من سطح الدلتا فيخشى على مصر من الغرق إذا تم حفر القناة «^(١) .

وتوفى نيخاو سنة ٥٩٣ ق م . بعد أن حكم البلاد ستة عشر عاماً .

أبسماتيك الثاني

فخلفه ابنه أبسماتيك الثاني وسار على سياسة أبيه ، ونفذ معاهدة أبيه مع بابل ، وقضى في الحكم نحو ست سنوات .

أبريس Apris

وبعد وفاة أبسماتيك الثاني تولى الملك ابنه (أبريس) سنة ٥٨٨ ق م . وقد أراد أن يسترد نفوذ مصر في آسيا ، فجرد حملة على بابل في فلسطين ليطرده البابليين منها ، وانتهت بالفشل .

أمازيس Amazis

وحدثت في عهد أبريس ثورة من ضباط الجيش ترجع إلى ممالأته لليونانيين ، فنقموا منه هذه النزعة وثاروا عليه .

فأنفذ إليهم جيشاً بقيادة (أمازيس) أحد قواد جيشه ، وهو من عامة الشعب ، وكان يشعر بشعور الشعب ، فانضم إلى الثوار ، وباعوه ملكاً على البلاد ، ويبدأ حكمه سنة ٥٦٨ ق م . وقد مات أبريس في معركة مع الثوار .

وحكم أمازيس نحو ٤٤ سنة ، وتوفى سنة ٥٢٥ ق م .

وفى غضون هذه الأحداث تغير ميزان القوى في غربى آسيا فقد ورثت فارس دولة آشور بعد أن استولت عليها واحتلت عاصمتها نينوى .

وتولى العرش في فارس ملك جديد اسمه (قورش) .

(١) برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور - المرجع السابق ص ٣٩٤ .

واستولى على بابل سنة ٥٣٩ ق. م. ثم على سورية وفلسطين ، وظل على العرش إلى أن مات سنة ٥٣٠ ق. م. وبعد وفاة (قورش) تولى ابنه (قمبيز) عرش فارس سنة ٥٢٩ ق. م.

أبسماتيك الثالث

تولى الملك بعد وفاة أبيه أمازيس ، وهو الذى حدث فى عهده الغزو الفارسى سنة ٥٢٥ ق. م. ، ولم يطل حكمه أكثر من ستة أشهر .

الفصل الحادى عشر

الغزو الفارسى وثورات الشعب عليه

(سنة ٥٢٥ ق. م.)

نكبت البلاد سنة ٥٢٥ ق. م. بالغزو الفارسى ، وكان يقوده قمبيز بن قورش . وقع الغزو الفارسى فى أوائل عهد أبسماتيك الثالث ، وكان قمبيز يعد له العدة من قبل ، فأخضع دويلات آسيا الصغرى وبعض الجزر اليونانية ، وجمع فى آسيا جيشاً جراراً لمهاجمة مصر ، وقد أفلح هذا الجيش فى حملته واحتل البلاد .

مقدمات الغزو الفارسى

بعد أن سيطرت مصر على العالم المتمدن من أوائل القرن السادس عشر ، ونشرت علومها وحضارتها فى مختلف البلدان ، أخذت عوامل الضعف توهن من كيانها نتيجة للانقسامات الداخلىة من جهة ، ولانغماسها فى الترف من جهة أخرى . وانضم إلى ذلك استعانة مصر بالجنود المرتزقة من الإغريق وغيرهم ، فضعفت الروح القومية فى الجيش . ولم تستطع مصر منذ عهد أبسماتيك الأول أن تستعيد قوتها بعد الانقسامات التى أضعتها من قبل .

الخيانات الثلاث

وساعد الفرس على غزو مصر خيانات ثلاث تألبت عليها ، وكان لها الأثر الأليم فى ضعف المقاومة .

خيانة اليهود

وأولى هذه الخيانات اتفاق اليهود مع قمبيز على أن يتخذ من بلادهم قاعدة للانقضاض على مصر ، مقابل أن صرح لهم ببناء معبد أورشليم ، هذا إلى أنه اكتسب بهذا الاتفاق ولاء الجنود اليهود المرتزقة الذين كانوا فى الجيش المصرى^(١) .

(١) بوزنر Posner التسلط الفارسى الأول على مصر ص ب .

فاليهود إذن قد مالوا الفرس وعاونوهم على غزو مصر في القرن السادس قبل الميلاد وجعلوا من فلسطين قاعدة للانتفاض عليها .

خيانة فانيس Phanès

كان (فانيس) هذا إغريقيًا من هليكارناس ، وكان رئيسًا لفرقة من الجنود المرتزقة في الجيش المصري منذ عهد أمازيس ، فخان عهده لمصر ، وفر إلى معسكر الأعداء ، وأطلع قمييز على أسرار الخطة الحربية التي أعدها المصريون لمقاومة الحملة الفارسية .

وبدأت هذه الخيانة قبل وفاة أمازيس ، وكان لها ولا ريب أثرها البالغ في إضعاف الجبهة المصرية .

خيانة البدو في سيناء

وكان قمييز يجهل الطريق الذي يجب أن يسلكه في سيناء ، فأطلعه (فانيس) الخائن على مسالك الصحراء ، وسهل له الاتصال بروؤساء البدو القاطنين بسيناء ، فوفروا له ولجيش الماء والمؤونة عبر الصحراء حتى وصل إلى أبواب مصر ، فكانت خيانة البدو من الأسباب التي سهلت لقمييز غزو البلاد .

وقبيل ابتداء الغزو مات (أمازيس) في أواخر سنة ٥٢٦ ق م ، وتولى العرش بعده ابنه (أبسماتيك الثالث) وقد علم قمييز بوقفة عدوه الجبار عند وصوله إلى بيلوز ، فعد ذلك فألاً حسناً له ، وتشاءم المصريون من وفاة أمازيس .

وكان اعتلاء أبسماتيك الثالث العرش في أشد الظروف خطراً ، إذ كان (أمازيس) ولا ريب أقدر منه على صدّ العدوان الفارسي ، وكانت له من خبرته وكفايته في القيادة وتفوقه على مواطنيه ما يجعل الأمل كبيراً في صدّ الزحف الفارسي ، وممرت البلاد بعد موته بفترة اضطراب في الأفكار ساعدت الفرس على الغزو .

سير الغزو

حشد قمييز جنوده في فلسطين ، وأرسل أسطولاً في عكا .

وزحف الجيش الفارسي من غزة والتقى بالجيش المصري في بيلوز (الفرما) سنة ٥٢٥ ق م . يعاونه أسطولاً من البحر .

ودارت معركة في بيلوز هُزم فيها الجيش المصري بقيادة أبسماتيك الثالث بعد مقاومة يسيرة ، إذ كان الجيش الفارسي أكثر منه عدداً وأشد قوة .

وهنا زعم بعض القصص الخرافية أن قمييز استعان على شل حركة المقاومة في بيلوز ، فأمر بأن توضع كلاب وقطط وحيوانات أخرى مقدسة على رأس القوة المهاجمة ، فامتنع المصريون عن استعمال أسلحتهم خوفاً على هذه الحيوانات . وهي رواية ظاهرة التلفيق ، ولو كان لها ظل من الحقيقة فلم لم يستعملها أعداء مصر على تعاقب القرون ؟

ولقد لقي الفرس مقاومة أخرى في (عين شمس) .

وارتد أبسماتيك الثالث إلى منف ليقاوم الغزاة ، فتعقبه قمييز ، وسقطت (منف) أمام هجوم الجيش الفارسي ، ووقع أبسماتيك الثالث أسيراً في يد قمييز .



الملك الشهيد

أبسماتيك الثالث

قلبه قمييز إذ لم يستسلم للغزو الفارسي

مقتل أبسماتيك الثالث

بعد أن وقع الملك الشاب أبسماتيك الثالث أسيراً في يد الفرس وعمل بقسوة ووحشية . وكان هذا الملك الشاب سيئ الحظ حقاً ، فإنه لم يكذب على العرن حتى فوجئ بالغزو الفارسي ، ولم يكن لديه الوقت الكافي ليعيد العدة لصدده .

ولما دخل قمبيز منف تعمد إذلال المصريين ، فأجلس أبسماتيك وكبار المصريين الذين أسره معاً عند مدخل المدينة للزراية بهم ، وألبس ابنته وبنات الكبراء ملابس الجوارى والإماء ، وأمرهن أن يحملن الجرار لإحضار الماء ويسرن أمامه . فشق هذا المنظر على أبسماتيك ، ولكنه تجلد وسكت ، ونظر إلى الأرض وأطرق . ثم أمر قمبيز بأن يمر أمام أبسماتيك صديق له في ثوب فقر وتسول ، فتأثر لمنظره وبكى ، فكان في بكائه على صديقه في محنته ، بعد جلده حين رأى ابنته في لباس الأرقاء ، أبلغ مثل على الوفاء والخلق الكريم .

أحمد شوقي يسجل هذا الحادث

في قصيدة له سنة ١٨٩٤

وقد سجل شاعر العروبة الخالد أحمد شوقي هذا الحادث ، ضمن قصيدة طويلة له عن « كبار الحوادث في وادي النيل » نظمها وقدمها إلى المؤتمر المشرقي الدولي الذي انعقد في سويسرا عام ١٨٩٤ ، قال عن الحادث وملابساته :

لا رعاك التاريخ يا يوم (قمبيز) ولا طنطنتك بك الأنبياء
دارت الدائرات فيك ونالت هذه الأمة اليد العسراء
فيمصر مما جنيت لمصر أي داء ما إن إليه دواء
نكد خالد وبؤس مقيم وشقاء يجذ منه شقاء
يوم (منفيس) والبلاد لكسرى والملوك المطاعة الأعداء
يأمر السيف في الرقاب وينهي ولمصر على القذى إغضاء
جىء بالمالك العزيز ذليلاً لم ترزلزل فزاده البأساء
يبصر الآل إذ يراح بهم في موقف الذل عنوة ويجاء
بنت فرعون في السلاسل تمشى أزعج الدهر عريها واخفاء
فكأن لم ينهض بهودجها الدهر ولا سار خلفها الأمراء

وأبوها العظيم ينظر لما رذيت مثلما تُرذَى الإماء
أعطيت جرة وقيل إليك النهير قومي كما تقوم النساء
فمشت تظهر الإبناء ونحى الدمع أن تسترقه الضراء
والأعداى شواخص وأبوا بيد الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعون وفرعون دمعه العنقاء
فأروه الصديق في ثوب فقر بسأل الجمع والسؤال بلاء
فيكى رحمة وما كان من يكي ولكنما أراد الوفاء
هكذا الملك والملوك وإن جا ر زمان وزوت بلواء

لا تسلى ما دولة الفرس ساءت دولة الفرس في البلاد وساءوا
أمة همها الخرائب تُبليها وحق الخرائب الإغلاء
وارتوى سيفها فعاجلها الله بسيف ما إن له إرواء

ولم يبق قمبيز على أبسماتيك وقتله ، إذ لم ير منه خضوعاً للغزو الفارسي ، فلم يطل حكمه أكثر من ستة أشهر . وبمقتله انتهت الأسرة السادسة والعشرون .

واغتصب قمبيز الملك في مصر ، وأسس أسرة أطلق عليها المؤرخون اسم الأسرة السابعة والعشرين ، وكانت تمثل الاحتلال البغيض ، فلا يصح إدراجها ضمن الأمرات المصرية .

هزيمة قمبيز في النوبة

أعد قمبيز جيشين ، خرجا من طيبة ، أحدهما قاده بنفسه - لاحتلال النوبة - ولكنه أصيب بهزيمة منكرة على أيدي حكام نباتا الذين ردوه على أعقابهم .

هزيمة قمبيز في الصحراء الغربية

أما الجيش الآخر فكان مصيره أسوأ من مصير الجيش الأول ، إذ سار من طيبة ، فوصل إلى الواحات الخارجة ، وهناك استراح من مشاق السفر ، وأخذ ما يلزمه من المنقوشة ، وسار يقصاً بأحثة (سيوة) ليستولى عليها ، ويهدم معبد آمون ، فهبت على الجند عاصفة عاتية من الرياح

أثارت عليهم الرمال ، فهلكوا في الصحراء ولم ينج منهم أحد ، ولم يذهب أحد منهم إلى سيوة ، ولا عاد أحد منهم إلى الواحات الخارجة .
ونصب قمبيز نفسه ملكاً على مصر (فرعوناً) .

انتحار قمبيز

لم يبق قمبيز طويلاً بعد إخفاقه في فتح النوبة وسيوة ، وعاد أدراجه إلى فارس ، فمات في الطريق سنة ٥٢٢ ق . م . وقيل إنه مات منتحراً إذ كانت تصيبه نوبات عصبية .
وقد عزى انتحاره إلى إخفاقه في حملته على النوبة وحملته الأخرى على واحة سيوة .
وخلفه ابنه (دارا) الأول .
وقد أراد (دارا) أن يستميل إليه المصريين ويخطف عنهم وطأة الهوان الذي لاقوه من الغزو ، فرفع عنهم بعض القيود ، وجاء إلى مصر زائراً سنة ٥١٨ ق . م . وأمر بتغيير سياسة أبيه قمبيز وقرر إصلاحات جزئية .

ولكن المصريين ظلوا على سخطهم على الاحتلال الأجنبي ، وأخذوا يعدون العدة لتحرر منه . هذا ، ولا ينفص الغزو الفارسي من مكانة المصريين ومبلغ حيوتهم .
فإن فارس كانت الدولة المتفوقة حربياً في ذلك العصر ، وكانت ولا ريب أقوى من مصر وقتئذ ، كما لم يطمع في حيوية الشعوب الأوروبية أن خضعت وقتاً ما للإمبراطورية الرومانية ، إذ كانت أقوى دولة في العالم .

والإمبراطورية الرومانية ذاتها على ما بلغت من قوة وسلطة قد استهدفت في القرن الخامس بعد الميلاد لغزوات أقوام من الهمج انقضوا عليها قهروها ودكوا معالمها ، ومزقوا أوصالها ، ومن بقاياها نشأت القوميات الأوروبية .

ثورات الشعب على الاحتلال الفارسي

لم يقبل الشعب المصري الاحتلال الفارسي ، وظل يكافحه ، وتتابعت ثوراته بين حين وآخر .

الثورة الأولى ضد الفرس

(سنة ٤٨٦ ق . م)

إن أول ثورة شبت ضد الاستعمار الفارسي كانت سنة ٤٨٦ ق . م . في عهد المالك دارا الأول ، فقد كان مشغولاً بإعداد المعدات للزحف بقواته البرية والبحرية على بلاد الإغريق (اليونان) .

وعُرفت هذه الحروب بالحروب الميدية ، وكان الملك دارا معتزماً بغزو اليونان ، واشتبك وإياهم في حرب طويلة المدى ، بدأت بمعركة (ماراتون) بالقرب من أثينا هزم فيها الفرس سنة ٤٩٠ ق . م .

وبعد هزيمة الفرس في معركة (ماراتون) اعترز دارا استئناف الغزو من جديد بجيش جرار ، ولكنه مات قبل أن ينفذ وعيده .

وفي خلال استعداده لاستئناف القتال سحب جزءاً من قوات الاحتلال في مصر ، ليستخدمها في المعركة القادمة ، على أنه في عهد دارا قامت في البلاد حركة وطنية للتحرر من الاستعمار الأجنبي ، فثار المصريون ، واشتبكوا بقوات الاحتلال المنبثة في أرجاء الوادي ، فكسروها .
ولما توفي دارا الأول سنة ٤٨٥ ق . م . خلفه على عرش فارس ابنه (أجزر كسيس) .
وزحف على مصر ليقمع الثورة فنصدي له أبنائها ، ولكن القوة غلبتهم على أمرهم وأخمدت ثورتهم . وبذلك انتهت الثورة الأولى بالإخفاق .

وكان اليهود في إفتين (جزيرة أسوان) وغيرها من المدن المصرية أعواناً للفرس ضد المصريين في كفاحهم .

وارتد الفرس عن بلاد الإغريق بعد هزيمتهم في معركة مضيق ترموبيل وفي معركة سلاميس البحرية وكتلنهما سنة ٤٨٠ ق . م .

وقتل أجزر كسيس سنة ٤٦٤ ق . م . بيد قائد حرسه .

وكان هذا العاهل مشهوراً بالخلاعة والإثم .

وخلفه (أرتا جزر كسيس) .

الثورة الثانية

وثار المصريون للمرة الثانية ضد الاستعمار الفارسي سنة ٤٦٠ ق . م . بقيادة الزعيم

(إيناروس Inaros) أحد أفراد أسرة بُسماتيك ، وقد لبى المواطنون دعوته وشاركوه في ثورته .

وبعد أن انتصروا على جيش الفرس ظفر بهم (أرتا جزر كسيس) وأعدم إيناروس سنة

٤٥٦ ق . م . وأخفقت الثورة الثانية .

وعادت مصر ترزح تحت نير الفرس من جديد .

الثورة الثالثة

جلاء الفرس للمرة الأولى

(سنة ٤٠٤ ق . م)

ومات (أرتا جزر كسيس) سنة ٤٢٤ ق . م . فخلفه على العرش (دار الثاني) .

نقطانب الأول ونقطانب الثاني

ومن تولوا الحكم في هذه الفترة (فترة الاستقلال) نقطانب الأول ، وقد تولى سنة ٣٨٠ ق م . ، وقضى في الحكم نحو ثمانية عشر عامًا ، وهو سمنودي المنبت .
ونجح في صد هجوم عنيف للفرس على مصر .
وقد وصلت مصر في عهد نقطانب الأول إلى مكانة ممتازة من الرقي والتمتع ، وتقدمت فيها لعمارة والفنون الجميلة .
وتراجعت مكانة الدولة الفارسية بعد الهزيمة التي حاقبت بها في مصر ، وانشق عنها بعض ولاياتها .

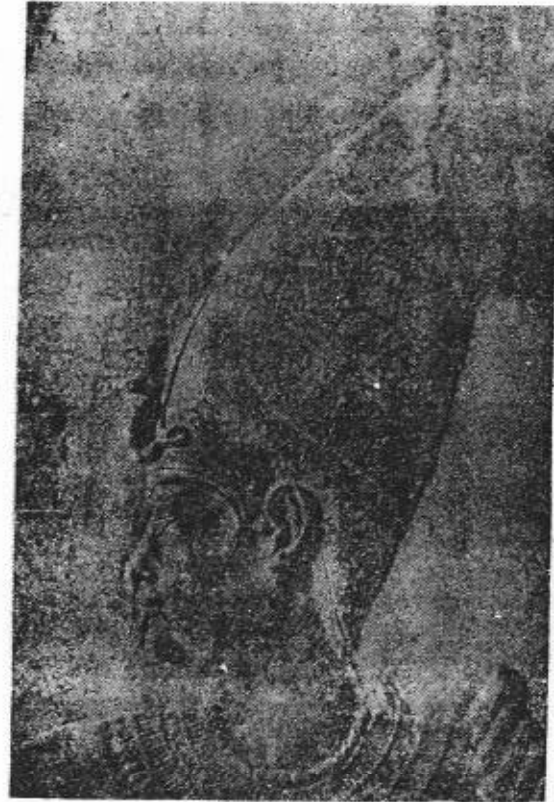
وقد ترك نقطانب الأول عمائر وآثارًا دلت على ثبات مركزه واستقرار نفوذه .
ففي معبد الكرنك أقام بولبة كبرى ارتفاعها تسعة عشر مترًا ، وقد أتم هذا البناء نقطانب الثاني وأقام مباني أخرى كثيرة في الوجه القبلي والوجه البحري .
وخلفه نقطانب الثاني ، وقد حكم أيضًا نحو ثمانية عشر عامًا .
وهو آخر فرعون وطني حكم مصر .

عودة الفرس إلى مصر ثم مجيء الإسكندر الأكبر (سنة ٣٤١ ق م)

وفي سنة ٣٤١ ق م . جرّد الفرس حملة جديدة على مصر ، وكان يتولى الحكم فيها نقطانب الثاني ، وهاجمت مصر برًا وبحرًا ، فهزمت الجيش المصري ، واحتلت البلاد ثانية بعد أن كان الفرس قد جلوا عنها ، وبعد أن استردت مصر استقلالها منذ أكثر من ستين عامًا ، ولم يدعن نقطانب الثاني للاحتلال الفارسي الجديد ، وارتد سنة ٣٤١ ق م . إلى النوبة تفاديًا مع الوقوع أسيرًا في يد الفرس ، ولم يُعرف ماذا كان مصيره .
وأسس الفرس أسرة جديدة غاصبية .

لم تدعن مصر للاحتلال الفارسي الجديد ، بل تجددت فيها الانتفاضات القومية .
إلى أن جاء الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٣ ق م . يحارب الفرس ، ويصادق المصريين .

وثارت مصر في وجه الفرس بقيادة البطل أمير تاوس (آمون حر) سنة ٤١٠ ق م .
واستمرت الثورة عدة سنوات .
انتصرت هذه الثورة ، وحررت البلاد من احتلال الفرس سنة ٤٠٤ ق م .
وبويع أمير تاوس (آمون حر) محرر البلاد من الاحتلال الفارسي ملكًا على مصر المستقلة سنة ٤٠٤ ق م . مؤسسًا الأسرة الثامنة والعشرين الذي كان ملكها الوحيد ، وحكم البلاد نحو ست سنوات .
ونعمت مصر باستقلالها نيفا وستين عامًا ، توارث العرش في خلالها الأسرات الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون ، وكلها مصرية .



نقطانب الثاني
آخر ملوك الفراعنة في مصر

ملحق للفصول السابقة
الأسرات الملكية في مصر القديمة
الدولة القديمة
الأسرة الأولى
(٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق م)^(١)

الملك مينا
عحا
جر
واجيت
وديمو
عزيب
سمرخت
قاع

الأسرة الثانية
(٣٠٠٠ - ٢٧٨٠ ق م)

حطب سخموى
رع نب
تريمو
سخم بب
يريب سن
سخم سخم
سخم سخموى

الأسرة الثالثة
(٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ ق م)

زوسر
سخم سخات

(١) اعتمدنا في هذه التواريخ على كتاب الدكتور أحمد فتحى (حصر القرعونية) ص ١٧ وما بعدها .

حبا
نفر كا
حونى

الأسرة الرابعة - بُناة الأهرام
(٢٦٨٠ - ٢٥٦٠ ق م)

سنفرو
خوفو
ددف رع
خفرع
منكاورع
شيسكاف

الأسرة الخامسة
(٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق م)

أوسر كاف
ساحو رع
نفرار كارع
شيسكا رع
نفر رع
نو سررع
منكو حور
دداكارع (أسيسى)
أوناس

الأسرة السادسة
(٢٤٢٠ - ٢٢٨٠ ق م)

تيتى
أوسر كارع
بيبي الأول
مرن رع

الدولة الوسطى
الأسرة الحادية عشرة كانت تنازع الأسرة العاشرة
(٢١٣٤ - ١٩٩١ ق م)

إنتف الأول
إنتف الثاني
إنتف الثالث
متوحتب الأول
متوحتب الثاني
متوحتب الثالث
متوحتب الرابع
متوحتب الخامس

الأسرة الثانية عشرة
أسرة أمنمحات
(١٩٩١ - ١٧٧٨ ق م)

أمنمحات الأول
سنوسرت الأول
أمنمحات الثاني
سنوسرت الثاني
سنوسرت الثالث
أمنمحات الثالث
أمنمحات الرابع
الملكة سبك نفرو

الأسرة الثالثة عشرة
(١٧٧٨ - ١٦٢٥ ق م)
نحو ستين ملكا ضعفت في عهدهم الجبهة الداخلية .

الأسرة الرابعة عشرة
(١٧٧٨ - ١٦٥٤ ق م)
بدأت في الوقت الذي بدأت فيه الأسرة الثالثة عشرة وزادت عليها .

بيبي الثاني
مرن رع الثاني
الملكة نيتو كريس

الأسرة السابعة
(٢٢٨٠ ق م)
سبعون ملكا حكموا سبعين يوما كما ذكر المؤرخ المصرى مانيتون

الأسرة الثامنة
(٢٢٨٠ - ٢٢٤٢ ق م)

نفر كارع الأصغر
نفر كارع
جد كارع ... إلخ إلخ .

الأسرة التاسعة
(٢٢٤٢ - ٢١٣٣ ق م)

أختوى الأول
نفر كارع
أختوى الثاني
ستوت
أختوى الثالث
...

الأسرة العاشرة
(٢١٣٣ - ٢٠٥٢ ق م)

مرى حتحور
نفر كارع
أختوى الرابع
مرى كارع
أختوى الخامس

الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة

من المكسوس . وتمتلان الاحتلال الأجنبي . ولا يصح اعتبارهما ضمن الأسرات المصرية .

الأسرة السابعة عشرة

(١٦٦٠ - ١٥٧٠ ق م)

استقل بالحكم فرع من ملوك طيبة في أواخر عهد المكسوس وبدأت حرب التحرير في عهد سقن رع

...

...

...

سقن رع
كاس

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة

(١٥٧٠ - ١٣٠٤ ق م)

أحمس الأول

أمنحوتب الأول

تحوتمس الأول

تحوتمس الثاني

الملكة حتشبسوت

تحوتمس الثالث ، أو الأكبر

أمنحوتب الثاني

تحوتمس الرابع

أمنحوتب الثالث

أخناتون (أمنحوتب الرابع)

سمنخ كارع

توت عنخ آمون

أي

حورحوب

الأسرة التاسعة عشرة

(١٣٠٤ - ١١٩٥ ق م)

رمسيس الأول

سيتي الأول

رمسيس الثاني ، أو الأكبر

منفتاح

آمون مس

منفتاح الثاني

سيتي الثاني

الملكة تاوسرت

الأسرة العشرون

(١١٩٥ - ١٠٨٠ ق م)

ست نخت

رمسيس الثالث

رمسيس الرابع

رمسيس الخامس

رمسيس السادس

رمسيس السابع

رمسيس الثامن

رمسيس التاسع

رمسيس العاشر

رمسيس الحادي عشر

الأسرة الحادية والعشرون

(١٠٨٠ - ٩٥٠ ق م)

سمندس

حريحور

بسونس

أمنابت

سيامون

بسونس الثاني
بسونس الثالث

الأسرة الثانية والعشرون
(٩٥٠ - ٧٣٠ ق م)

شيشنق الأول
أوسركون الأول
تاكيلوت الأول
أوسركون الثاني
شيشنق الثاني
تاكيلوت الثاني
شيشنق الثالث
بامى
شيشنق الرابع

الأسرة الثالثة والعشرون
(٨١٧ - ٧٣٠ ق م)

بادويست
أوسركون الثالث
تاكيلوت الثالث
أمون رود
أوسركون الرابع

الأسرة الرابعة والعشرون
(٧٣٠ - ٧١٥ ق م)

تفنخت
بوخوريس

الأسرة الخامسة والعشرون
(٧١٥ - ٦٦٣ ق م)

بعنخي
شيبكا

شيبكا
طهارفه

الأسرة السادسة والعشرون
(٦٦٣ - ٥٢٥ ق م)

أيسماتيك الأول
نيخاو الثاني
أيسماتيك الثاني
أيريس
أمازيس
أيسماتيك الثالث

الأسرة السابعة والعشرون
(٥٢٥ - ٤٠٤ ق م)

تُحذف لأنها تمثل الاحتلال الفارسي ، ولا يصح إدراجها ضمن الأسرات المصرية .

الأسرة الثامنة والعشرون
(٤٠٤ - ٣٩٨ ق م)

أمير تاوس (آمون حر) اعتلى العرش على أثر ثورة على الفرس .

الأسرة التاسعة والعشرون
(٣٩٨ - ٣٧٨ ق م)

نفرتس
أوكوريس
بساموتيس
نفرتس الثاني

الأسرة الثلاثون
(٣٧٨ - ٣٤١ ق م)

نقطانب الأول
ناخوس
نقطانب الثاني

الفصل الثاني عشر

الإسكندر الأكبر في مصر وجلاء الفرس عنها

(سنة ٣٣٢ ق م)

تمهيد

بلغ الصراع بين الفرس والإغريق (اليونانيين) مرحلة حاسمة حين تولى الإسكندر عرش مقدونيا وعمره عشرون سنة ، ودارا الثالث عرش فارس .

وكانت الدولة الفارسية قد اتسع ملكها ، فشمل آسيا الغربية ، وامتد من الهند إلى البحر المتوسط ، وكانت لها قوة بحرية ضخمة على شواطئ ذلك البحر ، ولها السيادة عليها ، وكانت سورية وفلسطين ضمن أملاكها .

فاعتزم الإسكندر قهر هذا العدو الجبار ، وأعد لذلك جيشا عير به بوغاز الدردنيل ، وكان يسمى هلسبونت Hellespont .

واشتبك بجيش الفرس عند نهر (جراتيق) Granique الذي يصب في بحر مرمره ، فظفر بهم ظفراً عظيماً سنة ٣٣٤ ق م .

وزحف بعد هذه الواقعة بجذء الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى ، ثم في قلب الأناضول .

حتى التقى بالفرس سنة ٣٣٣ ق م في (إيسوس) Issus الواقعة على الخليج المعروف الآن بخليج الإسكندرونه ، فانتصر عليهم انتصارا ساحقا ، وفر دارا الثالث منهزما إلى (بابل) .

لم يشأ الإسكندر أن يتعقب دارا بعد واقعة إيسوس .

وآثر أن يزحف أولا على البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ، لكي يخضعها ويسط سلطانه عليها ، ولا يتخذ منها الأسطول الفارسي قواعد له تتوق زحفه .

وكانت هذه الخطة المحكمة دليلاً على بعد نظره ونفاذ بصيرته في الحروب .

فزحف الإسكندر على نغور البحر المتوسط في فينيقية وسورية وفلسطين فاحتلها ، وخضعت له ، كما خضعت دمشق وبيت المقدس .

ثم احتل النغور دون مقاومة ، فيما عدا (صور) التي قاومت مقاومة شديدة ، فحاصرها وفتحها عنوة ، وكذلك قاومت غزة ، فحاصرها وأخضعها .

ثم وصل إلى مشارف مصر على رأس جيشه البالغ نحو أربعين ألف مقاتل يعاونه أسطوله الذي كان يسير على مقربة من الشاطئ .

وبلغ (بيلوز) « الفرما » . وكانت وقتئذ أول حدود مصر .

دخوله مصر

(سنة ٣٣٢ ق م)

وكان هزائم الفرس أمام زحفه قد أفقدتهم القوة على صدّه ، فدخل مصر في خريف سنة ٣٣٢ ق م .

ووصل دون قتال إلى (منف) عاصمة مصر وقتئذ .

ولم يجد الوالي الفارسي الذي كان يحكم مصر مفرا من التسليم إذا رأى أن مقاومة الإسكندر لا تجدى .

وقد ابتهج المصريون لهزيمة الفرس ، ورأوا في الإسكندر بادئ الأمر منقادا لهم من الاحتلال الفارسي ، ولم يكونوا لينسوا أن الفرس قد انتزعوا عرش مصر من آخر ملوك الفراعنة ، وأقاموا حكما أجنبيا بغيضا امتهن كرامة بلادهم ، مما حفزهم إلى الثورة عليه ثلاث مرات .

احترم الإسكندر ديانة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم .

ولم يكتف بذلك ، بل توج نفسه تنويجا فرعونياً في معبد (بتاح) بمدينة (منف) ، وقلد الفراعنة الأقدمين فيما كانوا يفعلون عند اعتلائهم عرش مصر .

وإذ كان المصريون يرمزون بالكبش المقدس إلى الإله آمون ، فقد أمر الإسكندر أن تبرز في صورته قرنا (آمون) من قمة رأسه .

ولعل هذا التصوير هو الذي جعل بعض مؤرخي العرب يسمونه الإسكندر ذي القرنين .

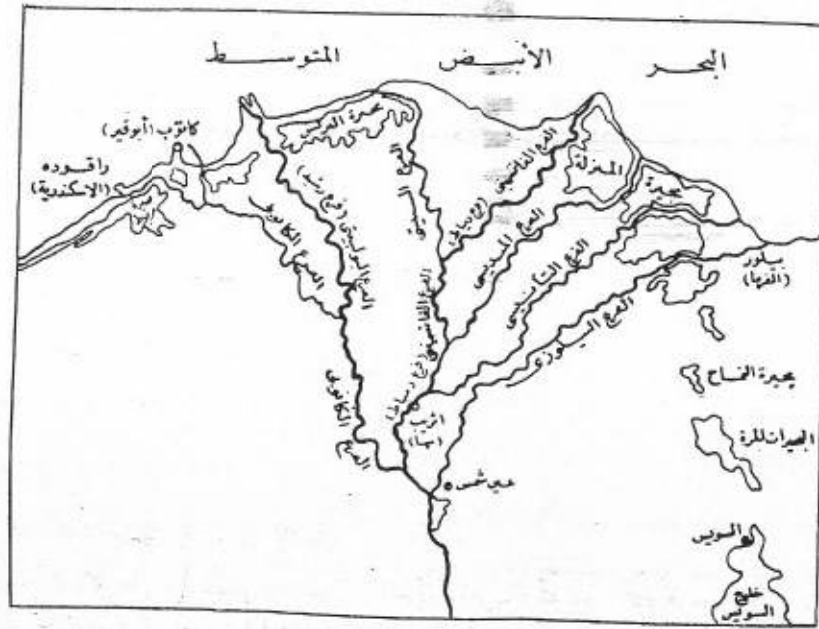
الاستقلال الداخلي لمصر

واجتذب إليه قلوب المصريين من الناحية السياسية بأن قرّر لمصر الاستقلال الداخلي (الحكم الذاتي) .

واختار حاكمين لمصر ، أحدهما مصري ، والثاني أناضولى أو فارسي ، ومنح كليهما السلطة الكاملة في إدارة منطقتهم .

على أن الحاكم الأخير لم يلبث أن استقال ، أما الحاكم المصري فلم تزد سلطته على سلطة وزير داخلية .

وعهد بالشئون المالية إلى حاكم « يوناني » .



فروع النيل القديمة السبعة بالدلتا

- | | |
|--------------------|---------------------------------|
| ١ - الفرع اليلورى | ٢ - الفرع الثانى |
| ٣ - الفرع المديسى | ٤ - الفرع الفاتمى (فرع دمياط) |
| ٥ - الفرع السبى | ٦ - الفرع البولبى (فرع رشيد) |
| ٧ - الفرع الكانوبى | |
- ويبدأ الفرع الكانوبى من رأس الدلتا ويسير إلى قرية زاوية البحر (بمركز كوم حمادة الآن) ويتجه إلى الشمال الغربى حتى يصب فى خليج (أبو قير) . وكانت (أبو قير) تسمى (كانوب)

وعين الإسكندر قوادًا على الجانب من المقدونيين .

وعامل المصريين بوجه عام معاملة كريمة ولم يعاملهم معاملة المهزومين ، لأنه إنما انتصر على الفرس ، واحترم المصريين لعراقتهم وحضارتهم وماضيهم للمجد .

ولم تستن النيات النهائية للإسكندر أثناء مقامه فى مصر ، ولم يتسع الوقت ليدرك المصريون حقيقة مقاصده .

وإنما رأوه يحطم دولة الفرس الذين ساموا المصريين الخسف والاضطهاد أثناء احتلالهم المقوت للبلاد .

فلا غرو أن فرحوا لمجيء الإسكندر ، كما فرح الفرنسيون لاحتلال الأمريكان وحلفائهم فرنسا سنة ١٩٤٥ فى الحرب العالمية الثانية ، إذ كان فى هذا الاحتلال المؤقت سحق لأعدائهم (الألمان) وتحرير لفرنسا من نيرهم .

تأسيس الإسكندرية (سنة ٣٣٢ ق م)

يعتبر تأسيس الإسكندرية أخلد عمل للإسكندر فى مصر .

فقد رأى أن يؤسس مدينة جديدة للشمال الغربى للدلتا يجعلها عاصمة للبلاد ، وتكون أقرب إلى مقدونيا ، وأخذ يرود الشواطئ الشمالية ليختار الموقع الجدير بهذه الغاية ، وكان يصاحبه فى اختياره مهندس المدعو دينوقراطس Diocrates .

وكان يبحث عن موقع على شاطئ البحر المتوسط بعيد عن مصب الفرع الكانوبى^(١) ليكون بمنأى عن رواسب الطمي التى يلتقى بها النيل فى البحر ، وقد تعيق الملاحة .

وأعجبه الشاطئ الممتد من البحر شمالاً إلى بحيرة مريوط جنوباً .

فاختار قرية كانت تدعى (راقودة) على شاطئ البحر المتوسط ، وكانت لا تزيد على ميناء صغير للصيادين ، تجاورها جزيرة مقفرة كان الصيادون يأوون إليها أيضاً تدعى جزيرة « فاروس » (رأس التين الآن) .

وكان ملوك مصر الأقدمون قد أقاموا فى هذه القرية نقطة عسكرية لصد من تحدته نفسه من الأجانب عن دخول البلاد أو التسلل إليها .

فأسس فيها سنة ٣٣٢ ق م العاصمة الجديدة ، وسماها باسمه (الإسكندرية) . ثم أمر بإنشاء جسر بين موقع راقودة والجزيرة المذكورة ، ليكون للمدينة الجديدة ميناءان : الميناء الشرقى . والميناء الغربى ، يتصلان بواسطة ممرين فى طرفى الجسر الموصل لجزيرة فاروس بالشاطئ .

(١) من فروع النيل القديمة (انظر الخريطة ص ١٩٤) .

زيارة الإسكندر لواحة سيوة

وبعد أن وضع تخطيط مدينة الإسكندرية ، اتجه إلى المكان المعروف الآن بمرسى مطروح .
ومن هناك قصد واحة (سيوة) حيث كان بها معبد آمون ، ووصل إليها بعد مسيرة اثني عشر يوماً .

وزار المعبد ، ورحب كبير الكهنة بمقدمه ، ومنحه لقب (ابن آمون) .

وقد أراد الإسكندر بهذه الزيارة أن يثبت للرأى العام العالمى نسبه للآلهة ، وتأييد إله سيوه لمشروعاته المقبلة ، وقد كان هذا الإله يتمتع بين الإغريق بمكانة سامية .

وذهب بعد الزيارة إلى (منف) .

ولم يكن معروفاً على وجه التحقيق مقاصد الإسكندر من فتوحاته ، ولا من مجيئه إلى مصر كما سلف القول ، ولكن تاريخه يدل على أنه لم يقصد قهر الفرس فحسب ، بل كان يتطلع إلى أن يكون سيد العالم ، وكان يطمح فى أن يؤلف بين الشرق والغرب ، ويجعل منهما مجموعة يكون هو رئيسها الأعلى .

لقد كانت سياسته أقرب إلى الإنسانية .

ومن الدلائل على مقاصده فى التقريب بين الشرق والغرب ، أنه تزوج أثناء فتوحاته الآسيوية من فارسية تدعى (روكسانا) ابنة والى باكتريا Backtria (بلخ) ، ورغب إلى بعض قواده أن يتزوجوا مثله بسيدات شرقيات .

وبعد أن قضى فى مصر نحو ستة أشهر ، غادرها فى ربيع سنة ٣٣١ ق . م . ليتم فتوحاته .

فاخترق فلسطين فسورية مرة أخرى ، وسار منها إلى بلاد الرافدين (دجلة والفرات) ، وتعقب (دارا الثالث) ، فهزمه فى واقعة (أربل) Arbēles فى أكتوبر سنة ٣٣١ ق . م . وفر دارا مهزوماً .

ودك الإسكندر مملكة فارس ، واستولى عليها وأسس على أنقاضها إمبراطورية وصلت إلى شواطئ الهند ، وامتدت من مقدونيا إلى الهند .

ولما عاد إلى (بابل) مرضى بالحمى ومات سنة ٣٢٣ ق . م . قبل أن يتم الثالثة والثلاثين من العمر .

لم تتبين مقاصد الإسكندر نحو مصر كما أسلفنا ، على أنه وهو فى آسيا قد أصدر أمره بإقضاء الحاكمين اللذين عينهما وهو فى مصر ، وأبدل بهما حاكماً مقدونيا واحداً^(١) .

الفضل الثالث عشر

البطالة فى مصر وثورات الشعب عليهم

(٣٢٣ - ٣٠ ق . م)

بعد وفاة الإسكندر فى (بابل) ، اجتمع بها قواد جيشه للبحث فى مصير الإمبراطورية بعد وفاة عاهلها العظيم ، وخاصة لأن الإسكندرية لم يترك وصية ، ولا رشح أحداً خلفاً له ، ولا نظم طريقة للحكم من بعده ، ولم يكن له وريث فى الملك .

حقاً إن زوجته الفارسية (روكسانا) كانت حاملاً حين وفاته .

ولكنها كانت سيدة « شرقية » ، وكان فريق من المقدونيين ينكرون على طفلها حق اعتلاء عرشه ، ويطالبون بالمنادة بأخ الإسكندر غير الشقيق (ارهيدايس) ملكاً ، واستقر الرأى أخيراً على المنادة بأرهيدايس ملكاً عليهم تحت الوصاية مع الاحتفاظ بحق جنين روكسانا فى الملك إذ كان ذكراً باعتباره شريكاً فى الملك تحت الوصاية .

وبعد الفراغ من مشكلة ولاية العرش قسمت ولايات إمبراطورية الإسكندر بين قواده ليحكموها باسم التاج المقدونى .

فكانت مصر من نصيب بطليموس Ptolemée بن لاجوس Lagos وهو من أشهر قواد الإسكندر ، وقد اختارها لنفسه .

وقسمت باقى البلاد الأخرى بين قواد الإسكندر .

وحضر بطليموس إلى مصر فى خريف سنة ٣٢٣ ق . م^(١) ، باعتباره والياً عليها ، وحكم البلاد حكماً مطلقاً .

وأفضت أطماع قواد الإسكندر إلى حروب شعواء قطعت أوصال الإمبراطورية وقامت على أنقاضها ثلاث ممالك مستقلة كانت أعظمها واقواها دولة البطالة فى مصر .

ففى سنة ٣٠٥ ق . م نادى بطليموس بنفسه ملكاً على مصر .

وجعل الملك وراثياً فى ذريته ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالبطالة ، لأنهم جميعاً تسموا باسمه . فالبطالة إذن هم أسرة أجنبية ، قضت المصادفات التعسة أن يؤسسوا لهم ملكاً فى مصر ، إحدى الدول التى فتحها الإسكندر الأكبر .

وقد اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، ولا غرو فهى المدينة التى أسسها الإسكندر ، وكانت

(١) بير جوجيه - مصر البطلمية المرجع السابق ص ١٠ .

(١) بير جوجيه Pierre Jouguet مصر البطلمية (ص ٦) .

جثمانه مؤقتاً في (منف) ، ثم نقل منها إلى الإسكندرية بعد أن أتم بطليموس تشييد ضريح فخم للإسكندر في ساحة (السوما)^(١) ، (انظر موقعها على الخريطة ص ١٩٨) .

وأصبح بذلك على نفسه مجدداً ، يؤهده لخلافة الفاتح العظيم ، ويجعله أقرب الناس إليه . وهذا الضريح قد عفت عليه القرون ونفى حتى الآن (١٩٦٢) عن أعين العلماء والأثريين ، ولا يعرف ماذا كان مصيره .

على أنه من الثابت أن يد التخريب قد امتدت إلى القبر في عهد البطالمة أنفسهم ، فقد ذكر (بيغان) Bevan أن بطليموس العاشر ، قد سطا على تابوت الإسكندر ، وكان مصنوعاً من الذهب الخالص ، واستبدل بالذهب زجاجاً ، وكانت دعواه في هذا العمل المنكر أنه في حاجة إلى الذهب لسد نفقات جنوده فاستاء الإسكندريون هذا العمل المزرى^(٢) .

وقد أله بطليموس الأول بعد وفاته ، ووضع سنة تأليه ملوك مصر ، وعند وفاته اتبع ابنه رغبة أبيه ، فأله باسم (سوتر) أى المنقذ ، ثم لم يلبث أن آله نفسه وزوجته في حياتهما باسم الإلهين أدلفوس أى الإلهين الأخوين ، ومنذ ذلك الحين أصبح كل بطليموس يرتقى العرش يؤله نفسه وزوجته في حياتهما ، ويحتفظان بألوهيتهما (الباطلة) بعد مماتهما .

وأتم بطليموس الأول إنشاء مدينة الإسكندرية كما خططها الإسكندر ، وتم تشييدها في عهده وفي عهد خلفه بطليموس الثاني .

وصارت من أعظم مدن العالم موقماً ومكانة ، وكانت (ولا تزال) تتملك إعجاب أهلها والسائحين والقاصدين إليها بمناظرها البديعة ، وطول شواطئها على البحر المتوسط ، واتساع رقعتها ، واستقامة شوارعها المتقاطعة في زوايا قائمة ، وما فيها من المعاهد والنوادي والملاعب والمنشآت .

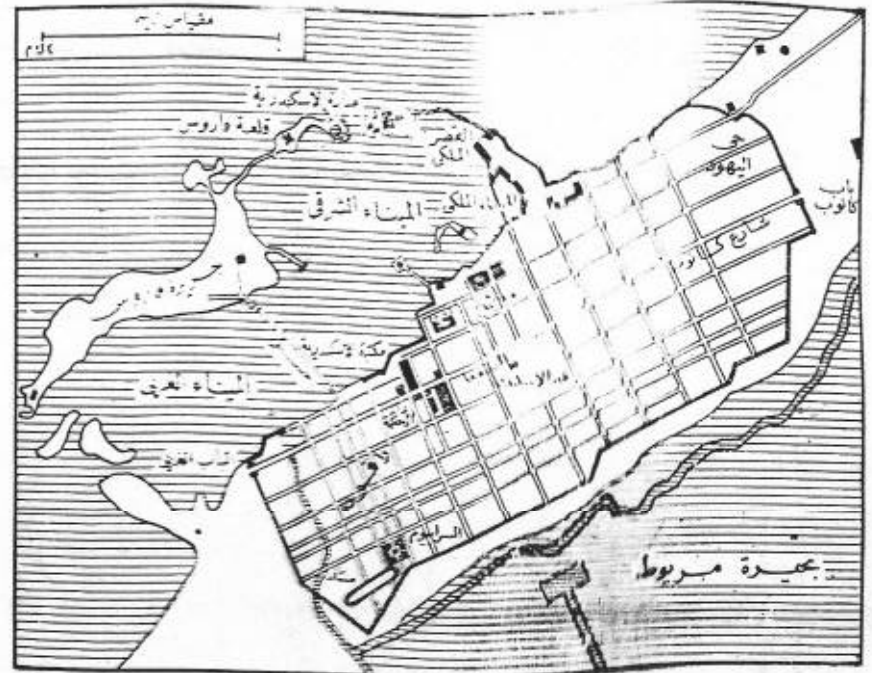
وأشأ جيشاً واسطولاً عزز بهما القوة الحربية التي تركها الإسكندر في مصر ، واتخذ منهما سنداً أو وسيلة لإخضاع مصر لأطماعه الاستعمارية وتحقيق أغراضه في البلدان المجاورة .

منارة الإسكندرية

وأقام على صخرة شرقى جزيرة فاروس (المنارة) التي اشتهرت بمنارة الإسكندرية العظيمة (مكانها الآن قلعة قايتباي) ، وهي التي اعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة . وقد أكملها ابنه بطليموس الثاني .

(١) وقد يكون السبب في نقله إلى الإسكندرية أن بطليموس الأول اعترم اتخاذها عاصمة للبلاد بدلاً من (منف) ليكون بُعد عن الشعب المصري وأقرب إلى بلاده (مقدونيا) .

(٢) بيغان Bevan تاريخ اللاجديين (البطالمة) Histoire des Lagides ص ٣٧٤ وإبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ١ ، ٢٣٣ .



بموقعها على البحر المتوسط أقرب إلى بلادهم (مقدونيا) . ويُعد عن حمل لاقتضاض عليهم من المصريين فيما لو انحدوا عاصمتهم في (منف) .

فهم من هذه الناحية قد قلدوا المكسوس (الرعة) إذ تخضع (ثويريس) القرية من حدود مصر الشرقية عاصمة لهم كما أسلفنا (ص ٧٣) .

وبطليموس الأول هو مؤسس دولة البطالمة في مصر . وقد كان ولا ريب محاربا قويا ، حنكة الحرب ، وسيئاً حيفاً يوسع الأفق بعيد المطامع وحسبك أنه من غواد الإسكندر وزميله في فتوحه العظيمة .

وقد أمكنه أن يؤسس نفسه ونسله دولة عنت تحكم مصر بحكمة قوية من سنة ٣٢٣ ق . م ، إلى أن انهيارها في واقعة (اكتيوم) البحرية سنة ٣٠٠ ق . م ، التي انتهت حكم البطالمة واستولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق . م .

نقل جثمان الإسكندر إلى مصر

وكان أول عمل بطليموس الأول بيوحه مركبة بحرية بحرا إلى مصر . ثم نقل رفاته من جزيرة كورنثوس عبر بلاد تينس حتى وصل إلى مصر ، ودفن

وأُنشأ مدينة سماها بطلمية Ptolemais حيث تقوم اليوم بلدة (المنشية) بمحافظة سوهاج ،
واتجه نشاطه إلى تعميرها لتنافس طيبة عاصمة العالم المتمدن في مصر الفرعونية .
ولم يكن بطليموس على أخلاق قديمة ، فقد كانت له محظيات كثيرات^(١) .
ومن عشيقاته (برنيكي) Berenike التي كانت متزوجة من قبل ، وأحبها وتزوجها هو على
زوجة أخرى له ، وهي يورديكي Eurydike .

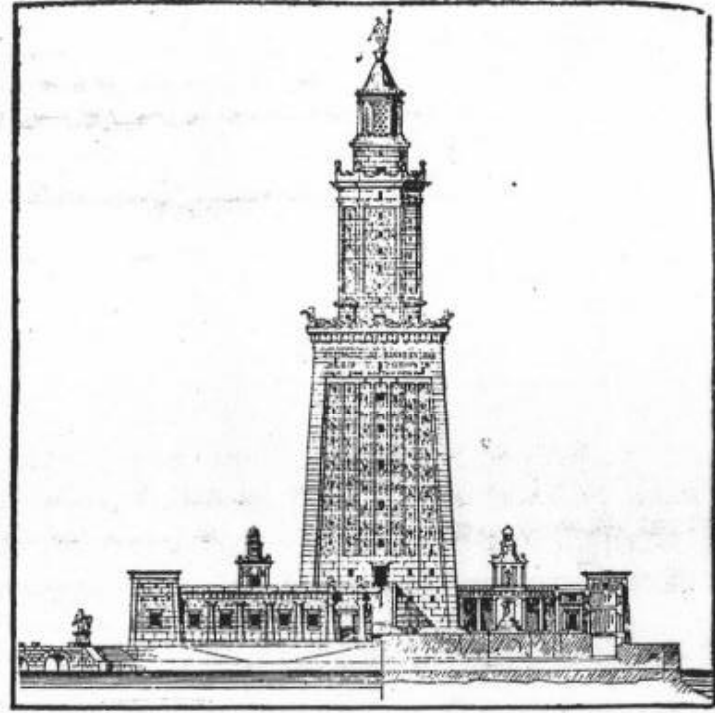
وأُنجبت له بطليموس الثاني .
فبرنيكي هي الجدة العليا لأسرى البطانة^(٢) .
وقبل إن بطليموس الثاني ليس ابنا شرعيا لبطليموس الأول .
وتوفى بطليموس الأول عام ٢٨٣ ق . م .
وخلفه على الملك بطالمة عديدون تعاقبوا على عرش مصر .
ولم يعرف عنهم في الجملة سوى أنهم أهل خلاعة ومجون ، وفساد في الأخلاق والسير .
فبطليموس الثاني (فيلادلف) Philadeiph كان منغمساً في الملذات . وكان له عشيقات
عديدات من جميع الطبقات . وكان يثرن الدهشة في العالم بإغراقهم في البذخ والشهوات^(٣) .
وكان إلى جانب ذلك مستبدًا طاغيًا ، وكان لزوجاه بأخته (أرسينوى) Arsinoë (وكان
زواج الأخ بأخته ممنوعًا في شريعة الإغريق) أثر كبير في سياسته ، إذ كانت لها السيطرة التامة
عليه ، وكانت امرأة لا تتورع عن ارتكاب الجرائم ومنها القتل والاختيال لكي تنفرد بالسلطة
وتستأثر بها^(٤) .

وبطليموس هذا هو الذي عهد إلى المؤرخ المصري (مانيون) أن يضع كتابًا باللغة اليونانية
عن تاريخ مصر القديمة ، ففعل ، ولكن الكتاب أحرق ضمن مكتبة الإسكندرية سنة ٤٨ ق
م . ولم يبق منه إلا شذرات نقلها بعض المؤرخين .

وبطليموس الثالث (ايفرجيت) Euergete هو ابن بطليموس الثاني ، وقد تولى العرش سنة
٢٤٦ ق . م .

وبعد وفاة بطليموس الثالث آل العرش إلى ابنه بطليموس الرابع ، وكان شابًا عابثًا في الثانية
والعشرين من عمره ، شغفًا بالمجون .

- (١) إبراهيم نصحي - تاريخ مصر في عصر البطانة ج ١ ص ٥٣ .
- (٢) بيرجوجيه - مصر البطلمية ص ١٠ المرجع السابق .
- (٣) بيرجوجيه - مصر البطلمية ص ٤٧ المرجع السابق .
- (٤) بيرجوجيه - مصر البطلمية ص ٤٨ المرجع السابق .



منارة الإسكندرية القديمة
أقامها بطليموس الأول وأكملها ابنه بطليموس الثاني

وزدهرت التجارة الخارجية في عهد البطالمة الأول ، وصارت الإسكندرية ملتقى القادمين
من لغارات الثلاث .

وبنى مدرسة الإسكندرية الجامعة (دار الحكمة) ، وكانت تعرف عندهم بالموزيون (موثل
بيت الشعر والفن) .

وفد جمع فيها العلوم المعروفة في ذلك العصر من رياضيات وفلسفة وطب وآداب وطبيعة
سحرية . فملك وجلب إليها طائفة من علماء الإغريق (اليونانيين) .

وكانت الدراسة فيها باليونانية .
وأنشأ بهذه الجامعة المكتبة الشهيرة التي عرفت بمكتبة الإسكندرية وأنتم ابنه بطليموس الثاني
بترتيبها وتنظيمها .

وقد اصطفى من أجله رفاقاً من حثالة الإسكندرية أطلق الإسكندريون عليهم اسم (إخوان الأنس)

وكان عبداً طبعاً لعشيقته المفضلة أجاتوكليا Agateoclea التي قلبت الدولة كلها رأساً على عقب ، ولم تقنع هي وأسرتها بالسيطرة على الملك ، بل تغلغل نفوذها في الدولة إلى حد طغى على نفوذه^(١) .

ويقول (هارولد بل) عن بطليموس الرابع إنه كان غرا فاجرا مهتكا ، وكان ذليلاً مستضعفاً^(٢) .

وتعاقب البطالمة على العرش ، وكانت غالبيتهم أهل مجون واستهتار بالأخلاق والفضائل الشخصية والسياسية ، وكانت قصورهم مباءة لأحط أنواع الفساد والرذائل . وظلوا كذلك حتى انقرض حكمهم بانتحار كليوبترا آخر ملوكهم سنة ٣٠ ق . م .

سياسة البطالمة في مصر

حكم البطالمة على الرغم من إرادة أهلها ، ولم تكن لهم صلة بها ، اللهم إلا في أن بطليموس الأول كان كما أسلفنا أحد زملاء الإسكندر في الحروب ، هذا إلى أنهم اتخذوا سمات الفراعنة ليتمتعوا بما كان للفراعنة من سيطرة مطلقة على البلاد .

ولقد سار البطالمة في الملك الذي آل إليهم سيرة تختلف عن سيرة الفراعنة ، وسيرة الإسكندر وسياسته ، فلم يجرموا حتى الاستقلال الداخلي الذي لقره الإسكندر في مصر .

التفرقة العنصرية

وإن ما شهدته المصريون منهم ، قد دل على مقاصدهم من البقاء فيها كانت ولا ريب مقاصد استعمارية بغضه ، وكانوا يتبعون في مصر سياسة التفرقة العنصرية .

فقد أخذت هجرة المقدونيين واليونانيين إلى مصر تتفاقم في عهدهم ، إذ رأوهم يؤلفون دولة يونانية ويحتلون بنى جلدتهم إلى مصر ، ويرغبونهم في البقاء فيها بمختلف الوسائل والامتيازات .

وبدأت هجرة هؤلاء المستعمرين إلى مصر في عهد بطليموس الأول ، واستمرت في عهد خلفائه من بعده .

(١) بيرجوجيه - المرجع السابق ص ٦١

(٢) هارولد بل Harold Bell الهلينية في مصر ص ٨٢ . تعريب الأستاذ زكي على .

أراد البطالمة أن يجعلوا من مصر دولة مقدونية لا مصرية ، وأن يتخذوها مستعمرة لهم فيكونون أهم ملوكها وحكامها المستعمرين .

ولم تكن لهم يد على مصر حتى يؤول إليهم حكمها بإرادة أهلها ، ولا علاقة لهم بها من قبل ، ولا ضم أسرة معروفة فيها ، فإن تسميتهم بالبطالمة راجع إلى أن أول ملك منهم كان اسمه بطليموس بن لاجوس .

وحتى لو كانت مصر قد أفادت من الإسكندر إذ حررها من حكم الفرس ، فلم تكن لترضى أن يكون هو ملكاً عليها بدلا من الفرس .

فمن باب أولى لم يكن لبطليموس هذا أى يد عليها ، بل كان اعتلاؤه عرشها اغتصاباً منه . وقد اتسم حكمه ، وحكم خلفائه من بعده بطابع الغضب والقهر ، وبخاصة لأنهم نظروا إلى مصر كأنها مستعمرة مقدونية ولم ينسوا يوماً صفتهم اليونانية .

واستمرت اللغة اليونانية لغتهم ، وقد جعلوها اللغة الرسمية للدولة ، وكانوا يجهلون اللغة المصرية ، ولم يحاولوا قط أن يتعلموها ، ولم يتعلمها (العامة منها) سوى (كليوبترا) آخر البطالمة .

ولم يعترفوا باللغة المصرية في مخاطباتهم أو في مراسلات الحكومة . وعلى الرغم من طول المدة التي حكموها فيها مصر والتي بلغت ثلاثة قرون ، فإنهم لم يتركوا لغتهم ولم يتعاملوا بغيرها ، وظلوا مقدونيين يونانيين طوال هذه القرون .

واستأثر الإغريق بالمناصب الرفيعة في الدواوين وفي القصر الملكة ، ولم يكن نصيب المصريين سوى الوظائف الصغيرة فحسب .

واستعلى البطالمة على المصريين عامة ، واتخذوا من اليهود عملاء لهم وأولياء ، وأغدقوا عليهم المزايا ليضمنوا بقاءهم إلى جانبهم ، وليفسدوا بهم القومية المصرية .

وظل البطالمة يونانيين في تفكيرهم وشعورهم ولغتهم وفي كل مظاهر حياتهم . فالمصريون في عهد البطالمة قد فقدوا استقلالهم ، وأسس إليهم في حياتهم الاقتصادية والشخصية .

وعاملهم المقدونيون واليونانيون من أول عهد بطليموس الأول معاملة شعب مغلوب على أمره ، بينما عالموا بنى جنسهم معاملة السادة ، فكان هذا ولا ريب ضروب الاستعمار .

واعتمد البطالمة على المقدونيين واليونانيين في حكم البلاد ، وفي تنظيم قوة الدفاع عنها ، وحكموا البلاد باعتبارهم أجانب عنها ، وفتحوا لليونانيين والمقدونيين أبواب الوادى ، ودعوهم لإقامة فيه ، وأجزلوا لهم العطايا والمنح والمزايا ، كل ذلك على حساب الوطنيين .

وبلغ تعصب البطالمة لجنسهم وكرهيتهم للمصريين أن حظر بطليموس الثاني (فيلا دلف)

على انصرين الوافدين على الإسكندرية أن يطيلوا إقامتهم فيها^(١) ، ولما زال هذا الخطر ، تألفت من المصريين بالإسكندرية طبقة من الصناع والعمال وبعض الجنود ، وكانوا يعتبرون عصرًا أجنبيًا عن المدينة ، ولم يندمجوا في هيئة المواطنين^(٢) .

وأنشأ البطالة جيشًا معظمه من المقدونيين واليونانيين . ولم يجندوا فيه المصريين خوفًا من أن تستثيرهم الروح الحربية ، وتخفروهم إلى المطالبة بحقوقهم واستقلالهم ، وكانت لهم فيه الأعمال الثانوية فقط ، كالنقل والتموين ، وكان البطالة يستقدمون الجيوش المرتزقة من مقدونيا واليونان ، ويفرونهم بالاقطاعات الزراعية يمنحونهم إياها ترغيبًا لهم في البقاء في مصر .

واستزفوا ثروة البلاد في سبيل إشباع أطماعهم وأطعام بنى جديدهم . وقصروا أعمال السخرة في المنافع العامة على المصريين دون المقدونيين واليونانيين ، مع أن مزايا هذه السخرة قد استأثر بها هؤلاء الأجانب المستعمرون .

وزادت أعباء الضرائب على عاتق الأهلين بسبب إسراف البطالة في نفقاتهم وأهوائهم ، وكثرة الحملات البرية والبحرية التي شنوها على جيранهم دون أن يعود منها أى فائدة لمصر ، واستمروا في سياسة اضطهاد المصريين .

لجأ المصريون في مقاومة هذا الاضطهاد منذ الساعة الأولى إلى المقاومة السلبية ، أى الإضراب عن العمل . واشترك في هذا الإضراب الفلاح في المزارع ، والعامل في المصانع وفي المناجم والمهاجر ، وكانت الحكومة تقابل هذا الإضراب بالقمع والاضطهاد .

فلجئوا إلى سياسة جديدة في المقاومة ، وهى هجر المزارع والمصانع ، والاختفاء في الصحارى والمعابد .

وضعت أسس السياسة الاستعمارية في عهد بطليموس الأول ، وسار على نهجه خلفاؤه ، وصارت أداة الحكم أجنبية ، وعومل المصريون بالزراية والاضطهاد .

ولم يندمج المصريون في المقدونيين واليونانيين ، ولم يستطع البطالة أن يدمجهم في جنسهم . ولكن جنح بعض المصريين إلى مصانعة البطالة لكي يأمنوا على أنفسهم وينالوا عطف الغاصبين ، فإن جمهرة الشعب قد بقيت بمنأى عن مصانعة الغرباء المستعمرين .

وسن البطالة من النظم والقوانين ما جعل المصريين وخاصة الفلاحين مضطهدين مسلوبة حقوقهم ، متقلبن بالضرائب والالتزامات ، وظهر البطالة على حقيقتهم ، وهى أنهم غزاة غاصبون ، ومستعمرون مستبدون .

يقول (بيرجوجيه) إن البطالة احتكروا موارد البلاد الاقتصادية ، وانحصرت القوة

الاقتصادية في يد الملك على حساب الكهنة وعلى أساس استبعاد الطبقة العامة من الأهلين^(١) .

كان الملك البطلمي يعتبر نفسه مالكا لجميع الأراضى ، وكان النظام الاقتصادى المتبع هو الاستبداد الاقتصادى^(٢) .

وكان الاحتكار الملكى ، علاوة على الأراضى ، يشمل للمناجم والمهاجر والملح والنظرون والجمعة والشبنة والزيت ومصائد الأسماك وديع الجلود والورق والبخور ، والروائح والحمامات والمصارف (والبنوك) ومنسوجات التيل والصوف والقنب ، وبالنسبة للمصرى لم تكن له أية حرية اقتصادية .

وكان الملك البطلمي يعتبر مصر ضيعة له ، ووزير ماليته مدير الضيعة .

وحرص البطالة على أن يصيغوا هذه الفكرة في عبارات واضحة ، وأن يثبوا فيها القوة نتيجة اتفاق زعموا أنه عقد بين آلهة مصر ومؤسس أسرة البطالة ، فإن نقشا هيروغليفيا على جدران معبد (ادفو) ، يروى كيف أن الأراضى المنزرعة في كل أنحاء مصر من إلفتين (أسوان) حتى البحر ، قد أهداها إله حوروس إلى ابنه الملك حوروس الحى (بطليموس) ، ومعها وثائق الملكية وسجل وصفى للممتلكات وعقود الاستيلاء عليها ، وقد خطها جميعًا بيده إله توت المسجل السماوى^(٣) .

واحتكر المقدونيون واليونانيون المناصب الممتازة في الريف والحضر . ولا غرو فالأسرة المالكة الأجنبية في بلاد يحكمها جهاز من الموظفين لا تشعر بالاستقرار والطمأنينة إلا إذا استندت إلى مجموعة من الموظفين الأجانب^(٤) .

يقول (هارولد بل) Harold I. Bell في هذا الصدد : « إن المصريين الذين رحبوا بالأمس بمقدم الإسكندر واعتبروه مخلصًا لهم ، كان لهم بعض العذر فيما خامرهم من شعور ، بأنهم في عهد البطالة إنما كانوا يعاملون في الواقع على أساس أنهم شعب ذليل مقهور ، وكان شعورهم بتلك المذلة والمنزلة الدنيا قد تأكد لديهم بما كانوا عليه من عدم المساواة من الناحيتين : الاجتماعية والاقتصادية ، وكان بعض الكهنة من ذوى المراتب السامية ، ونفر قليل من أفراد المصريين الذين تولوا وظائف هامة في السلك الإدارى ، يؤلفون نوعًا من الأرستقراطية الوطنية ، ولكن الغالبية العظمى من المصريين كانوا ينتمون إلى طبقة منزلتها في المجتمع أدنى من منزلة المستوطنين من اليونانيين في مصر ، فكان من المصريين من اتخذوا الحرف والصناعات مهنة لهم ، ومنهم من

(١) بيرجوجيه - مصر البطلمية ص ٦٨

(٢) بيرجوجيه - مصر البطلمية ص ٧٦

(٣) إبراهيم نصحى - مصر في عصر البطالة ج ١ ص ٤٦٩ من الطبعة الأولى .

(٤) بيرجوجيه - مصر البطلمية ص ٨٥

(١) إبراهيم نصحى - تاريخ مصر في عصر البطالة ج ٢ ص ٢٩٥

(٢) إبراهيم نصحى - المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٣

استأجر الأراضي الملكية ، ولو أن بعضهم تسلم حصصاً من الأراضي أو استحوذ على قدر من الأرض الخاصة ، فإن حصصهم وأصبتهم كانت في العادة أقل من مثيلاتها لدى اليونانيين ، وفي الحق إنهم كانوا يواجه عام ففة المستأجرين والمستخدمين فهم الأداة المنفذة والطبقة الكادحة والعاملة باليد ، وتقبلها من الناحية الأخرى طبقة يدها السلطة الإدارية ، ولها المهمة والنفوذ ، ولا ريب أن المصريين كانوا يشعرون بما هم عليه من منزلة دنيا ، وكثيرون منهم كانوا يقابلون ما يعدونه من قبيل احتكار اليونانيين لشأنهم بالعدوان والنفور .

إلى أن قال : « وكان أمراً طبيعياً أن يقابلوا أفعال أولئك اليونانيين بشيء من الأنفة القومية والاحتقار لأساليب وأقدار أولئك المستوطنين المحدثين المتحذلقين ، ولدنيا دليل قاطع مشتمل على بعض قطع من الأدب المتأجج بروح الوطنية والمنطوى على بعض النبوءات ، يشير إلى وجود حزب وطني ناهض كانت نداعبه الأحلام ، ويتطلع إلى اليوم الذي ينتظر فيه طرد الملك الأجنبي البغيض من البلاد » .

إلى أن قال : « ومن بين الحروب الداخلية التي نشبت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد . واستنزفت قوى الملكية اندلعت بضع ثورات وحركات قومية كان الوازع لها حب الوطن ، ومنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثالث ، ترامت إلى سمعنا أنباء عن قيام اضطرابات وطنية » .

وقال أيضاً : « وكان الملك يؤلف بين جميع هذه العناصر المتباينة رباطاً من التبعية المشتركة والخضوع لإرادته ، فهو وحده المصدر الذي يستمد منه القضاء والعدالة ويرجع إليه في جميع مظاهر السلطة الإدارية ، وكانت مصر ضيعة الملك وكبار الموظفين الإداريين فيما بمثابة أتباعه ورجال دوائره » (١) .

وفي هذا المعنى يقول بيري جوجيه : « سيرى القارئ أن خلفاء أول البطالة ينفذون سياسة هيلينية واسعة النطاق تقضى بتتخية العنصر الوطني عن المناصب الرفيعة ، وإقصائه إلى المكان الدليل ، بل وتغصب أملاكه المتوارثة لصالح المهاجرين وذرياتهم ، وهذا النظام قد أدى إلى رد فعل عنيف وإلى انقلابات أضعفت أسرة البطالة » (٢) .

وقال جوجيه في موضع آخر : « إن البطالة قد أقطعوا الأراضي من شاءوا من رجالهم وجنودهم ، وفي اتباع هذه الوسيلة اضطهاد للمصريين الذي رآوا على طول البلاد أراضي خصبة تنتقل ملكيتها إلى الأجانب ، بل ويجبر المصريون على إخلاء جزء من مساكنهم ليحتلها أولئك الغريباء ، ولقد بدأت هذه السياسة من عهد بطليموس الأول الذي أعطى لجنوده أراضي واسعة » (٣) .

(١) هارولد بل - الميلينية في مصر - تعريب الأستاذ زكي على ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٥ .

(٢) بيري جوجيه - مصر البطلمية ص ٣٥ .

(٣) بيري جوجيه - مصر البطلمية ص ٣٧ .

وحتى أعمال العمران التي قام بها البطالة كشق الترع وإقامة الجسور واستصلاح الأراضي ، قد أكره فيها المصريون على العمل وقاموا بها على وجه السخرة ، ولم يستفد المصريون من استصلاح الأراضي الزراعية ، فقد أقطعها البطالة لبني جلدتهم » (١) .

وقال جوجيه في موضع آخر : « إن مصر قد أصابها الفقر بسبب الأزمات الاقتصادية في عهد البطالة » (٢) .

وقد ترتب على سياسة الاضطهاد الاقتصادي التي اتبعها البطالة ، نقص سكان الريف ، ونقص مساحة الأراضي المنزرعة .

قال الدكتور إبراهيم نصحي في هذا الصدد : « وقد نتج عن نقص سكان الريف وأد الأطفال الذين كانت الفاقة تدفع الأهالي إليه ، وعن نشاط الإسكندرية الصناعي والتجاري الذي كان يجلب العمال إلى العاصمة ، وعن الحروب والثورات الدموية التي كان يفنى فيها الكثيرون » (٣) .

الثورات على البطالة

لم تستتم الأمة المصرية لحكم البطالة ، ولا فئيت شخصيتها في الاستعمار المقدوني الإغريقي ، واحتفظت بطابعها وتقاليدها وديانتها ولغتها القديمة .

وكان الحكم البطلمي يستند إلى القوة ، فإن الحماية البرية والبحرية التي تركها الإسكندر في مصر قبل أن يغادرها ، قد اتخذ منها بطليموس الأول نواة قوة عسكرية أكبر منها وأعظم ، استخدم فيها المرتزقة والمتطوعين من أبناء مقدونيا وبلاد الإغريق وآسيا .

وكان المصريون محرومين من جيش وطني من عهد الاحتلال الفارسي ، فلما زال الاحتلال حل محلّه الاحتلال المقدوني الإغريقي ، واستمر المصريون محرومين من جيشهم الوطني .

وحرص البطالة في أوائل عهدهم على حرمان المصريين شرف الاشتراك في حروبهم ، وقصروا قواتهم المقاتلة على العناصر المقدونية والإغريقية .

وحتى الذين استخدموهم من المصريين كانوا يعهدون إليهم بالثبوت الثانوية في الجيش ، كالنقل والتأمين وما إلى ذلك .

فلا غرابة في أن يكره المصريون حكم البطالة الذي تكشف عن استعمار محقوت .

(١) إبراهيم نصحي - تاريخ مصر في عهد البطالة .

(٢) بيري جوجيه - مصر البطلمية ص ١٦٧ .

(٣) إبراهيم نصحي - تاريخ مصر في عصر البطالة ج ٢ ص ٤٧٧ من الطبعة الأولى .

على أن المصريين مع صبرهم ومصابرتهم ، لم يدعوا فرصة تمر إلا واغتنموها للثورة على المستعمر البغيض .

وبرهنت الحوادث على قوة الحيوية الكامنة في هذا الشعب ، وصموده أمام العقبات ، وثورته على الاستعمار المرة تلو المرة ، حتى يتحرر منه .

يقول الدكتور إبراهيم نصحي في هذا الصدد : « لقد ضاق المصريون زرعًا بالنظام الاقتصادي الجديد منذ عهد ، فيلادلفوس ، فإن وثائق زينون تحدثنا عن وقوع اضطرابات بين المزارعين ، كانت تنتهي بإضرابهم عن العمل وفرارهم إلى المعابد للاجتماع بالألهة ، ولم تقل عن ذلك شأنًا الاضطرابات التي كانت تنشأ بين المشتغلين بالصناعة والتجارة في كنف النظام الجديد ، ولم يفض ذلك إلى الاضراب عن العمل فحسب ، بل كذلك إلى تهريب السلع وبيعها دون تصريح .

« وقد أدت أيضًا مختلف أنواع الخدمة الجبرية إلى إضرابات واضطرابات هائلة ، ولشد ما كانت تقابلها بعقوبات صارمة ، وقد وجد العيون مرتعا خصبًا في هذه الحالة ، التي لا يمكن تفسيرها بالنقائص الطبيعية في كل نظام جديد لم يألفه الذين كانوا يطبق عليهم ، إن السبب أبعد مدى من ذلك ، لأن النظام لم يكن صارمًا فحسب ، بل كان تطبيقه في قبضة أجناب اعتبروا أنفسهم أرفع قدرًا وأعظم شأنًا من المصريين ، ولم يتكلموا اللغة المصرية ، بل أرغموا على الأقل بعض المصريين على تعلم لغتهم الأجنبية ، وكانوا لا يعيدون آله بل آهنتهم الأجنبية التي أحضروها معهم ، ولا يجيئون الحياة التي كان المصريون يالفونها بل حياتهم الخاصة ، وكانوا يرغمون أهالي البلاد على بذل أقصى الجهد في استغلال المرافق الاقتصادية ، ولم يتحمل المصريون كل ذلك في سبيل آهنتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتقدون نفس المعتقدات الدينية ويتكلمون نفس اللغة ويجيئون نفس الحياة ، وإنما في سبيل خدمة قاهر أجنبي ومن يحيط به من الأجناب الذين منحهم أفضل المناصب وخير الفرص لإثراء أنفسهم ، فظفر الأجناب بالثروة حين حلت الفاقة بالمصريين ، وإذا احتاج مصري إلى اقتراض نقود أو بذور فإنه كان يقترضها عادة من أحد هؤلاء الأجناب ، وإذا أراد استئجار قطعة أرض فإنه كان يستأجرها عادة منهم ، فلا عجب إذن أدرك المصريون أنهم قد أصبحوا غريباء في بلادهم ، أداة يجب أن تكون طليعة في خدمة الأجناب ، ووسط هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع ليهب الثورة لأي سبب ، فقد امتلأت النفوس غضبًا وحقنًا ، وتوفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين لم ينقصهم الفادة ، فإن رجال الدين ، وقد كذبهم البطالة بالقيود التي كسرت شوكتهم ، كانوا يحنون إلى استعادة ما كانوا ينعمون به في الماضي من الكرامة والعزة والنفوذ والثراء ، ولم يؤد مضى الزمن إلا إلى ازدياد الهوة من الفريقتين ، وساعد على ذلك أيضًا صرامة العقاب ، الذي كان يكال للناقمين على سوء الحال ، ولذلك فإن الاضطرابات التي بدأنا نشهدها في عهد فلادلفوس لم تنقطع في عهد خلفائه بل ازدادت عنفاً وشدّة .

« وإذا كانت أشد ثورات المصريين لم تقع إلا بعد انتصارهم في موقعة (رفح) ، فإن ذلك يرجع

دون شك إلى أنه كان ينقص المصريين الحافز الذي يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، ويذكي روح الوطنية الكامن في صدورهم ، فيخلصوا بلادهم من نير الأجنبي كما تخلص أجدادهم من الهكسوس^(١) .

أول ثورة على البطالة في عهد بطليموس الثالث إيفرجيت Evergete - الخير

إن أول ثورة قام بها المصريون ضد البطالة كانت في عهد بطليموس الثالث (إيفرجيت) . وترجع أسبابها إلى ازدياد روح التذمر والسخط على الحكم البطلمي ، ذلك السخط الذي بدأ في عهد بطليموس الأول ، ولم يصل إلى حد الثورة ، ولكن كانت له مظاهر خطيرة ، كالتوقف عن العمل بين الزراع والصناع والعمال المصريين بسبب كثرة الضرائب التي كانت الحكومة تفرضها عليهم .

وقد اشتد هذا السخط في عهد بطليموس الثالث ، لازدياد ما فرضه على الشعب من الضرائب والإتاوات بسبب حربه التي شنّها على (سلوقس)^(٢) Seleucus ملك سورية ، فازداد عسف الحكومة وضغطها على المواطنين ، وتفاقت وسائل القسوة في تحصيل الضرائب .

وفرض إيجارات مجحفة على الفلاحين ، الذين كانوا يزرعون أرض الملك ، حتى اضط هؤلاء إلى الهجرة من أماكن إقامتهم وعملهم ، مما أدى إلى إفقار القرى من ساكنيها^(٣) .

وزاد في تيار السخط انخفاض منسوب فيضان النيل ، وحلول القحط في البلاد ، واشتداد الضيق بالأهلين ، فحنقوا على الملك الذي كان يشتط في القسوة عليهم ويجمع منهم الأموال لينفقها في حروب لا طائل تحتها ، كما حنقوا على رجال الحكومة لما عانوه من مساوئهم .

نشبت الثورة بين الأهلين حوالي سنة ٢٤٦ ق . م . في الوقت الذي كان الملك بطليموس الثالث يحارب في سورية .

فلما بلغته أنباء الثورة أسرع في العودة لإخمادها بقوة الجيش .

ولم تتعد هذه الثورة أنحاء الدلتا .

وقد أفلح بطليموس الثالث في إخمادها بالقوة المسلحة .

غير أنها تركت في نفوس المصريين جراحًا أليمة حفزتهم إلى التريص بالبطالة الظالمين ، ومعاودة الكرة للثورة عليهم .

(١) إبراهيم نصحي - تاريخ مصر في عهد البطالة - ج ٢ ص ٧٦٨ طبعة أولي .

(٢) وإليه تنسب كلمة السلوقين والدولة السلوقية ، كما نسبت كلمة مصر البطلمية إلى البطالة .

(٣) الدكتور محمد عواد حسين - حركات المقاومة الوطنية في مصر البطلمية - طبع سنة ١٩٤٩ ص ١٧ .

معركة رفح سنة ٢١٧ ق م.

والثورة الثانية

في عهد بطليموس الرابع

فيلوباتور Philopator (أى المحب لأبيه)

كانت سياسة البطالمة الثلاثة الأول إقصاء العنصر المصرى عن الجيش ، وجعله مقصوراً على المقدونيين واليونانيين .

ولما توفى بطليموس الثالث خلفه سنة ٢٢١ ق م . ابنه بطليموس الرابع (فيلوباتور) ذلك الشاب العايب الذى سبق الحديث عنه واستفاضت أبناء سيرته (ص ٢٠٤) .

فانتهاز أنطيوخس Antiochus ملك سورية هذه الفرصة وأعد جيشاً لمهاجمة مصر . وأدرك بطليموس الرابع أن قواته المقدونية واليونانية ليست كفيلاً بصد هذا الهجوم .

فاضطر إلى إدخال المصريين فى قواته المسلحة كجنود محاررين ليزداد بهم منعة ، فوجد منهم نحو عشرين ألف مقاتل ، مسلحهم بأسلحة مقدونية ودرهمهم وفقاً لفنون الحرب المعروفة فى ذلك العصر .

وفى عام ٢١٧ ق م بلغ الملك أنطيوخس بجيشه مشارف (رفح) ، والتقى بجيش بطليموس الرابع .

وبعد أن انتصر أنطيوخس على الجناح الأيسر الذى يقوده الملك الشاب وفشلت الجنود المقدونية فى صد الجيش السلوقى ، انبرى لهم المصريون الذين امتازوا بشجاعتهم وحسن بلائهم فى القتال ، فهزموا السلوقيين .

وانتهت معركة رفح بنصر مؤزر ناله الجيش البطلمى ، بفضل الفرقة المصرية .

فالنصر الذى أحرزه المصريون فى معركة رفح قد ملأ نفوسهم حماسة وثقة .

وبدأ البطالمة لأول مرة يعاملونهم لوقت محدود معاملة الأنداد بعد أن كانوا ينظرون إليهم كأنهم مقهورون .

يقول هارولد بل فى هذا الصدد : « ومن ذلك الحين أخذت الثورات تنشب من وقت لآخر ، وتقع غالباً فى الإقليم الطبى ، ولكن ليس هذا على سبيل الحصر بحال ما ، فهذا الإقليم كان دائماً الموطن الذى نبتت فيه القومية المصرية »^(١) .

ويقول الدكتور إبراهيم نصحى : « إن الثورة التى وقعت فى عهد بطليموس الرابع ، لم تختلف كثيراً فى طبيعتها عن الثورة التى وقعت فى عهد بطليموس الثالث ، والثورات التى وقعت فى

عهد البطالمة المتأخرين ، لكن ثورة عهد بطليموس الرابع كانت أخطر من سابقتها لأن الجنود المصريين كانوا عندئذ أفضل تدريباً وتسليحاً ، ورأوا فى ميدان القتال أثناء موقعة (رفح) أنهم لا يقلون كفاءة ومقدرة عن الإغريق والمقدونيين ، وعندما عاد الجنود المصريون من انتصارهم فى موقعة (رفح) إلى قراهم ، وأخذوا يباشرون حياتهم العادية . ازداد إحساسهم بالألم من مركزهم الوضع بالنسبة للأجانب ، وحقنوا أكثر مما كانوا يحقنون فى الماضى على الأعباء المتزايدة التى كان النظام الاقتصادى يفرضها عليهم ، فلا عجب إذن أن انتهب رجال الدين المخلصون كل هذه الظروف واستنصروا وطنية المصريين ومشاعرهم الدينية ، فهبوا ثارين على طغاتهم ، وكل من لاذ بهم ، أو انتصر لهم ، أو تخلف عن ركب الوطنية ، ولا يبعد أن أحد العوامل الهامة التى ألهمت مشاعر المصريين وخاصة فى مصر العليا ، ودفعتهم إلى الثورة ضد لبطالمة ، كان بقاء التقاليد الفرعونية فى وادى النيل جنوبى مصر لأنه إذا كان الغزاة المقدونيون والإغريق قد أخضعوا بمصر نفسها فإنهم لم يخضعوا كل دولة الفراعنة القدماء ، أو بعبارة أخرى كل منطقة الحضارة المصرية ، ولا شك فى أنه عندما كان المصريون الوطنيون يرون تقاليدهم القديمة نسود ذلك الإقليم الواقع على الحدود الجنوبية ، كانت صدورهم تتأجج وطنية ، وكانت تبدو لهم بارقة أمل فى إحياء ماضيهم المجيد واسترجاع حريتهم العزيزة ، فيدفعهم كل ذلك إلى البذل والفداء »^(١) .

كانت واقعة رفح نقطة تحول كبير فى موقف المصريين تجاه غاصبيهم وبداية الثورات الوطنية التى زلزلت عرش البطالمة ، فثار المصريون فى الوجه البحرى عام ٢١٦ ق م . يريدون التحرر من البطالمة ، وامتدت الثورة إلى مصر الوسطى ، ثم إلى مصر العليا .

وقد أسفرت هذه الثورة عن استقلال إقليم طيبة عن حكم البطالمة نحو عشرين عاماً (من سنة ٢٠٦ إلى سنة ١٨٦ ق م) .

وقد أضعفت هذه الجهود سلطان البطالمة عامة ، وانتهى بهم اضعف إلى الارتقاء فى أحضان (روما) ، يلتصقون منها المعونة والحماية .

غير أن الحكومة عادت وبسطت سلطانها عليها فى عهد بطليموس الخامس سنة ١٨٦ ق م . ، ونجحت فى القضاء على هذه الثورة ، واستلزم إخمادها جهوداً عسكرية كبيرة .

كانت هذه الثورة أخطر ثورة قامت ضد البطالمة ، وقد أخدمتها الحكومة وأعدمت زعماءها .

وقد علل الدكتور إبراهيم نصحى اخفاق الثورات عامة على البطالمة بأسباب عدة ، منها أن الثوار لم يكونوا فى قوة البطالمة الحربية التى امتازت بتفوقها فى الأسلحة والعتاد والأموال ، ومنها أن المصريين لم يكونوا على اتحاد تام فى الهدف والغاية ، بل كانوا يصابون أحياناً بداء الانقسام . وأن البطالمة استطاعوا أن يجندوا إلى صفهم بعض العناصر ليضربوا بها الثورة^(٢) .

(١) إبراهيم نصحى - تاريخ مصر فى عصر البطالمة ٧٧٤/٢ من الطبعة الأولى .

(٢) إبراهيم نصحى - تاريخ مصر فى عصر البطالمة - ج ٢ ص ٧٩٧ من الطبعة الأولى .

(١) هارولد ا . بل - الجليلية فى مصر - تعريب الأستاذ ركى على ص ٨٣ .

ومهما قيل من المآخذ على هذه الثورات ، فحسب المصريين أنهم قاموا بالثورة المرة تلو المرة ، ولم يسكتوا على الحكم الأجنبي ولا استناموا له وأنهم بثوراتهم المتكررة ضد البطالمة قد زلزلوا دولتهم ، حتى انتهت إلى الانحلال والزوال .

الثورة الثالثة

في عهد بطليموس الخامس إيفان (Epiphane) (الظاهر)

اعتلى بطليموس الخامس عرش مصر سنة ٢٠٣ ق م . وهو حدث صغير السن ، فتولى الوصاية عليه وصى فاسد وهو (أجاتوكليس) Agathocles أخو الغانية للعبوب (أجاتوكليا) عشيقته بطليموس الرابع التي تقدم الحديث عنها (ص ٢٠٤) ، وقد امتلأ البلاط الملكي بالإسكندرية بالمنكرات والمؤامرات .

واشتد السخط على سيرة الوصى ، واندلعت الثورة على القصر فى الإسكندرية .

ونجح عنها قتل الوصى أجاتوكليس وأخته أجاتوكليا وأمهما ، وعين وصى آخر ، فلم تنقطع الثورة .

وعمت الثورة الوجه البحرى والوجه القبلى : وكانت أيديوس (العرابة المدفونة) معقل الثورة فى الصعيد .

فجردت عليها الحكومة البطلمية جيشاً لحصارها ، ولكن أهلها استبسلوا فى الدفاع عنها ، فردوا هذا الجيش عنها .

واستمرت الثورة فى الوجه القبلى حتى عام ١٨٤ - ١٨٣ ق م . وهو العام الذى قضى فيه على الثورة فى الدلتا عندما استولت قوات بطليموس الخامس على سايس^(١) .

وبلغ من وحشية هذا الملك أنه عندما سلم زعماء الثورة بعد أن أمتهم على حياتهم أعدمهم بطريقة وحشية^(٢) .

يقول بيري جوجيه فى هذا الصدد : « جاء إشراك المصريين فى القتال ضد أنطيوخوس نتيجة اضطراب بطليموس الرابع إلى الاستعانة بهم ، ولكن هذه الاستعانة جاءت وبالاً عليه ، لأن الوطنيين وقد استثارهم انتصار (رفع) ، لم يعد فى الإمكان أن يتحملوا الخضوع للبطالمة ، وأخذوا يعملون على أن يكون لهم رئيس منهم .

(١) صا الحجر ومكانها الآن بالقرب من كفر الزيات الحالية .

(٢) إبراهيم نصحي - تاريخ مصر فى عصر البطالمة المرجع السابق ج ١/ ١٧٥ (من الطبعة الثانية) .

« والثورات التى ملأت عهد بطليموس الرابع (فيلوپاتور) ، وبطليموس الخامس (إيفان) قد أحمدها بطليموس التاسع تحت أسوار مدينة طيبة^(١) .

الثورة الرابعة

فى عهد بطليموس السادس فيلومتور (Philometor) (المحب لأمه) وحماية روما للبطالمة

بعد وفاة بطليموس الخامس سنة ١٨٠ ق م . اعتلى العرش ابنه بطليموس السادس ، وكان هذا أيضاً صغير السن لم يتجاوز السابعة من عمره ، ووُضعت الوصاية عليه .

واشتكت مصر والسلوقيين فى حرب جديدة .

وانتصر الملك السلوقى (أنطيوخس الرابع) ، ملك سورية على الملك البطلمى فى يبلوز (الفرما) ، وزحف حتى وصل إلى منف ، واحتال على بطليموس السادس حتى قبض عليه ، فنادى الإسكندريون بأخيه الصغير ملكاً ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم بطليموس الثامن ، وبعد ذلك استأنف أنطيوخس الرابع زحفه حتى ضرب الحصار على الإسكندرية ، وقطع اتصالاتها برا بمصر .

فاستصرخ الملك البطلمى بروما لحمايته ، لكن روما لم تستطع التدخل وقتئذ لأنها كانت على وشك دخول الحرب المقدونية الثالثة ، ولم ينقذ مصر فى ذلك الوقت إلا وقوع اضطرابات فى الدولة السلوقية اضطرت أنطيوخوس إلى مغادرة مصر ، تاركاً وراءه فيها ملكين : بطليموس الصغير فى الإسكندرية ، وبطليموس السادس فى منف ، معللاً الأمل فى أن الخلاف بين الأخوين سيمهد له فى المستقبل سبيل الاستيلاء على مصر ، ولكن كليوترة الثانية أخت الملكين استطاعت أن توفق بينهما ، وحكم ثلاثتهم سوياً ! وبعد عامين عاود أنطيوخوس غزو مصر ، وعندئذ تدخلت الجمهورية الرومانية ، وقد برزت قوتها فى الميدان ، وأخذت تعمل لحفظ التوازن بين دول الشرق ، ورأت أن أنطيوخوس وقد استمر فى زحفه حتى ضرب الحصار فى الإسكندرية لم يعد من مصلحتها تركه وشأنه ، وكانت روما قد خرجت منتصرة من حربها مع مقدونيا سنة ١٦٨ ق م . فرأت أن تمل إرادتها على أنطيوخس بطريقة بالغة منتهى القسوة والإذلال .

إذ جاء السفير الروماني وسلمه رسالة حوت قرار مجلس الشيوخ الروماني فى هذا الصدد ، فاطلع أنطيوخوس على الرسالة ، وأعلن أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه .

(١) بيرجوجيه - المرجع السابق ص ١١٧ - ١١٩ .

الثورة السادسة في عهد بطليموس التاسع والعاشر

ازدادت الأحوال اضطراباً بعد وفاة بطليموس الثامن، إذ تجدد النزاع العائلي بين حداثه، وكان قد أوصى بأن تخلقه زوجته كليوبترا الثالثة^(١). على أن تشارك معها من تختار من وديها بطليموس التاسع (الأكبر) والعاشر (إسكندر).

وكانت كليوبترا تؤثر لأنها بطليموس الإسكندر، وشاعت الدسائس والمؤامرات في انقصر، وأكرهها الشعب على اختيار الابن الأكبر شركاً لها، فقبلت ذلك مرغمة.

ولم يمض عامان حتى تجددت الثورة، وخاصة في مصر الوسطى، وفي الصعيد. ووجد الملك بطليموس التاسع على الثوار جيشاً حاصراً في طيبة (مقل الثورة) وظفر بهم وخرّب المدينة سنة ٩٥ ق. م. تخريباً وحشياً.

وفي هذا الصدد يقول هارولد بل: «كانت مصر طوال فترات طويلة من القرنين الثاني والأول قبل الميلاد تتردى في هاوية من الحرب الأهلية وتتن من غصصها وويلاتها، ويبدو أن الإقليم الطبي كان من وقت لآخر مستقلاً بالفعل عن مقر الحكومة بالإسكندرية، وفي سنة ٨٥ ق. م. استماتت طيبة في الثورة والعصيان، مما أدى إلى نهاية أليمة بتخريبها والقضاء عليها فعلاً، وكانت عاصمة البلاد العتيقة في عصور مجد مصر وعظمتها، تلك هي حال «طيبة» ذات الأبواب المائة» كما سماها هوميروس، لأن ما بقي منها منذ ذلك الوقت لا يعدو بضع قرى متناثرة وسط الأثار المخلفة عن سالف عصرها الزاهر»^(٢).

بطليموس الثاني عشر (الزمار)

ولم تنقطع الثورات ضد الحكم البطلمي، وزاد من أوارها تدخل الدولة الرومانية لحماية من تراه خاضعاً لنفوذها من الملوك البطلمية.

إلى أن اعتلى العرش بطليموس الثاني عشر (أوليتس = الزمار)، وقد أطلق عليه الشعب هذا اللقب تعبيراً عن أبرز صفاته، إذ كان يجيد العزف على الموسيقى.

وقد زاهر برلائه لروما، والتبس منها العضا. والعون لثبيت مركزه المتداعي. وذهب إلى روما فعلاً سنة ٥٨ ق. م. وأطال مكثه هناك عدة سنوات، وعاد إلى مصر سنة

(١) هي غير كليوبترا السابعة التي اشتهر اسمها في التاريخ.
(٢) هارولد بل: مصر البطلمية. مرجع السابق. ترجمة الأستاذ زكي على ص ٨٧.

فلم يكن من السفير الروماني إلا أن خط بعصاه دائرة على الرمال حول أنطيوخوس، وأعلن أن الأمر يقتضى أن يمدى الملك الجواب قبل مبارحته تلك الدائرة.

فأذعن أنطيوخوس وأتفه راغم، وكظم غيظه، واضطر للنزول على إرادة روما، فقررت إظهاراً لقوتها أن تطلب منه الوقوف في زحفه حتى لا يقوى بفوزه على البطلمة، وانسحب من مصر.

ومن يومئذ صارت دولة البطلمة تحت الحماية الفعلية للجمهورية الرومانية، واستغلت روما النزاع الذي دبّ بين أفراد أسرة البطلمة لدعم نفوذها في مصر.

وكانت أولى حلقات هذه المرحلة النزاع بين بطليموس السادس وأخيه الصغير وشريكه في الملك.

وقد أهدت هذه الأحداث المشاعر الوطنية ضد القصر الملكي، ووجدت هذه المشاعر صداها في موظف كبير في القصر يدعى ديونيسيوس بتروسرايس، وكان مصرياً من أفراد الحاشية الملكية، فتزعم ثورة جديدة على البطلمة سنة ١٦٥ ق. م.

وسارع ديونيسيوس هذا إلى الاحتشاد في (الحدرة)، وقاتلت جموع الثوار قوات الملك بطليموس السادس، ولكنها ظهرت عليهم وظفرت بهم. وانتقلت الثورة إلى الوجه القبلي، فانتصرت عليهم قوات الملك في أحميم.

وعندما اشتد النزاع بين الأخوين، تدخلت روما، لا لتصلح ذات البين بينهما، ولا لدعم عرش البطلمة، بل لتزيده ضعفاً على ضعف بتقسيم الدولة بين الأخوين، فباركت روما عقد اتفاق بينهما سنة ١٦٣ ق. م. تقرر بمقتضاه أن تكون مصر وقبرس من نصيب الأخ الأكبر، وبرقة من نصيب الأخ الأصغر!

وهكذا ظفرت روما بتفكيك عرى الدولة البطلمية، وصارت الحكم في المنازعات الداخلية فيها.

الثورة الخامسة في عهد بطليموس الثامن

بعد وفاة بطليموس السادس ومقتله بطليموس السابع آل العرش إلى أخيه بطليموس الثامن، وكانت سيرته من الفساد والقسوة قد أوججت نار العداوة ضده، فاشتعلت الثورة في طول البلاد وعرضها، وكانت مزيجاً من النزاع العائلي والثورة الوطنية، وبعد جهد أحمدد الملك بالفترة والوحشية، ثم أصدر قرارات عفو سنة ١١٧ ق. م. تدعو إلى تهدئة الحال.

٥٥ ق. م. بعد أن اشترى ذم رجال السياسة في روما ليؤيدوه في مركزه ، واشتط في معاملة الأهلين ، واستنزف أموالهم ليسدد ديونه من المرابين الرومان .
وكتب وصيته بأن يخلفه على العرش أكبر أولاده ، وهما كليوبترا الشهيرة (السابعة) مشتركة مع أخيها بطليموس الثالث عشر .
ولما كان هذا الزمار غير مطمئن إلى الشعب المصري في تنفيذ وصيته لكرهته له ، فقد أودع الوصية لدى الجمهورية الرومانية ، وعهد إلى الشعب الروماني الإشراف على تنفيذها ! .
وكان ذلك اعترافاً منه بحماية روما لمصر .
وتوفى بطليموس الزمار هذا سنة ٥١ ق. م. محترقاً من الشعب ومن الرومان معاً .

كليوبترا Cleopatre

ترك بطليموس الزمار بيتين : هما كليوبترا Cleopatre وأرسينوى Arsinoé وولدين وهما بطليموس (الثالث عشر) وبطليموس (الرابع عشر) .
وكانت وصيته كما أسلفنا أن تخلفه على العرش كليوبترا وأكبر ولديه (بطليموس الثالث عشر) ، على أن يتزوج أخته الكبرى (كليوبترا) ، ويشتركا معاً في الحكم .
كانت كليوبترا تبلغ الثامنة عشرة من عمرها ، وأرسينوى في السادسة عشرة ، وبطليموس الثالث عشر في الثالثة عشرة ، والرابع عشر صغير السن^(١) .
وقد تطلعت كليوبترا منذ الساعة الأولى إلى الانفرد بالحكم ، ومن هنا نشأ النزاع بينها وبين أختها ، وكان رجال القصر من ناحيتهم يريدون الاستئثار بالسلطة ، فأوغروا صدر أخيها وضموا إليه جمهرة الإسكندرانيين .

وفي بداية الأمر لقي بطليموس الثالث عشر عطف الأهلين الذين تقموا من كليوبترا سعيها لاغتصاب الملك من أخيها ، فثاروا عليها ، وخرجت من الإسكندرية ، لانتستلم للأمر الواقع ، بل لتدبر الدسائس لتنتزع الملك لنفسها .
وجندت من استطاعت تجنيده من البدو المتأخمين للمطود الشرقية ، وكانت تعرف لغتهم ، واعتزمت دخول مصر ثانية على رأس جيشها ! .

وكان أنصار الملك الصغير قد جمعوا أيضاً ليصدوا كليوبترا في زحفها .
وفي صيف سنة ٤٨ ق. م. كان الجيشان وجهاً لوجه على منية من بيلوز (الفرما) .

(١) بيرجوجيه - مصر البطلمية ص ٥٣ .

مصرع بومبي Pompei

وفي غضون ذلك جاء مصر القائد الروماني الشهير بومبي الذي كان وقتاً ما مقصلاً عاما في روما ، وكان خصماً ليوليوس قيصر ومزاحماً له على السلطة .
وكان مجيئه لمصر لاجئاً بعد هزيمته أمام يوليوس قيصر ، وظن أنه سيجد فيها العون ، إذ كان صديقاً لبطليموس الزمار ، وعاونه في روما على العودة للحكم .
ولكن بومبي لم يكد يدنو بقاره من الشاطئ بالقرب من بيلوز ، حتى اغتاله صف ضابط روماني في خدمة الجيش البطلمي ، فمات قتيلاً سنة ٤٨ ق. م. .

يوليوس قيصر وكليوبترا

وجاء يوليوس قيصر إلى الإسكندرية سنة ٤٨ ق. م. يتعقب خصمه بومبي ، ومعه قوة من أربعة آلاف مقاتل ، وعلم نبأ مصرع بومبي ، فأظهر الحزن على خاتمته .
وكان أنصار بطليموس الثالث عشر (ابن الزمار) يظنون أن قيصر سيعود من حيث أتى ، بعد مصرع خصمه ، ولكنه لم يرح الإسكندرية ، بل بقى فيها كأنه الحاكم بأمره .
واتخذ قصر البطلمة مسكناً له ، وكان ذلك بمثابة اعتبار مصر ولاية رومانية .
وأمر كليوبترا وأخاها بتسريح جيشهما والحضور إلى الإسكندرية للفصل في النزاع القائم بينهما ، وفقاً لوصية أبيهما الزمار .
وكانت كليوبترا وقتئذ في أقصى حدود مصر ، فخشيت إن هي وصلت إلى الإسكندرية أن يقتلها رجال البلاط من أنصار أخيها .
فجاءت خفية بطريق البحر ، يصحبها كاتم أسرارها ، ووصلت في زورق إلى القصر الملكي ، وأدخلها كاتم أسرارها إلى القصر ملفوفة في سجادة ! .
فلما رآها يوليوس قيصر في هذا الوضع ، بهت لهذه المفاجأة .
ومن هذه اللحظة وقع الدكاتور الروماني العظيم في غرامها .
وقبلت أن يحكم يوليوس قيصر بينها وبين أخيها ، واستعملت مع قيصر سلاح الفتنة والإغراء لتجلبه إلى صفها .
فاستدعى أخاها للتوفيق بينه وبين أخته ، ولكن الملك الصبي لم يكد يرى أخته حتى استولت عليه عاصفة من الهياج والغضب ، وراح يجرى في الشوارع ليستصرخ الجمهور .
وقد أعاده جنود قيصر إلى القصر .
وكادت تحدث فتنة بين الجماهير ، لولا أن هدأ قيصر روعها ، وتلا على الجموع وصية

بطليموس الزمار التي تقضى باشتراك الأخوين معاً في الحكم وبأن ترعى روما تنفيذ هذه الوصية ، وأصبح بذلك حقه في التدخل في هذا النزاع .

هذات خواطر الناس ظاهراً ، وتم الوفاق بين كليوبترة وأخيها وفقاً لرغبة قيصر ، وتنفيذاً لوصية أبيهما الزمار .

الحرب في الإسكندرية

(سنة ٤٨ - ٤٧ ق م)

على أن (أخيلاس) قائد الجيش البطلمي ، وكان من أنصار الأخ المزاحم لكليوبترة ، أراد لكي يضعف قوة قيصر ، ويوقع الذعر في صفوف جنده أن يحاول إخراجه من مصر ، فجاء من بيلوز على رأس جيشه ، وقلجاً يوليوس قيصر في الإسكندرية ، ولم يكن قيصر مستعداً لهذه المفاجأة ، إذ لم تكن القوة التي لديه تكفي لصد هذا الهجوم . على أنه وهو القائد الخنك لم يعدم الوسيلة للدفاع .

فأضرم النار في أسطول البطلمة الراسي في الميناء الشرقي ، وتعالى لهب هذا الحريق وامتد إلى الحى المجاور للميناء ، وفيه المكتبة الشهيرة المعروفة بمكتبة الإسكندرية فدمرها . قال جوجيه في هذا الصدد : « وكذلك احترقت المكتبة الكبرى وما تشمله من كتب قيل إنها بلغت ٤٠٠,٠٠٠ كتاب »^(١) .

ولما وصل إلى يوليوس قيصر المدد تغلب على الجيش البطلمي وهزمه في حرب دارت رحاها برأً وبحراً في الإسكندرية ، وغرق كثير من أفراد الجيش البطلمي أثناء تفهقرهم ، وكان بطليموس الثالث عشر أحد هؤلاء الغرقى (سنة ٤٧ ق م) .

وانفردت كليوبترة بالحكم ، مستندة إلى سلطة يوليوس قيصر ، على أنها تزوجت بأخيها الأصغر (بطليموس الرابع عشر) وكان صبيّاً دون الثامنة عشرة من عمره ، وقيل إلى يوليوس قيصر رغب إليها هذا الزواج ، لكني يحترم (ظاهراً) وصية أبيها الزمار ، إذ أوصى بأن تشتريه مع أخ لها في الحكم وأن تزوجه .

على أن يوليوس قيصر قد أطلال مكته في الإسكندرية بدون مقتضى . وبين أنه شغف حباً بكليوبترة ، وأراد قضاء أطول مدة ممكنة إلى جوارها . وبقي إلى جانبها قرابة ثلاثة أشهر أخرى قام معها في خلالها برحلة نيلية إلى أقاليم الصعيد (سنة ٤٧ ق م) . ورزقت منه بمولود اسمته (قيصرين) أي قيصر الصغير ، تيمناً باسم أبيه الطبيعي .

(١) بير جوجيه Pierre Jouguet مصر البطلمية . ص ٢١٢ .

وقد تبعت كليوبترة يوليوس قيصر إلى روما بصحبتها ابنها الرضيع قيصرين وزوجها الصغير بطليموس الرابع عشر ، وأعد لها يوليوس قيصر قصرًا في روما عاشت فيه زهاء سنتين ، وشهدت موكب النصر الذي أقيم في روما ليوليوس قيصر ، ومشت فيه أختها الصغرى (أرسينوى) مكجلة بالسلاسل والأغلال ضمن الأشخاص الكبار الذين حاربوا قيصر وأسرههم وساروا في ركابه .

وكان لكليوبترة ولا ريب دخل في مصير أختها ، إذ كانت تغار منها وتكرهها وتعمل على إزاحتها من طريقها .

ولم تقنع كليوبترة بسجن أختها الصغرى أرسينوى ، بل حرضت أنطونيوس فيما بعد على قتلها رغم أنها كانت لاجئة إلى معبد أفسوس ، فقتلت .

على أن استدعاء قيصر لكليوبترة واستضافته إياها في قصر له ، جعله موضع التندر لدى الرومان والزراية بهذا المسلك غير القويم ، من الدكتاتور العظيم .

مصرع يوليوس قيصر

وظلت كليوبترة تعيش في روما عيشة البذخ والترف ، إلى أن لقي يوليوس قيصر مصرعه سنة ٤٤ ق م .

ويرجع مقتله إلى كراهية فريق من الرومان له ، إذ شاع بينهم أنه يريد أن يحيل الجمهورية إلى ملكية مطلقة ، يكون هو على رأسها ، فانقض عليه بعض زملائه وفي مقدمتهم (بروتس) ، وقتلوه بخناجرهم في مجلس الشيوخ .

عودة كليوبترة إلى مصر

وبعد أن لقي يوليوس قيصر مصرعه ، تخرج مركز كليوبترة ، فعادت أدراجها إلى مصر ومعها ابنها (قيصرين) وزوجها بطليموس الرابع عشر .

وقد لقي هذا حنقه عقب عودته من روما ، وقيل إن كليوبترة دست له السم فمات في سن مبكرة ، وانفردت هي بالحكم .

أثار مصرع يوليوس قيصر النزاع الداخلي في روما ، وقد انتهى هذا النزاع بانتصار أنصار قيصر ، وتقاسم السلطة اثنان من القواد وهما أوكتافينوس Octavius وأنطونيوس Antonius فاحتص أولهما بالولايات الغربية للدولة الرومانية وآل إلى أنطونيوس شئون البلاد الشرقية .

كليوبترة وأنطونيوس

وكانت كليوبترة قد لزمته موقفاً غير واضح بعد مصرع قيصر ، منتظرة لمن تكون له الغلبة في هذا الصراع الرهيب .

فلما آل الأمر إلى أوكتافيوس وأنطونيوس ، أرسل هذا من مدينة (طرسوس) بمقاطعة كلكتا آسيا الصغرى إلى كليوبترا يستدعيها لكي يحاسبها على موقفها السلبي ، وعدم معاونتها لأنصار يوليوس قيصر .

فذهبت إليه سنة ٤١ ق . م . في سفينة فاخرة بدت فيها كأجمل ملكة تحيطها مظاهر الزينة والترف والآلات الطرب .

فما أن رآها أنطونيوس ، حتى وقع في شرك حبها . فصطح عنها وذهب معها إلى الإسكندرية حيث عاش وإياها في لهُو وعبث .

وبالرغم من أن الأحداث السياسية قد اضطرتته إلى البعد عنها طوال أكثر من ثلاث سنوات ، فضاها في الحروب ، فإنه عاد إليها مغرماً بها ، واستهان بواجبات منصبه ، وكان في غضون ذلك قد تزوج سنة ٤٠ ق . م . بأوكتافيا أخت أوكتافيوس ، ولكنه عاد إلى علاقته بكليوبترا وتزوج بها سنة ٣٧ ق . م . واعترف بأن قيصر هو الوارث الشرعي ليوليوس قيصر .
في حين أن أوكتافيوس كان يعترف بهذه الوراثية^(١) .

فاشتدت العداوة بينهما ، ولم يكن بدّ من الحرب ليصرع أحدهما الآخر .

معركة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق . م

بين أوكتافيوس وأنطونيوس

وانتحر أنطونيوس ثم انتحر كليوبترا سنة ٣٠ ق . م

كانت معركة أكتيوم البحرية فاصلة في صراع الخصمين ، وفي مصير أنطونيوس ، فقد خرج إليه أوكتافيوس والتقى به في أكتيوم Actium (غربي بلاد اليونان) سنة ٣١ ق . م ، ووضعت كليوبترا جميع قواتها تحت تصرف أنطونيوس .

وقد وقعت بينه وبين أوكتافيوس معركة بحرية في أكتوبر سنة ٣١ ق . م . دارت فيها الدائرة على أنطونيوس .

وفر بعدها مع كليوبترا إلى مصر ، فتبعهما أوكتافيوس ووصل إلى بيلوز (الفرما) واحتلها ، ثم واصل زحفه على الإسكندرية .

وخرج أنطونيوس لملاقاته ، فانتصر عليه أوكتافيوس في المكان الذي أطلق عليه الرومان اسم (نيكوبوليس) أي مدينة النصر بوضاحية الرمل ، وتقع تقريباً في الجهة المعروفة الآن ببولكي (إيزيس) وما حولها^(٢) .

(١) أم أوكتافيوس كانت ابنة أخت يوليوس قيصر وكان يوليوس قيصر قد بنى أوكتافيوس .

(٢) تاريخ الحركة القومية ج ٢ ص ٢٣٧ من الطبعة الأولى .

وانسحب ، أنطونيوس إلى الإسكندرية ، واستبدّ به اليأس ، فانتحر سنة ٣٠ ق . م . بأن يقر بطنه بخنجره ، فصرعه الخنجر .

ثم انتحرت كليوبترا من بعده حتى لا يقودها أوكتافيوس إلى روما ويعرضها في موكب انتصاره ، وكان انتحارها ببلدغة حية أحضرتها خصيصاً لتكون بها نهايتها ، فكان فيها أنوت الزوام .

كليوبترا آخر البطالمة

إن كليوبترا هي آخر ملوك البطالمة ، وقد كانت سيدة مقدونية يونانية ، ولم تكن فيها قطرة دم مصرية .

تولت العرش وعمرها لا يزيد على ثمانية عشر عاماً ، وقد شغلت الفترة الأخيرة من حياة الدولة البطلمية ، بما انتهى بانتحارها وسقوط هذه الدولة .

وكان انتحارها خاتمة محتومة لحياتها ، وحياة الدولة البطلمية .

فقد وضعت لنفسها قاعدة ظنت أنها تستطيع أن تثبت بها عرشها المتداعي وهي أن تأسر كبار الرجال بغرامياتها ، فيذعنون لإغرائها وأهوائها .

ولم تكن الغراميات في أي عصر من العصور وسيلة للدبلوماسية الناجحة التي تنهض بالدول والشعوب .

ومن ثم انتهى دور كليوبترا بالإخفاق والانتحر .

لقد فتنت وقتاً ما يوليوس قيصر وهو في أوج سلطانه ، وانتهى الأمر إلى أن لقي مصرعه على يد برونس وشركائه .

وحين آل أمر الدولة الرومانية إلى أنطونيوس وأوكتافيوس أرادت أن تأسر كليهما واحداً بعد آخر ، لتضمن لنفسها على العرش .

ولقد أنلحت في السيطرة على أنطونيوس ، فوقع في شرك حبها ، ونسى واجبات منصبه ، وتزوج بأوكتافيا أخت أوكتافيوس ، ولم يمنعه هذا الزواج من أن يعود إلى غرام كليوبترا .

ويقول بعض المؤرخين إن كليوبترا لم تكن أجمل من أوكتافيا ، ولم تكن تفضلها إلا بأنها سيدة لعوب ، تأسر الرجال بعثها وجاذبيتها وعذوبة حديثها .

ولم تكن ترى في الحب ارتباطاً شريفاً ، بين قليين متحابين يجمع بينهما الإخلاص والوفاء المتبادلان ، بل كانت ترى فيه مصيدة للرجال ، تأسرهم به واحداً بعد آخر ، غير ناظرة إلا إلى

١٤١١ وأموالها. ومثل هذا النوع من المجون هو أبعد ما يكون عن الحب الشريف ، وأقرب
إلى الفساد والتدهور والسقوط الأدبي والمعنوي .

وأما من أجل ذلك كانت شوّما على من أحبّتهم أو تظاهرت بالحب لهم .

قبل إنها أحببت ابن بومبي خصم يوليوس قيصر ، وأمّدتته بنجدة بحرية ولكن بومبي آل
إلى القتل ، إذ لقي مصرعه على شاطئ بيلوز سنة ٤٨ ق . م . ، وأحبها يوليوس قيصر
مصرعه في روما إذ طعنه بروتوس وشركاؤه طعنات قاتلات في الوقت الذي كانت كليوبترا
عيشة الهوى والغرام على ضفاف نهر التيبير .

١٤١٢ لقي يوليوس قيصر مصرعه بادرته هي بالرحيل عن روما وعادت أدرأجها إلى مصر .

١٤١٣ أحبها أنطونيوس أعماه الحب عن واجباته نحو دولته ، وتردى في هوة الانحدار والسقوط
معد مكانته ومنى بالهزيمة وفي واقعة أكتيوم سنة ٣١ ق . م . وانسحبت كليوبترا من المعركة
لتنقاسم أنطونيوس مرارة الهزيمة ، وعادت إلى مصر ، وعاد إليها هو أيضا ثم لم يلبث أن
الدم بتأثير اليأس والإخفاق والهزيمة .

١٤١٤ فتملكها اليأس ، وعرفت المصير الذي كان ينتظرها لو بقيت على قيد الحياة ، فإنها ولا ريب
كانت ستساق أسيرة ذليلة مكيلة بالقيود والأغلال تجتاز شوارع روما في موكب النصر
لأولئك المحبوس الظافر .

١٤١٥ وتذكرت أنها ستلقى المصير الذي لقيته أختها (أرسينوى) حيث سارت مكيلة بالأغلال
في موكب النصر الذي أقيم ليوليوس قيصر ، فأثرت الموت على هذا المصير ، وانتحرت
٣٠ ق . م .

وانتهى بانتحارها حكم البطالة في مصر .

الفصل الرابع عشر

مقاومة مصر للاستعمار الروماني وعصر الشهداء

صارت مصر ولاية تابعة للدولة الرومانية بعد انتصار أوكتافيوس على أنطونيوس في واقعة
أكتيوم سنة ٣١ ق . م . ، وانتحار أنطونيوس وكليوبترا سنة ٣٠ ق . م . ودخول أوكتافيوس
الإسكندرية ظافراً (أول أغسطس سنة ٣٠ ق . م .) .

واعتمدت الدولة الرومانية على قوتها الحربية لتثبيت مركزها في مصر ، فأبقت بها حامية
من نحو ثلاثين ألف مقاتل كانت كافية لإخماد الثورة فيها .

يقول (هارولد بل) في هذا الصدد : « كانت إفريقية ومصر الموردان الرئيسيين
للغلال إلى الإمبراطورية الرومانية ، أما إفريقية ولاية تابعة لمجلس الشيوخ ، هدأت أحوالها
منذ أمد طويل ولم تصبح في حاجة إلى قوة حربية وأما مصر فنظراً لقرب عهدها بالغزو
الروماني ، ولشهرتها بالشغب والاضطرابات ، كانت في حاجة إلى حامية قوية ، فأبقى
أوكتافيوس فيها ما لا يقل عن ثلاث فرق مضافا إلى ذلك القدر المقرر لتلك الفرق من
القوات المساعدة » (١) .

لم يكن استيلاء الرومان على مصر أمراً مستغرباً .

فإن دول أوروبا جميعاً قد دانت الدولة الرومانية ، واستقرت سيطرتها على جميع الشعوب
التي تحيط بحوض البحر المتوسط ، ولم يبق خارجاً عن سيطرتها سوى بعد الدول في آسيا والقبائل
المتبررة شمالي الدانوب .

وانفرد أوكتافيوس بادئ الأمر بالسياسة العليا في الدولة الرومانية ، ولقب (أغسطس -
العظيم) وصار الرئيس الأعلى للدولة ، فصارت له سمات الإمبراطور ، وانتهى بذلك عهد
الجمهورية الرومانية ، وبدأ عهد الإمبراطورية في روما والبلاد التي تبعتها .

وتولى ولاية من قبل روما شؤون الحكم في مصر .

وضت الإسكندرية عاصمة البلاد كما كانت في عهد البطالة ، ومقرها للوالي الروماني ،
واستمرت اللغة اليونانية لغة الدولة الرسمية .

(١) هارولد ا . بل - مصر البطالية - تعريب الأستاذ زكي على ص ٩٢ .

وبلغت أملاك الدولة الرومانية ذروتها في عهد الإمبراطور تراجان Trajan فكانت تمتد من نهر دجلة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن إنجلترا إلى الصحراء الكبرى جنوباً . ولم يكن حكم الرومان خيراً من حكم البطالة ، فلقد جعلوا مصر مستعمرة رومانية ، وعاملت روما الشعب المصرى كأنه شعب مقهور على أمره .

وميز الرومان اليونانيين واليهود على المصريين ، لعلمهم أنهم لا يكثرثون إلا لمصالحهم الشخصية ، ولا ينظرون إلى مصر إلا من الزاوية الإستعمارية وبعد وفاة أغسطس تولى الحكم بعده الإمبراطور نيربوس . وفى عهده حظر الرومان على المصريين حمل السلاح ، ومن يحمله كان يحكم عليه بالإعدام ، وذلك خوفاً من ثورتهم^(١) على أن سكان الإسكندرية أظهروا حنقهم على اليهود عملاء الاستعمار الرومانى .

واهتم الرومان بمصر وإستبقائها فى حوزتهم لأنها كانت أعظم مورد للقمح إلى روما .

مظالم الحكم الرومانى

كانت مظالم الحكم الرومانى لا تقل عن مظالم البطالة ، كلاهما كان يعتبر مصر مستعمرة له ، وكلاهما كان يرهق الشعب ويتر من أكثر ما يمكنه من الضرائب . ولم يكن للعدل ظل من الوجود فى هذا العهد .

وكان الرومان واليونانيون واليهود هم المميزون فى عهد الاستعمار الرومانى أما الشعب المصرى فكان يعانى الاضطهاد والضيق والحرمان . وساءت الحالة الاقتصادية فى البلاد .

وفى ذلك يقول (هارولد بل) : « وقصة مصر الرومانية على أى حال سجل أليم للاستغلال المنطوى على قصر النظر ، والذى كان مصيره المحتوم أن يودى بالبلاد إلى خراب اقتصادى واجتماعى ، وقد أشرت من قبل إلى ما تنطوى عليه النظرية الباطلة التى تقضى باعتبار معاملة أمة من الأمم على أساس أنها مجرد ضيعة تستغل لصالح حكامها وسادتها ، إلى أن قال : « وكان جزء كبير من القمح الذى يقدمه الفلاحون المملكون على سبيل الإيجار أو يدفعه ملاك الأراضى كضريبة ، وكذلك الضرائب النقدية العديدة ، كل هذا يشحن إلى روما لينتفع به الشعب الرومانى مع ما فى هذا من خسارة جسيمة فادحة بالنسبة لمصر^(٢) . إلى أن قال : « وتمسك الرومان بأهداب الفكرة الأساسية ، وهى أن مصر بقرة حلوب ، تدر لبنها لصالح روما وما يعود عليها

بالخير ، ولا ريب أن تلك البقرة كانت غنية بلبنها ، ولكن روما حرصت على الإفراط فى استنزاف ذلك اللبن إلى آخر قطرة بانتظام » ، ثم قال : « وحتى قبل القرن الأول الميلادى بدت البوادر المنذرة بالسوء ، فالفيلسوف اليهودى فيلون Philo عندما كان يؤلف كتيبه فى عهد كاليغولا Caligula وكلوديويس Claudius قدم صورة فظيعة للأحوال السائدة فى عصره ، فتحدث عن حياة الضرائب الذين لم يكونوا يتورعون عن الاستيلاء على موبياء العاجز عن سداد الضرائب المستحقة عليه ، كمن يكرهوا ذوى قرياه على دفع المتأخرات ، كما أشار إلى الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقرباء الذين زج بهم فى غياهب السجون ولاقوا أصناف التعذيب ، كمن يعترفوا بمكان الهارب المطلوب ، كما تحدث عن قوى برمتها بل ، ومدن هجرها سكانها ، وفى تاريخ مبكر يرجع إلى عام ٢٠ بعد الميلاد ، بدأنا نسمع عن التجاء دافعى الضرائب إلى الفرار والاعتصام بأحد المعابد ، وفى بردية كتبت فى تاريخ يتراوح بين عام ٥٥ و٦٠ م . أبلغ الجباة الموكلون بتحصيل ضريبة الخراج الرأسى من مست قرى بالإقليم الأرسينوينى (الفيوم) ، فى تقرير ضمنوه أن « السكان فى القرى سالفة الذكر ، بعد أن كانوا كثيرين تضاعف عددهم إذ ذاك وانكماشوا حتى أصبحوا قلة من بضعة أفراد ، لأن البعض أثر الفرار بعد أن ضاقت سبل الرزق فى وجوههم ، والبعض الآخر أدركهم الموت دون أن يتركوا ذرية من بعدهم » ، إلى أن قال : « ويبدو أن الإجراءات التى أخذها تيريوس بوليوس الإسكندر قد أثمرت وأتت أكلها ، لأنه ليس من قبيل الصدف فى أغلب الظن أن ما بقى من سجلات يرجع تاريخها إلى النصف الثانى من القرن الأول ، اشتملت على بيانات أقل من سالفاتها عن وجود اضطراب خطير ، ولكن بدعة فى النظام الإدارى كان قد سبق إدخالها فى مصر وقدر لها أن تكون ذات أثر وخيم ، فالبيروقراطية البطلمية كانت بصفة خاصة مخترفة ، تعتمد على التطوع فى الحصول على الموظفين والأيدى العاملة فيها ، وجباية الضرائب تجرى عيها عن طريق طرحها فى مزاد يشترك فيه الملتزمون الذين كانوا يتقدمون بعهدهم بمحض حريتهم ، والمستأجرون المملكون ، على الرغم مما كان يفرض على حريتهم فى التنقل من قيود ، كانوا يتقدمون بطلباتهم بمحض الاختيار لإبرام عقود الإيجار لهم ، وفى أوقات الأزمات والملمات كانت الحكومة تعتمد إلى أدراج أسماء الأشخاص الذى تتوسم فيهم الأهلية والصلاحية ضمن موظفيها ، حتى ولو كان هذا ضد إرادتهم ، كما كانت الحكومة تعتمد على إجراه الملتزمين فى جباية الضرائب على الاضطلاع بعقودهم وإلى إجراه الفلاحين على قبول عقود الإيجار » .

ثم قال : « وتطبيق هذا النظام بشدة لا هواده فيها أدى الأمر إلى القضاء أولاً على الفلاحين الموسرين ، ثم على الطبقة الوسطى ذات الغنى واليسار ، على أن الإجراه والإيجار لم يقتصر على هذا النطاق ، فإن الشروط المعروضة على الفلاحين المستأجرين لأراضى الدومين لم تكن سخية ، كما أن الترضيات والإعفاءات التى كانت تبذل فى أوقات الضنك الاقتصادى والضيق المستحکم كانت مرموقة بالبعض والحق ، إلى حد أنه أصبح من المستحيل فى بعض الأحيان العثور على من يتقدم للمزايدة فى العطاءات طوعاً واختياراً ، وفى مثل هذه الأحوال ، كانت الدولة تلجأ إلى الإجراه

(١) فيكتور شابو Victor Chapot - مصر الرومانية L'Égypte Romaine ص ٢٤٨

(٢) هارولد بل - مصر الهلانية ص ١٠٣

الثورة في الشمال الشرقي من الدلتا

وشبت الثورة في الشمال الشرقي من الدلتا ، بتل المسخوطة ، فأخذتها القوة .

الثورة في النوبة

وكان أهل النوبة قد عاونوا ثوار طيبة في كفاحهم ضد المستعمرين الجدد (الرومان) . فلما نجح الحاكم الروماني في إخماد ثورة طيبة ، زحف جنوباً لإخماد الثورة في النوبة فيما وراء شلال أسوان ، ولكنه لم يوفق في إخمادها ، وترك لأهل النوبة استقلالاً ذاتياً ، واعترموا بالسيادة الرومانية اسماً لا فعلاً .

ثم قام النوبيون في نحو سنة ٢٤ ق م . بثورة جامحة ، وهاجموا الحاميات الرومانية في صعيد مصر ، فاستعد الرومان لإخماد هذه الثورة وأخمدوها واستولوا على نبالا عاصمة النوبة ، ونهبوها . وبعد عامين من إخماد هذه الثورة قامت الملكة (كانداكي) وزحفت على الرومان عند قلعة إبريم ، وإذ تعادلت القوتان عقد صلح بين الرومان والنوبيين ، كان من أهم شروطه إعفاء النوبة من دفع الجزية للرومان ، واستمر السلم لفترة طويلة . وأقام الرومان الحصون والمعازل في بعض بلاد النوبة كالدكة وكلاشبة وقرطاسة وإبريم . ولا تزال آثار هذه الحصون باقية إلى اليوم .

عداء المصريين للرومان واليهود

رأى المصريون من مملأة الرومان لليهود في الإسكندرية ما زادهم سخطاً على الاحتلال الروماني ، وثارَت الإسكندرية على اليهود عملاء هذا الاحتلال كما كانوا عملاء الاحتلال البطلمي من قبل .

وفي عهد الإمبراطور تراجان جدد بناء حصن بابلون ليكون المقر الرئيسي للحامية الرومانية . ولا تزال آثار هذا الحصن قائمة إلى اليوم بمصر القديمة ، وهو الحصن الذي قاوم العرب سنة ٦٤١ م ، حين فتحهم لمصر .

ظهور المسيحية في مصر

إن الاضطهاد الذي وقع على المصريين من الحكم الروماني كان من أسباب انتشار المسيحية في مصر .

فقد قام القديس مرقس Saint Marc أحد حواربي السيد المسيح إلى الإسكندرية ، وبشر بالمسيحية السمحة ، فاعتنقها الكثيرون .

والإجبار بإحدى وسيلتين إما يضم ما يؤجر من الأرض في نطاق قرية ما إلى قرية أخرى حيث يقع عبء زراعتها على كاهل القرويين بتوزيعها عليهم عن طريق القرعة ، وإما باللجوء إلى وسيلة يطنق عليها (العبء الإضافي) وبمقتضاها كانت أنصبة من أرض الدريمن تقطع وتلحق بأرض المنكية الخاصة ، حيث يضطر ملاكها أن يزرعوها مع أملاكهم الخاصة ، وبهذه الطريقة كاد أن يؤول الأمر في النهاية بأرض الدومين إلى أن يعثرها الزوال في العصر البيزنطي ، بأن تبتلعها الأرض الخاصة التي أصبحت مرتبطة بها ، وفي حالة تطبيق الطريقة الأولى المنطوية على التوزيع كانت الجماعة كلها مسؤولة عن زراعة الأرض وبالتالي عن دفع الضرائب (وهذا هو بيت القصيد) ، أما في حالة تطبيق الطريقة الثانية فكل فرد مسؤول عما التزم به ، ولكن ظهرت المسؤولية الجماعية باطراد ، على حد قول فيلون ، بمضى الزمن واتخذت طابعاً عاماً : فإذا توارى واحد من دافعي الضريبة المستحقة عليه تجبى من زملائه من أعضاء الجماعة ، وإذا عجز مستأجر عن دفع ما عليه أو هرب مالك للأرض فإن واجب فلاحه هذه الأرض كان يقع على الآخرين ، وفضلاً عن ذلك فإن أولئك الذين كان من واجبهم ترشيح شاغلي الوظائف - سواء أكانت مما يدخل في نطاق الوظائف التي يؤجر عليها شاغلوها أم الوظائف الشرفية - اعتبروا ضامنين ، بل إنهم كانوا أنفسهم مسئولين عما قد ينشأ من عجز بسبب المرشحين من قلوبهم ، ولا بد أن الفرد أخذ يشعر شيئاً فشيئاً على توالي السنين بوقوعه داخل شبكة ضاقت منافذها وأحكمت حلقاتها ، حتى لم تعد تسمح لأحد بالفرار منها^(١) .

وظلت مصر تزحج حكم الرومان سبعة قرون بدأت من سنة ٢٠ ق م . وانتهت بالفتح العربي عام ٦٤٠ - ٦٤٢ ميلادية على يد عمرو بن العاص .

الثورات على الرومان

الثورة في منطقة طيبة

لم تكف تمضى بضعة أشهر على الغزو الروماني حتى نشبت الثورة في الوجه القبلي . وكانت (طيبة) معقلها ، كما كانت معقل الثورات في عهد البطاللة ، ونكل الثائرون بجباة الضرائب من الرومان .

فجردت الحكومة حملة على طيبة بقيادة جالوس الحاكم الروماني ، وكان أول حاكم على الإسكندرية . فأخذ الثورة ونكل برجالها ، واستولى على خمس مدن ، منها فقط والأقصر وأسوان ، وتقدم إلى ما وراء الشلال الأول .

(١) هارولد بل : اهلبينية في مصر . تعريب الأستاذ زكي على ص ١٠٦ .

وكان اعتقاد المصريين القدماء في البعث بعد الموت ، ومعاناتهم لظلم الرومان ، مما سهل لهم اعتناق المسيحية ، إذ رأوها تبشر بحياة أفضل من الوثنية .

اضطهاد الرومان للمسيحيين في مصر

حين ظهرت المسيحية في مصر ، كانت روما لا تزال على الوثنية ، وكذلك أباطرتها ، فحاربوا المسيحيين واضطهدوهم في أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، واضطهدوا الأقباط في مصر .
وحين تولى الإمبراطور دقلديانوس Diocletien عرش روما سنة ٢٨٤ ميلادية شنّ على المسيحيين (الأقباط) اضطهاداً دام نحو عشرين عاماً قاست فيها مصر الشدائد والأهوال ، واستشهد خلالها الألوف من المصريين المسيحيين (الأقباط) .

ودقلديانوس هذا هو المقام له العمود المعروف بعمود السوارى أو ما يسمى خطأ عمود بومبي ، وهو قائم إلى اليوم بالإسكندرية .

اشتهر عهد دقلديانوس باضطهاد المسيحيين (الأقباط) منذ أواخر القرن الثالث بعد الميلاد ، على نحو فاق كل ما أصابهم من قبل .

وسمى عهده (عصر الشهداء) لكثرة من استشهد فيه من المصريين المعتنقين للمسيحية .
وقد جعل الأقباط بداية التقويم القبطى سنة ٢٨٤ م . وهى السنة التى بدأ فيها حكم دقلديانوس ، وسمى عهده بحق عصر الشهداء .

وتخليداً لذكرى أولئك الشهداء جعلوا التقويم يبدأ بالسنة التى بدأ فيها هذا الاضطهاد الشديد .

وقد كان تمسك المصريين المسيحيين (الأقباط) بعقيدتهم ، من ضروب المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الرومانى .

قال المؤرخ القريزى عن اضطهاد دقلديانوس للأقباط ما يلى : « إنه أوقع بالنصارى فاستباح دماءهم ، وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى . وحمل الناس على عبادة الأصنام ، وبالغ فى الإسراف فى قتل النصارى » . إلى أن قال : « وكالت واقعته بالنصارى ، هى الشدة العاشرة وهى أشنع شدائدهم وأطولها ، لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين لا يفتر يوماً واحداً يحرق كنائسهم ويعدب رجالهم ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل ، يريد بذلك قطع أثر النصارى وإبطال دين النصرانية من الأرض ، فلهذا اتخذوا ابتداء دقلديانوس تاريخاً »^(١) .

هذا . وقد كان لاضطهاد الرومان للمصريين أثره فى ارتياحهم للفتح العربى سنة ٦٤٠-٦٤٢ م ، إذ رأوا من عدل العرب وتسامحهم الدينى ما جعلهم يتقبلون هذا الفتح كمنقذ لهم من اضطهاد الرومان .

اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية

وفى عام ٣٢٤ ميلادية أعلن الإمبراطور قسطنطين اعتناقه للمسيحية ، وهو الذى اتخذ بيزنطة (القسطنطينية) ، عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

عودة الفرس لاحتلال مصر ثم إجلاؤهم عنها

وفى سنة ٦١٤ م ، قبل الفتح العربى لمصر بسنوات ، هاجم الفرس الرومانى فى سورية وفلسطين ، واستولوا على دمشق وبيت المقدس سنة ٦١٥ م .

ثم هاجموا فى مصر ، وحاصروا الإسكندرية إلى أن فتحوها سنة ٦١٧ م وأخضعوا مصر سنة ٦١٨ ، وبلغوا فى فتوحهم أسوان ، وبقي الفرس نحو عشر سنوات محتلين البلاد^(١) .

ثم لم يلبث هرقل إمبراطور الرومان أن أعاد الكرة ، فحارب الفرس وأجلاهم عن مواقعهم فى آسيا الصغرى ، وعن سورية وبيت المقدس ، ثم عن مصر سنة ٦٢٧ م .

وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : ﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ﴾^(٢) .

وقد ظهرت دعوة محمد ﷺ ، إذ نزل عليه الوحى سنة ٦٠٩ ميلادية وهاجر من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٢ (أول سنة للتاريخ الهجرى) فى الوقت الذى كان الرومان يحاربون فيه الفرس .

استمرار الاضطهاد الدينى فى مصر

بعد اعتناق الرومان للمسيحية

بالرغم من اعتناق أباطرة الرومان للمسيحية ، فقد استمر الاضطهاد للمذاهب المسيحية فى مصر ، عدا مذهب الحكومة .

لقد تمسك المسيحيون المصريون (الأقباط) بمذاهبهم المناهض لمذهب الأباطرة ، فكان من شأن ذلك أن أسخ على الحركة المسيحية فى مصر طابعاً قومياً ، وأصبح رجال الكنيسة زعماء المصريين فى الحركة الروحية والوطنية معاً .

(١) هذه التواريخ قد حققها بطر فى كتابه (فتح العرب لمصر) بالملحق الثانى منه ص ٤٣٢ .

(٢) سورة الروم : الآيات من ٢ - ٤ .

(١) القريزى : اللواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٢٦٢ .

الفضل الخامس عشر

الفتح العربي لمصر

(سنة ٦٤٠ - ٦٤٢ م)

فتح العرب مصر في القرن السابع الميلادي (الأول للهجرة) . وكان هذا الفتح دوراً من أدوار الوحدة العربية . ولقد قلنا تفسيراً لهذه الظاهرة التاريخية ، « وإذ كانت الرسائل الروحية من أركان الحضارة البشرية ، فإن الشرق العربي هو أيضاً موطن هذه الرسائل . »
« إبراهيم الخليل (أبو الأنبياء) ، قد نشأ عربياً في جنوب العراق منذ نحو ألفي سنة قبل الميلاد ، ودعا إلى التوحيد ، ورحل إلى فلسطين فمصر ، ثم إلى الحجاز ، وبنى الكعبة في مكة مع ابنه إسماعيل . »

﴿ إِنَّ أَوَّلَ نَبِيٍّ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيَّنَّا مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾^(١) .

﴿ وَإِذْ نَرَفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ . رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢) .

« وفي جبل سيناء كلم الله موسى تكليماً . »

« وفي فلسطين نشأ السيد المسيح الذي أصابه من اضطهاد الرومان والإسرائيليين ما أصابه ، وعلى يده ظهرت المسيحية السمحة ، الداعية إلى الإخاء والسلام ، لا إلى البغى والعدوان . »

« وفي ظلال البيت الحرام نشأ محمد ﷺ ، ونزل عليه الوحي سنة ٦٠٩ م ، ودعا إلى رسالة الإسلام ، رسالة التوحيد والإيمان ، فتصدى له قومه وحاربه ، وهاجر إلى المدينة في السنة الأولى للهجرة (٦٢٢ م) وبهجرتهم يبدأ التاريخ الهجري . »

« وفي السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م) ، سار لفتح مكة بعد أن نقض أهلها عهد الحديبية ، فتم له فتحها ، وكان لهذا الفتح أثره وفضله في توحيد كلمة العرب . »

« وقد انتشر الإسلام أول ما انتشر بين سكان الجزيرة العربية ، ولما توفي الرسول (محمد

(١) سورة آل عمران (٩٦ - ٩٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٢٧) .

وجاء مسلك أباطرة الرومان مظهرًا من مظاهر التعصب الديني ، وجاء دليلاً على أن اعتناقهم المسيحية لم يكن له أثر في حملهم على التسامح الديني حتى مع شركائهم في أصل العقيدة .

وكان التعصب المذهبي شديداً يفي عهد هرقل آخر أباطرة الرومان الذين حكموا مصر . فقد سعى هرقل جهده في توحيد المذاهب المسيحية ، وعقد لذلك مجمعاً في خلقيدونية^(١) ، حضره بطاركة الشام والقسطنطينية ، وأقرروا مذهباً مسيحياً موحداً ، وأمر هرقل كل انواطيين في الشام ومصر أن يتبعوا المذهب الموحد ، فكان من ذلك اضطهاد المسيحيين الأحرار ، وكانت الكنيسة الشرقية من أجل ذلك موضع سخطهم ونقمتهم .

ومن مظاهر الاضطهاد أن عين هرقل سنة ٦٣١ قيرس (المقوقس)^(٢) بطرقاً لإسكندرية ونائباً عنه بمصر ، وطلب إليه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب المسيحي الموحد ، فأبى الأقباط عليه ذلك .

وكان بنيامين^(٣) كبير أساقفة الأقباط في مصر يتولى بطرقة الإسكندرية ، فعارض المذهب الجديد ، فاضطهده قيرس واضطره إلى الهجرة إلى الإسكندرية ، تفادياً من اضطهاد ، وظل مختفياً في أديرة الصعيد ، ولم يظهر إلا بعد الفتح العربي لمصر .

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على الساحل الآسيوي للبيسفور .

(٢) ليس من شك في أن قيرس هو المقوقس ، وقد برهن جيل على هذه الحقيقة بأدلة مستفيضة ذكرها في

الملحق الثالث من كتابه (فتح العرب مصر) ص ٥٤٢ وما بعدها .

(٣) يسميه ابن عبيد الحكم والمقريزي (أبو ميامين) .

مكة (في السنة الحادية عشرة من الهجرة (٦٣٢ م) ، خلفه أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ، فوحد كلمة العرب في شبه الجزيرة واستخلص هذه الوحدة من أيدي المنتفضين عليها من البرتنين ، واتجه إلى توحيد كلمة العرب عامة ، فأنفذ إلى العراق سنة ١٢ هـ (٦٣٤ م) جيشاً عهد بقيادته إلى قائد من خيرة قواده ، وهو خالد بن الوليد ، فاستخلص العراق من أيدي الفرس في حرب خاطفة ، جعلت اسمه في مصاف عظماء القواد في التاريخ ، وأنفذ جيوشاً أخرى إلى بلاد الشام ، وكانت تحت حكم الروم البيزنطيين (الرومان) ، وأمر خالد بن الوليد أن يسير إلى الشام ليقود هذه الجيوش ، فانتقل من العراق إلى الشام ، وقاد الجيوش العربية ، وهزم الروم البيزنطيين في واقعة (أجنادين) بين بيت المقدس وغزة (سنة ٦٣٤ - ١٣ هـ) .

« وفي أعقاب هذه الواقعة زحف الجيش البيزنطي على مواقع الجيش العربي ، فالتحم الجيشان في واقعة (اليرموك) شرقي نهر الأردن ، وانتصر الجيش العربي بقيادة خالد بن الوليد انتصاراً ميبناً (أول سبتمبر سنة ٦٣٤ م) ، وبهذه المعركة الحاسمة قضى على دولة البيزنطيين في الشام .

« ولما توفي أبو بكر الصديق قبيل واقعة (اليرموك) ، تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب ، وفي عهده تم فتح العراق على يد قائد عربي محنك هو سعد بن أبي وقاص الذي هزم الفرس في معركة (القادسية) بالعراق .

« وكانت معركة القادسية فاصلة لصالح العرب في العراق ، كما كانت واقعة اليرموك في الشام .

« وأنفذ عمرو بن العاص إلى مصر وكانت تحتكم البيزنطيين أيضاً ، فاستخلصها من أيدي البيزنطيين سنة ٦٤٠ - ٦٤٢ م ، وفتح بركة سنة ٦٤٣ م ، واستقبلت الشعوب دخول العرب هذه البلاد لا كغزاة فاتحين ، بل كمنقذين لهم من اضطهاد الفرس والروم البيزنطيين ، وخاصة لأن هذه الشعوب بحكم موقعها أقرب إلى العرب نسبياً وأصولاً وروابط اقتصادية وثقافية وروحية ، بل كان معظمهم عرباً من قبل ، فلا غرو أن انضموا إلى الوحدة العربية راضين مختارين ، وصاروا جزءاً من الدولة العربية ، وقد زاد في تعلقهم بها ما رآه من عدل الخلفاء الراشدين وولائهم ، ومساواتهم بين الناس ورفقهم بالأهلين »^(١) .

ماذا كانت عليه حال مصر قبل الفتح العربي

لكي نتفهم كنه الفتح العربي ، يحسن بنا أن نتعرف حالة مصر قبل هذا الفتح ، فإنها ولا شك تطالنا بحقيقته وغايته ، وأنه كان إنقاذاً لها من الاضطهاد الديني وفساد الحكم الروماني . فالرومان كانوا يعتبرون مصر مستعمرة لهم يستغلون خيراتها ، ويغتصبون أموالها ، وكان

نوابهم فيها يعاملون الأهلين معاملة جائرة ، لا عدل فيها ولا إنصاف ، وحكام البلاد من رواد الاستعمار يرهقون الأهلين بالضرائب الفادحة لكي يملكو خزائن الأباطرة الرومان ويشبعوا أهواءهم ، والاضطهاد الديني يعصف بحرية العقيدة ويزيد النفوس سخطاً ومرارة ، فنواب الرومان يعملون على إجبار الأهلين على اعتناق المذهب الرسمي المسيحي للدولة ، ولا يقبلون منهم أن يمارسوا عقيدتهم في حرية واختيار ، وكان من آثار هذا الاضطهاد أن حورب الأسقف (بنيامين) بطريق الإسكندرية ، لأنه رفض الإذعان لهذا الاضطهاد واضطره قيرس (المقوقس نائب هرقل) كما سلف القول ، إلى الهجرة من الإسكندرية والاختفاء بأديرة الصعيد عدة سنوات ، ولم يظهر إلا بعد الفتح العربي الذي أطلق الحرية الدينية من عقابها .

يقول دييهل Diehl في كتاب (مصر المسيحية والبيزنطية) يصف هذه الحالة^(١) :

« في أوائل القرن السادس للميلاد كانت الحالة في مصر خطيرة ، ففداحة الضرائب التي فرضها الرومان قد أقمرت البلاد ، وأوجدت سخطاً شديداً بين الأهلين ، واتترنت الأزمة الاقتصادية بأزمة اجتماعية ، وكانت الرشوة وفساد الحكام تزيد من هذا السخط ، وقد سعى الإمبراطور جوستينيان Justinien في القسطنطينية لإصلاح هذه الحال ، ودمغ الإدارة في مصر بالفساد » .

وقال عن الحالة فيها : « إن الفوضى قد تفاقمت لدرجة أنه لم يكن معروفاً في القسطنطينية ما يجري هناك ، وقد انتشر الفقر في مصر وازداد السخط على الحكم البيزنطي ، فصارت البلاد في حالة انتفاض على هذا الحكم تشبه الثورة » .

وفي أواخر عهد الحكم البيزنطي كانت الضرائب الباهظة ترهق الشعب ، وكانت الطبقات الفقيرة من الفلاحين تسام الخسف من هذه المعاملة ، وموظفو الحكومة يظلمونهم ويتساهلون مع الأغنياء .

وفي هذا الصدد يقول (ألفريد بتلر) Alfred Butler في كتابه (الفتح العربي لمصر) : « وفي الحق لم يكن في بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى حالاً من مصر ، فقد سعى « جستنيان » جهده ليجبر الأقباط الذين لبسوا على مذهب الدولة « الأرثوذكسي » فدخلهم في ذلك المذهب ، ولكن امرأته (تيودورا) ، عملت من جانب فأفسدت بعض سعيه ، إذ كانت تعطف على مذهب هؤلاء الأقباط عطفاً ظاهراً ، على أن ذلك العطف ما عتم أن قضى عليه الإمبراطور جستنيان وعفى أثره ، ومن ثم عاد الكفاح الشديد الذي ثار قديماً بين طائفتي (الملكانيين^(٢)) والمونوفيسيين (اليعاقبة وهم عامة أهل مصر) وصار أشدَّ سعيراً ، ولم يكن عند أقباط مصر هم أكبر منه يملأ قلوبهم ويملك عليهم أمالهم ، فلم يكن عجباً أن يُسمع صليل السلاح بين حين وآخر في مدينة

(١) دييهل Diehl مصر المسيحية والبيزنطية L'Égypte Chrétienne et Byzantine - ص ٤٥٤ و ٥٢١ .

(٢) نسبة إلى الملك أو الإمبراطور البيزنطي .

(١) الوحدة العربية في خلال العصور - من كتاب (ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢) ص ٣٣٣ .

المقوقس

وقد عين هرقل سنة ٦٣١م الأسقف قيرس (المقوقس) وهو روماني من أصل يوناني نائباً عنه في مصر ، وبطرقاً ملكياً للإسكندرية عاصمة البلاد وقتئذ .

وجاء المقوقس الإسكندرية في تلك السنة ، واضطهد الأقباط لإجبارهم على اتباع مذهب الحكومة الدينية . وكان من مظاهر هذا الاضطهاد هجرة البطرك بنيامين من الإسكندرية قبل فتح العرب لمصر بستين كما سلف القول .

يقول ألفريد في هذا الصدد :

« لا يذكر في ذلك العصر كله في أثناء الاضطهاد إلا شيء واحد ، وهو أن الزمان كانوا يخيرون الناس بين قبول مذهب خلقيدونية بنصه ، وبين الجلد أو الموت ، ولم يكن في عقول مؤرخي الأقباط إلا هذا الاعتقاد يدونونه في دواوينهم ، فيلوح من ذلك أن قيرس أحس بإخفائه في سعيه من مبدأ الأمر ، وكان يود أن يحمل الأقباط على المذهب الذي تقرر مهما تكلف في سبيل ذلك ، فلم يعبأ بعد بما أدخله الإمبراطور على هذا المذهب من التهذيب ، بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تعقيد فيهما ، وهما قبول الدخول في الجماعة أو الاضطهاد .

« وكانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد قيرس (المقوقس) ، يصرفها كيف شاء ، وكان جيش الرومان مرة أخرى يملك مصر ، فكانت طرق الإسكندرية البراقة تتجاوب جوانبها بأصداء الكتاب البيزنطية إذ تسير فيها ، وعادت جنود الروم إلى الأسوار العظيمة أسوار المدينة وأطامها ووضعت عليها آلات حربها ، وبعثت المسالخ إلى مدينة الفرما (بيلور) وهي ثغر الطريق الآتية من فلسطين إلى مصر ، وإلى بلاد مصر السفلى مثل أثريب ونقيوس ، وكذلك إلى الحصن العظيم حصن (بابلون) بقرب منف ، ومن ثم عاد سلطان الروم فانتشر على بلاد الفيوم ووادي النيل ، حتى بلغ الحدود من الجنوب عند أسوان في أسفل الجنادل ، وكانت كل تلك الجنود والكتائب عند أمر (قيرس) ماثلة لإنقاذ أمره إذا مادعاها ، ولم يتحرك الأقباط بطبيعة الحال عندما عاد جند الروم إلى البلاد ، ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثاً يحمدهم ويفرحون من أجله ، فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب فكانهم وقد خرجوا من حكم الفرس إلى حكم الروم ، قد رُفِع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب ، إذ بينما كان غزاة الفرس بعد أن استقر بهم الأمر في البلاد لا يحولون على الأقل بين الأقباط وبين التندين بما يشاءون من الدين ، جاء (قيرس) المقوقس فعول على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينزعها من أيديهم . »

الإسكندرية نفسها (العاصمة) ، ولم يكن عجباً أن تضطرب الأحوال في مصر السفلى فتصبح ميداناً للشغب ، تتور بها فتن بين الطوائف. توشك أن تكون حرباً أهلية ، ولم يكن عجباً أن يكون هذا في بلاد أصبح الحكام فيها لا هم لهم إلا أن يجمعوا المال لخزائن الملك البيزنطي وحاشيته ، وأن تكون لذتهم الدينية اليد العليا بين أهل البلاد ، فصار الحكم على أيديهم أداة لا تؤدي إلا إلى الظلم ونشر الشقاء ، فالحق هو أن بلاد مصر إذ ذلك كانت جميعها تضطرب بنار الثورة ورغبة الخروج ، لا ينجبها إلا غطاء شفاف من الرماد»^(١) .

وقال بتلر في موضع آخر :

« أرسل الإمبراطور هرقل إلى نيقتاس يثبه في حكم الإسكندرية ، وإن شئت قلت إنه جعله نائباً عن الملك في مصر ، فكان هم (نيقتاس) أن يعيد للحكم المدني الروماني نظامه ، وأن يعيد للجيش الروماني كيانه ، وكان هذان أداتى الدولة الرومانية تحتفظ بها بملك مصر ، وكان الحكم المدني والجيش كلاهما في يد السادة الحاكمين ، ليس فيهما أحد من أقباط مصر أهل البلاد»^(٢) .

وقال أيضاً : « إن حكومة مصر - في عهد الرومان - لم يكن لها إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية وترقية حالة الناس والعلم بهم في الحياة ، أو تهذيب نفوسهم ، أو إصلاح أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغبراء لا يعتمد إلا على القوة ، ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم»^(٣) .

وكان في يد الحكام عاصمة البلاد الإغريقية (الإسكندرية) كما كان في يدهم العاصمة المصرية القديمة (منف) ، وحصنها العظيم (حصن بابلون) الروماني على الشاطئ الشرقي من النيل ، وكذلك كانوا يملكون مدائن عدة حصينة على بعضها بعضاً بين أسوان في الجنوب والفرما في الشمال ، وكان جند الحكومة وجباة ضرائبها ينتشرون بين تلك المدائن يظهرهم هيئة السلطان ويجمعون الأموال ، على حين كان تجار الروم واليهود يحلون حيث شاءوا تحميمهم جنود الربط ، يتافسون الأقباط في التجارة منافسة شديدة^(٤) .

فالحالة في مصر كانت تمهيداً للفتح العربي وتفسيراً له .

- (١) ألفريد بتلر - فتح العرب لمصر - تعريب محمد فريد أبو حديد ص ٣ .
- (٢) ألفريد بتلر - فتح العرب لمصر - المرجع السابق ص ٣٩ .
- (٣) ألفريد بتلر - المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .
- (٤) ألفريد بتلر - فتح العرب لمصر - المرجع السابق ص ٤ .

الاضطهاد الأعظم

« وابتدأ الاضطهاد الأعظم عند ذلك ، ويتفق المؤرخون جميعاً على أنه بقى مدة عشر سنوات ، أى أنه بقى كل مدة ولاية فيرس رياسة الدين ، فإن أكبر الظن أن مجمع الإسكندرية كان فى شهر أكتوبر من سنة ٦٣١ م ، وقد بدأ عهد الاضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو شهرين ، ولا يشك أحد فى فظاعة ذلك الاضطهاد وشناعته ، فقد جاء كتاب (ساويرس) : « لقد كانت هذه السنين هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر ، وقد فنن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم ، ومن شدة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم ، لكى يحولهم على رغبتهم عن مذهبهم إلى مذهب (خلقيدونية) ، فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ، ويمكر بالبعض ويخدعهم ، وقد جاء فى ترجمة حياة البطريرق القبطى (إسحق) ، وكانت كتابتها سنة ٦٩٥ م أنه فى شبابه ، لقي قسا اسمه يوسف كان ممن شهروا بين يدي (قيرس) وجلد جلدًا كثيرًا ، لأنه شهد شهادة الحق ، وكذلك كان أخو (بنيامين) ممن عذبوا ، ثم قتل غرقًا ، وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نازها على جسمه ، فأخذ يحترق « حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض » ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل ، وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس (خلقيدونية) ، فعلاوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مدة ، فرموا به فى البحر فمات غرقًا »^(١) .

التفكير فى فتح مصر

كان التفكير فى الفتح العربى لمصر أثناء الفتح العربى فى فلسطين .

فحين كانت (بيت المقدس) على وشك التسليم للعرب ، طلب أهلها بلسان البطريرق (صقر نيوس) ، أن يصالحهم عمرو بن الخطاب على ما صالح عليه دمشق ، والمدن الأخرى التى تم للعرب فتحها ، وأن يأتى الخليفة بنفسه ليكتب لهم عهد الصلح ، فرضى عمرو بن الخطاب بهذا الشرط تقديرًا لمكانة بيت المقدس . وكتب إلى قواد جنده أن يوافقوه بالجباية^(٢) .

وهناك فى السنة ١٧ هجرية (٦٣٩ ميلادية) ، جاءه وقد من أهل بيت المقدس فصالحهم وأمنهم .

ثم ذهب إلى بيت المقدس ، فاستقبله أهل المدينة الملقمة بالبشر والارتياح وصلبى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة ، وهو المكان الذى أقيم فيه للمسجد الأقصى فيما بعد .

(١) ألفريد بتلر . فتح العرب لمصر ص ١٦٢ .

(٢) - فى معجم البلدان لياقوت الحموى أن الجباية قرية من أعمال دمشق . وباب الجباية بدمشق منسوب إلى هذا الوضع جـ ٣ ص ٣٣ .

وفى (الجابية) عرض عمرو بن العاص على عمرو بن الخطاب ، فكرة فتح مصر ، وكان من قبل يعرضها عليه ، فتردد عمر فى قبول الفكرة ، إذ خشى عواقب تشتيت قوة العرب فى حين كانت جيوشهم تقاتل الرومان والفرس .

فلم يزل عمرو بن العاص يحسن إليه فتح مصر حتى اقتنع بالفكرة ، على أنه استمهله حتى يعود إلى المدينة ويكتب إليه .

عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص من خيرة قواد العرب ، ومن أكثرهم خبرة وحكمة ومقدرة فى الحرب والسياسة كان راجح العقل ، نافذ البصيرة ، بعد الهمة ، ومن أشجع العرب ، وأبعدهم نظرًا ، ومن أبلغهم عبارة ، وأفصحهم لسانًا ، وكان أحد قواد الفتح العربى فى سورية وفلسطين . وقد مارس التجارة فى صباه ، فساعدته هذه المهنة على الاتصال بمختلف الأجناس والشعوب ، وكان لها أثرها فى اتساع أفقه وازدياد خبرته بالشئون السياسية والاجتماعية .

ومن البلاد التى زارها من قبل التجارة الشام ومصر والحيشة واليمن . وزار الإسكندرية حين مجيئه إلى مصر .

ولعله قد شاهد وهو فى مصر مبلغ ظلم الرومان للمصريين ، واضطهادهم فى عقائدهم الدينية ، وإكراههم على اتباع مذهب الحكومة الرسمى (الملكانى) ، وعرف سخط المصريين على هذا الظلم ، وما يؤدى إليه من ضعف مقاومة الزمان لم يجيء فاتحًا لمصر ، منقادًا لها من ظلم الرومان .

عهد عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص قيادة الجيش لفتح مصر ، وكان فى الخامسة والأربعين من عمره .

ولم يكن هذا الجيش يزيد فى بداية الأمر على أربعة آلاف مقاتل من الفرسان .

فسار عمرو بهذا الجيش فى جوف الليل من فلسطين قاصدًا مصر ، ولم يشعر به أحد .

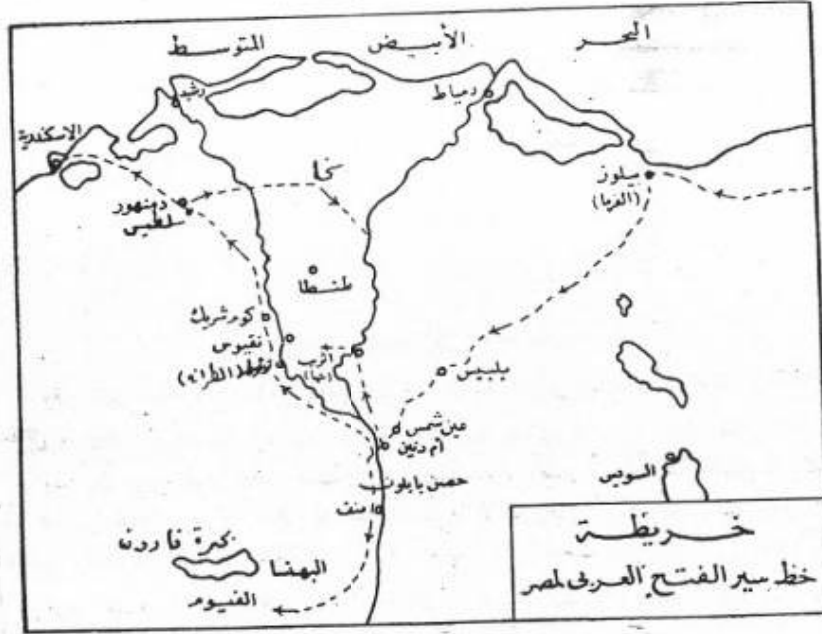
تردد عمر بن الخطاب

على أن عمر بن الخطاب قد تردد بعد عودته إلى المدينة ، إذ كان جماعة من ذوى الرأى والمكانة ، وفى مقدمتهم عثمان بن عفان يرون غزو مصر مخاطرة لا تؤمن عواقبها .

فبعث عمر من المدينة كتابا إلى عمرو بن العاص يقول فيه : « فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فاتصرف . وإن كنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »^(١) .

(١) ابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها ص ٥١ .

حتى بلغوا بلبس ، وكانت بها حامية كبيرة من الرومان يقودهم أريطيون Ariteon^(١) ، فقاوموا العرب مقاومة شديدة ، وضلت ممتعة نحو شهر ، وحدثت فيها واقعة كان النصر فيها حليف العرب ، وهزم فيها الرومان وكان ذلك سنة ٦٤٠م (١١٩هـ) .



خريطة الفتح العربي لمصر (سنة ٦٤٠ - ٦٤٢م)

معركة أم دنين

ثم هبطوا قرية أم دنين على شاطئ النيل^(٢) ، وكانت بلدة محصنة وتقع في الشمال من حصن بابلون ، وهو الحصن المنيع للرومان ، ويجاورها مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة . فقاوم الرومان العرب في أم دنين قدر ما استطاعوا ، ولكن العرب هزموهم ، واستولوا على أم دنين بعد مقتلة كبيرة .

(١) يسميه المؤرخون العرب الأريطيون. وكان قائدا للرومان في بيت المقدس وفر منها إلى مصر قبل تسليمها للعرب .

(٢) موقعها الآن في حي الأزبكية بالقاهرة في المكان الذي به جامع المقدس المعروف بجامع أولاد عثمان . وأم دنين هي التي صارت المقدس في عهد الفاطميين (انظر موقعها على الخريطة ص ٢٦٠) .

ودفع بالكتاب إلى رسول يحمله إلى عمرو بن العاص . أدرك عمرو الكتاب وهو بعد في (رفح) التي لم تكن وقتئذ معدودة من أرض مصر ، فخشي أن هو أخذ الكتاب وفتحها أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر . فلم يأخذ الكتاب من الرسول . ودافعه وسار في طريقه حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش .

فسأل عنها ، فقيل له إنها من مصر . فدعا بالكتاب ، وقرأه ، وقال لمن معه : أستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ . قالوا : بلى . قال : فإن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه .

وقائع الفتح العربي

استولى عمرو بن العاص على رفح في طريقه إلى مصر .

فتح العريش دون قتال

(١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م)

ثم بلغ العريش ، ولم يكن بها قوة من الرومان للدفاع عنها ، ففتحها دون عناء ، وكان ذلك في ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م ، (١٠ ذى الحجة سنة ١١٨هـ) يوم عيد الأضحى .

فتح الفرما (يبلوز)

(٢ يناير سنة ٦٤٠م)

وبلغ الفرما (يبلوز)^(١) في يناير سنة ٦٤٠م ، وكانت بلدة محصنة ، وفيها قوة من الرومان دافعت عنها ، فهزمها العرب ، وفتحوا البلدة بعد أن حاصروها نحو شهر ، وكان استيلاؤهم عليها في أول المحرم سنة ١١٩هـ ، (٢ يناير سنة ٦٤٠م)^(٢) .

واقعة بلبس

(سنة ٦٤٠م)

واستمر العرب في زحفهم « لا يدافعون إلا بالأمر الخفيف » كتعبير ابن عبد الحكم^(٣) ،

(١) شرقي بورسعيد الحالية ، والفرما هو الاسم العربي .

(٢) في التوفيقات الإلهية للواء محمد مختار باشا أن أول المحرم سنة ١١٩هـ يوافق ٢ يناير سنة ٦٤٠م .

(٣) ابن عبد الحكم فوج مصر وأخبارها ص ٥٤ .

وتراجع الرومان إلى حصن بابلون يمتنعون به ، وكان موقعه شرقى النيل وتصل إليه السفن .
وأذرك عمرو بن العاص من مقاومة الرومان في أم دنين أن فتح حصن بابلون ليس أمراً يسيراً ،
ولا يكفيه الجيش الذى تحت قيادته ، فأرسل إلى عمر بن الخطاب يستعجل المدد^(١) ، قبل فتح
أم دنين .

فتح الفيوم

وفى انتظار المدد ، أرسل يفتح بعض قرى إقليم الفيوم (مايو سنة ٦٤٠ م) .
ولما تم لعمرو بن العاص فتح هذه القرى عمد إلى حصار حصن بابلون ، فراه متمتعا عليه
لكثرة تحصيناته ، وعلو أسواره ووفرة من فيه من جنود الرومان .

وصول المدد إلى العرب

وفى شهر يونية سنة ٦٤٠ م ، وصل أول مدد أرسله عمر بن الخطاب ، وعدته أربعة آلاف
مقاتل .

ولما لبثاً فتح حصن بابلون كتب إلى عمر يستمده ، فأعده بأربعة آلاف آخرين ، وكتب
إليه عمر بن الخطاب يقول : « إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام
الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد »^(٢) .
فصار عدة جيش العرب اثني عشر ألفاً ، وقال له عمر فى كتابه : « اعلم أن معك اثني عشر
ألفاً ، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » .

وكان الزبير بن العوام هو الأمير على هذا المدد ، وهو ابن عمه الرسول عليه الصلاة والسلام
وصاحبه ، وأحد رجال الشورى الستة .

واقعة عين شمس

(يولية سنة ٦٤٠ م)

بعد أن تلقى عمرو بن العاص المدد ، اتخذ عين شمس وقاً ما مركزاً لنيادته ، وشرع يستعد
لمعركة عين شمس ، وكان جيش الرومان بقيادة تيودور القائد العام .
فعول تيودور على أن يسير بعشرين ألفاً من جنوده ، ليزحزح بهم جند العرب عن عين شمس .

(١) ابن عبد الحكم - فوج مصر وأخبارها - ص ٥٤ .

(٢) ابن عبد الحكم - فوج مصر وأخبارها ص ٥٦ . وفى رواية أخرى أن الراح خارجة بن حذافة .

فارتاح عمرو لهذه الحركة ، إذ رأى فيها فرصة سانحة ليشتبك بالرومان فى العراء ، بخلاف
ما إذا كانوا ممتنعين فى حصن بابلون .

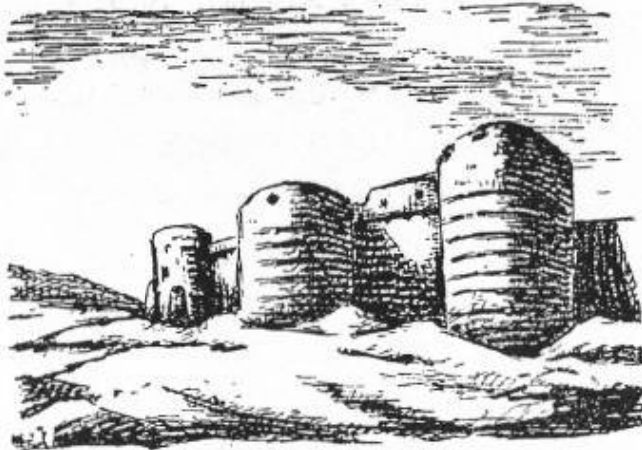
فرحف تيودور على عين شمس ، فوضع عمرو كميناً فى موضع خفى من الجبل الأحمر
(شرقى العباسية الآن) ، وآخر على النيل ، قريباً من أم دنين ، ولاقى تيودور بالفريق الأكبر من
الجيش ، ونشب القتال (يولية سنة ٦٤٠ م) فى منتصف المسافة بين الجيشين تقريباً (فى حى
العباسية الآن) ، وأيقن الفريقان أن على النجاح فى هذا الميدان يتوقف مصير مصر .

فحمى وطيس القتال ، ولما بلغ أشده خرجت قوة من العرب من الجبل ، وانقضت
كالصاعقة على الرومان ، فاختل نظامهم ، وتراجعوا إلى الغرب نحو أم دنين ، فقابلتهم قوة
أخرى من العرب ، وأصبحوا بذلك محصورين بين جيوش العرب الثلاثة التى سحقتهم سحقاً ،
فلم يبق منهم سوى جزء يسير سار بعضهم إلى النيل ، وذهب البعض الآخر إلى حصن بابلون .

حصار حصن بابلون واقتحامه

(سنة ٦٤٠ - ٦٤١ م)

كان هذا الحصن قديماً ، بناه الفرس بعد غزو مصر ، وسموه باسم عاصمة دولتهم (بابلون) ،
ثم جددته (تراجان) إمبراطور الرومان ، فأقام أسواره الضخمة ، وزاد فى بناه .
وموقعه شرقى النيل (بمصر القديمة - قصر الشمع الآن) ، وكان من أمنع حصون
الرومان ، وفيه جيش قوى منهم .



حصن بابلون

الذى حاصره العرب سبعة أشهر وفتحوه فى أبريل سنة ٦٤١ م .

بدأ عمرو بن العاص في حصار حصن بابلون منذ سبتمبر سنة ٦٤٠م ، في زمن فيضان النيل ، وأخذ يضيق عليه الخناق ، وكان قيرس (المقوقس) نائب هرقل بداخل الحصن مع الحامية الرومانية ، وقائد الحصن يسميه مؤرخو العرب (الأعيرج)^(١) ، ولعله تحريف عن اسم (جورج) ، وعدد الحامية الرومانية من خمسة آلاف إلى ستة آلاف مقاتل ، ولديه معدات القتال متوافرة . وكان تيودور Theodore القائد العام للرومان داخل الحصن أيضًا ، يتولى القيادة العليا للدفاع عنه .

المفاوضات بين عمرو بن العاص والمقوقس

كان قيرس (المقوقس) يرغب أنه من الرومان ، يميل إلى الصلح مع العرب ، لشعوره بضعف مركز قومه (الرومان) ، وماراه من توالي هزائمهم أمام العرب في الشام وفلسطين ، فخرج ليلة من الحصن وذهب إلى جزيرة الروضة .

وأرسل إلى عمرو وفدًا برئاسة أسقف بابلون ، لمقابته واستطلاع رأيه في الصلح .

فقابل الرسل عمرا وقالوا له : « إنكم قوم قد ولجتم بلادنا ، وألحتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عصابة سيرة ، وقد أظلتكم الروم (الرومان) ، وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعدوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما نحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفغننا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم »^(٢) .

فلم يعث عمرو بجواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال العرب ، إذ أبيع لهم أن يسيروا في المعسكر العربي ويروا ما فيه .

ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال فيه : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث : إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »^(٣) .

ففرح المقوقس (قيرس) لعودة الرسل سالمين ، وسأهم عما شاهدوه في العرب فقالوا : « رأينا نوما الموت أحب إلى أحدكم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفة ، ليس لأحدكم فؤاد

(١) ابن عبد الحكم . المرجع السابق ص ٥٣ .

(٢) ابن عبد الحكم - المرجع السابق - ص ٥٩ .

(٣) ابن عبد الحكم - المرجع السابق - ص ٦٠ .

الدنيا رغبة ولا نعمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف ربيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بأناء ، ويخشعون في صلاتهم »^(١) .

وقد رأى قيرس (المقوقس) خطورة الموقف إذا استؤنف القتال ، فإن العرب وهذه حالهم من الإيمان والشجاعة لا سبيل إلى ردهم عن قصدهم .

فمالت نفسه إلى الصلح ، ورأى العرب تحصرهم حينذاك مياه النيل قبل أن يهبط الفيضان ، ثم إذا هبط يتحسن موقفهم ويستطيعون السير أينما شاءوا .

فأرسل إلى عمرو أن يعث إليه جماعة من ذوى الرأي ليتفاوض معهم على ما عساه أن يكون صلحاً .

فبعث عمرو بعشرة رجال أحدهم (عبادة بن الصامت) ، وكان أسود شديد السواد ، وأمره أن يكون المتكلم في الوفد ، وألا يجيب الرومان إلى شيء يدعو إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى جزيرة الروضة ، فلما دخل عبادة بن الصامت على قيرس (المقوقس) ، هابه لسواده وفرط طوله وقال : « تحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى » .

فقال العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه . وقد أمره الأمير . وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله » .

فدهش المقوقس من هذا الجواب ، لأن الرومان قد اعتادوا على التفرقة العنصرية ، ودهش من أن العرب لا يفرقون بين الأسود والأبيض .

فتكلم عبادة وقال : « إن فيمن خلفت من أصحاب ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً منى ، وإنى بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا طلب للاستكثار منها لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، وإنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

فقال المقوقس لعبادة بن الصامت : « أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتكم ما بلغتكم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لجهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي أحدكم من لقي ولا من قاتل ، وإنما لتعلم أنكم لن تقووا عليهم ،

(١) ابن عبد الحكم - المرجع السابق - ص ٦٠ .

ولن تطيقوهم لضعفكم وقتلكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتم ألف دينار ، فتقبضونها وتصرفون إلى بلادكم ، قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به ^(١) .

فقال عبادة : « يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم : فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعز لنا عند ربنا إذا أقدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وحبته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنما منكم حينئذ لعل إحدى الحسينين ، إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وأنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه : ﴿ كَمْ مِنْ قَبِيْلَةٍ غَلَبَتْ قِبَةَ كَثِيْرَةٍ يَأْذِنُ اللّٰهُ وَاللّٰهُ مَعَ الصّٰبِرِيْنَ ﴾ ^(٢) . وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحدناهم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما ما أمأنا ، فانظر الذي تريده فينبه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال . فاختر أيها شئت ، ولا تطمع نفسك بالباطل ، بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا » .

فلما وصل الحوار إلى هذا الحد ، أراد قيس (المقوقس) أن يستنزل عبادة بن الصامت عن شيء أو يجعله يقبل شيئاً مما عرضه عليه ، فلم يقدر على شيء ، بل وقع قوله على آذان صماء لما يقول . وقال عبادة يرد عليه بعد أن نفذ صبره ورفع يديه إلى السماء : « لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ما لكم عندنا من خصلة غيرها فاختروا لأنفسكم » .

الهدنة

فاجتمع المقوقس بأصحابه . فاختلفوا رأياً ، وكان رأى المقوقس الإذعان وقبول الجزية ، وكان الجند يرون المقاومة وعلى رأسهم جورج (الأعيرج) ، ثم طلب الرومان أن يهادنهم العرب شهراً ليردوا فيه رأيهم ، فأجابهم عمرو جواباً قاطعاً إذ قال لهم إنه لن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام .

(١) ابن عبد الحكم - المرجع السابق - ص ٦١ .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٩) .

استشاف القتال

فما انتهت أيام الهدنة الثلاثة حتى أخذ الرومان في الحصن يستعدون للحرب ، وخرجوا إلى العرب فوق أسوار الحصن ، فأخذوا جند العرب على غرة ، غير أن العرب قابلوا الحرب بالحرب ووقع قتال شديد بين الرومان والعرب ارتد الرومان على أثره إلى الحصن .

فعاود المقوقس الحديث عن الصلح ، ورأى أن يعيد الاتصال بعمرو بن العاص في شأنه ، فعرض عليه أن يختار الجزية ، على أن يبعث المقوقس برأيه إلى الإمبراطور هرقل بالقسطنطينية (استانبول) ، وأن يبقى الجنود من الطرفين في مواقعهم حتى يرد الرد من هرقل . وكانت هذه الهدنة قد يطول أمدها .

فسار المقوقس بطريق النيل إلى الإسكندرية ، ومن هناك بعث برأيه إلى هرقل .

فرفض هرقل الصلح ، وأرسل يستدعي المقوقس ، ولعل ذلك كان في منتصف نوفمبر سنة ٦٤٠ م .

سار المقوقس إلى القسطنطينية (استانبول) ، وأصر على رأيه في وجوب الصلح مع العرب ، فغضب عليه هرقل ، ونفاه من مصر طريداً .

وجاء الرد إلى مصر قرب نهاية سنة ٦٤٠ م ، وانتهت الهدنة ، وعاد القتال بين العرب والرومان ، وهبطت مياه الفيضان وغاض الماء الذي كان يملأ الخندق المحيط بالحصن ، فضعف مركز الرومان ، واستمر القتال بينهم وبين العرب .

وفاة هرقل

(فبراير سنة ٦٤١ م)

وكان حُماة الحصن ينتظرون أن يصلهم المدد من القسطنطينية ، فلم يجدوا أثراً له . ورأوا أن القدر قد خيب آمالهم ، إذ بلغهم أثناء الحصار نبأ وفاة هرقل إمبراطور الرومان ، فخارت لذلك نفوسهم .

وكان وفاة هرقل في فبراير سنة ٦٤١ م . (٢٠ هـ) ، أي قبل فتح حصن بابلون بشهرين .

فتح الحصن عنوة

(إبريل سنة ٦٤١ م)

وبقى الحصن بعد ذلك شهراً لا يسلم ، فلما أبطأ الفتح ، تقدم الزبير بن العوام ، ووهب الله نفسه ، واعتزم أن يفتح الحصن اقتحاماً .

فجاء إلى الحصن تحت جنح الليل ومعه جماعة من خيرة رجاله الفدائيين ، وكان الخندق

قد جف ماؤه وطم جزء منه ، فاتفق معهم على أنه سيضع سلما على السور ويصعد عليه إلى أعلى الحصن ، وواعدهم أن يتبعوه إذا سمعوا تكبيره .

ولما وصل البطل العربي إلى أعلى السور أخذ يكبر ويسفه في يده .

وتحامل الرومان عليه من داخل الحصن ، غير أن السهام أمطرتهم من العرب من الخارج . واستطاع أصحاب الزبير أن يصلوا فوق السلم إلى الحصن ويطأوا أسواره بأقدامهم ، وتحامل الناس على السلم ، فنهاهم عمرو بن العاص خوفاً من أن يتكسر^(١) .

فعندئذ أدرك المقوقس أن العرب قد اقتحموا الحصن ، ولم يعد من سبيل إلى ردهم عنه ، فعرض على عمرو أن يسلم الحصن على أن يأمن من كانوا به من الجند على أنفسهم . فقبل عمرو هذا العرض ، على أن يخرج الرومان من الحصن في ثلاثة أيام ، ويتركوا ما به من الذخائر وآلات الحرب .

واستولى العرب على الحصن وما فيه في أبريل سنة ٦٤١ م ، (ربيع الثاني سنة ٢٠ هـ) . فكأنه استمر يقاوم الحصار سبعة أشهر .

فتح سقوط حصن بابلون أمام العرب طريق الإسكندرية ، وطريق الوجه القبلي . فبدءوا بالزحف على الإسكندرية عاصمة البلاد وقتئذ ، وسار عمر وبجيشه على الشاطئ الغربي لل النيل .

في طريق الزحف على الإسكندرية

كانت أول مدينة فتحها العرب في زحفهم على الإسكندرية هي ترنوط^(٢) بالشاطئ الغربي للنيل ، وأول ما التقوا بالرومان فيها ، فهزمهم العرب .

ثم استأنفوا السير إلى نقيوس^(٣) ، وكانت حصناً متيناً ، ففتحوها (مايو سنة ٦٤١ م) . ثم عاد عمرو إلى الشاطئ الغربي للنيل ، وتابع الزحف إلى الإسكندرية .

وقاومهم الرومان في كوم شريك ، فهزمهم العرب ، وقاوموهم أيضاً في (سلطيس) جنوبي دمنهور فهزموهم .

(١) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ص ٨٥ .

(٢) واسمها أيضاً (الطرانة) ، مركز كوم حمادة بحيرة (انظر موقعها على الخريطة ص ٢٦٠) .

(٣) في المخطوط التوفيقية لعل مبارك باشا (ج ٨ ص ١٥) أنها إيشادى الحالية (مركز تلا) وفي القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد بك رمزي (البلاد القديمة) ص ٤٦٤ أنها زالت وحل محلها الكوم الأثرى الكائن بالبحيرة البحرية من (زاوية رزين) بمركز متوف (انظر موقعها على الخريطة ص ٢٦٠) .

ثم صمد لهم تيودور في الكربون ، وكانت آخر سلسلة من الحصون التي بين بابلون والإسكندرية وجزت ، بها موقعة كبيرة ارتد على أثرها الرومان إلى الإسكندرية . وبعد الاستيلاء على الكربون انفتح الطريق إلى الإسكندرية .

حصار الإسكندرية وفتحها

(٦٤١ - ٦٤٢ م)

بلغ العرب الإسكندرية ، وكانت قوة الرومان فيها أكبر من قوتهم في حصن بابلون . هذا إلى ما كانت عليه الإسكندرية من المنعة ، وأسوارها من لضخامة ، وحصونها وأبراجها من القوة .

وكان يساعدهم فيها أن عددهم كان وفيراً ، وكانوا على اتصال بالبحر ، بخلاف ما كان عليه حماة حصن بابلون .

وكان بها من الجند نحو خمسين ألفاً^(١) ، يقودهم الجنرال نيودور القائد العام .

بدأ حصار الإسكندرية في يونيو سنة ٦٤١ م ، وأخذ عمرو حين قدم الإسكندرية يحمل على أسوارها ، فلم ينل منها مثلاً .

ورمت مجانيق الرومان من فوق الأسوار على جنده بوابل من الحجارة الضخمة ، فارتدوا مبتعدين عن مدى رميها ، وانتظروا حتى يخرج إليهم الرومان من خلف الأسوار ، فلم يخرجوا . ولم يكن الحصار محكما على الإسكندرية كما كان الشأن في حصن بابلون ، فإن البحر كان يمدّها بالحرية والمونة .

ولم يكن للعرب سفن تهاجم الإسكندرية من جهة البحر . واستمر حصار الإسكندرية أربعة عشر شهراً .

وفي سبتمبر سنة ٦٤١ م ، عاد المقوقس إلى الإسكندرية ، وكان الأمر ينفيه من مصر صار كأن لم يكن بعد وفاة هرقل .

واستمسك برأيه السابق في أن الخير في مصالحة العرب .

تسليم الإسكندرية

(نوفمبر سنة ٦٤١ م)

وفي نوفمبر سنة ٦٤١ م ، عقد الصلح بين عمرو والمقوقس على تسليم المدينة ، ومن شروطه

(١) الفريد بنار : فتح العرب لمصر ص ٢٥٥ .

عند هدنة نحو أحد عشر شهراً، تنتهى فى شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ ، وأن يقبى العرب فى مواقعهم مدة هذه الهدنة ، ولا يسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية ، وأن يكف الرومان عن القتال ، وأن يجلو الجنود الرومان عن الإسكندرية بأسلحتهم ومتاعهم وأموالهم^(١) ، وكان جلاء آخر فرج منهم فى سبتمبر سنة ٦٤٢ .

ويفتح الإسكندرية وجلاء الرومان عنها دانت البلاد للفتح العربى وأذعن الصعيد للعرب دون قتال .

فتح بعض المدن والقرى

منذ واقعة عين شمس وجه عمرو بن العاص كئائب من الجند لفتح البلاد المجاورة ففتحت نزيب (بنها) ومنوف .

وفى أثناء الزحف على الإسكندرية ، وحصارها فصلت كئائب أخرى وسارت إلى سخا وفتحتها .

ووجه عمرو بن العاص كئائب أخرى إلى إختناو بلهيب والبرلس ودمياط وتائيس (صان الحجر) وتونه ودميره وشطا ودقهلة وينا وبوصير ، فأخضعوها ، ولم تحلث مقاومات فى معظم هذه البلاد إلا من الحاميات الرومانية .

وكان على دمياط أمير اسمه (الهاموك) ، يقال : إنه من أخوال المقوقس ، استعد لقتال العرب ، فلما جاءه المقاداد بن الأسود قاتله وقتل ابنه ، فانهزم وعاد إلى دمياط ، واستشار قومه فنصحه رجل حكيم بمصالحة العرب ، فلم يأخذ بنصيحة .

وسميت بلدة شطا باسم شطا بن الهاموك (وهو ابن آخر للهاموك) ، انضم إلى العرب وعاونهم ، وقتل شهيداً فى معركة دارت لفتح تائيس .

واستمرت المقاومة فى المنزلة إلى ما بعد فتح الإسكندرية .

فتح برقة

(سنة ٦٤٣ م)

بعد أن استقر مركز عمرو بن العاص فى الإسكندرية ، وجلا الرومان عنها زحف على برقة سنة ٦٤٣ م (٢٢ هـ) وكانت من بلاد الدولة الرومانية ، وكانت تسمى بنطابوليس Pentapolis ومن مدنها الشهيرة (بنى غازى) ، وصالح أهلها على الجزية .

(١) توفى المقوقس فى مارس سنة ٦٤٢ .

وفتح طرابلس فى ذات السنة ، ثم استأذن الخليفة عمر بن الخطاب أن يستمر فى زحفه غرباً .
فنهاه عن ذلك ، وأمره بالوقف عند هذا الحد .

محاولة الرومان استرداد الإسكندرية وفشلهم

(سنة ٦٤٥ م)

عاودت الرومان المطامع فى استرداد الإسكندرية ، إذ قد نسى إلى قسطنتر إمبراطور الرومان أن قوة العرب قد تضععت فيها .

فأنفذ عمارة بحرية كبيرة قصدت الإسكندرية ، وكانت سيادة البحر لاتزال ملكا للرومان . فنزلت الحملة إلى الإسكندرية سنة ٦٤٥ م (٢٥ هـ) ، يقودها الجنرال منوبيل . ولكن عمرو بن العاص هزم الرومان ، وفتح المدينة مرة أخرى ، وهدم أسوارها .

مسألة حريق مكتبة الإسكندرية ونفيه عن العرب

لاكت أسنة بعض المؤلفين الإفرنج مسألة حريق مكتبة الإسكندرية ، إذ زعموا أنها أحرقت فى أوائل الفتح العربى ، ونسبوا إلى عمر بن الخطاب أنه أمر عمرو بن العاص بإحراقها ، فأحرقها .

وتلك لعمري تهمة لا تثبت أمام التحقيق العلمى ، ولا يلبث أرباب بطلانها بقليل من البحث المجرد عن الهوى .

أول ماوردت هذه القصة فى كتاب لأبى الحسن القفطى عن (تاريخ الحكماء) ، ونقلها عنه أبو الفرج بن العبرى فى كتابه (مختصر تاريخ الدول) ، وكلاهما عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد أى بعد أن مضى أكثر من خمسة قرون على الفتح العربى لمصر ووقائمه .

فانقضت هذه القرون الطويلة قبل اختراع هذه القصة يجعلها ولاشك بعيدة عن الثقة ، إذ لو كان لها ظل من الحق لورد ذكرها على لسان شاهد عيان من المؤرخين المعاصرين للفتح العربى ، أو ممن نقلوا عنهم فى أعقاب هذا الفتح مباشرة .

وخلاصة هذه القصة كما أوردها أبو الفرج بن العبرى أنه كان فى وقت الفتح العربى رجل اسمه (حنا النحوى) ، من أهل الإسكندرية ومن قسوس الأقباط ، وأخرج من عمله لما نسب إليه من زيغ فى عقيدته ، وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة ، وأن هذا الرجل أدرك الفتح العربى للإسكندرية ، واتصل بعمرو بن العاص ، فلقى عنده لحظة ، فلما أتت الرجل من عمرو

هذا الإقبال قال له يوماً : « لقد رأيت المدينة كلها ، وختمت على ما فيها من التحف ، ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به بل شيئاً لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » .

فقال له عمرو : « ماذا تعنى بقولك » . فقال : « أعنى بنولي ما في خزائن الروم من كتب الحكمة » فقال له عمرو : « إن ذلك أمر ليس لي أن أقطع فيه برأى دون إذن الخليفة » .

ثم أرسل كتاباً إلى عمر بن الخطاب يسأله رأيه ، فاجابه عمر قائلاً : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا إرب لنا فيه ، وأحرقها » .

فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو بن العاص أمر بالكتب فوزعها على حمامات الإسكندرية فأحرقوها في ستة أشهر .

ثم قال المؤلف بعد أن روى هذه القصة : « فاسمع وتعجب » . ولم يذكر أبو الحسن ، ولا أبو الفرج المصدر الذي أخذاه هذه القصة ، مع انقضاء أكثر من خمسة قرون على فتح الإسكندرية .

ويمنع من تصديقها أنها لم ترد إطلاقاً في أي كتاب وضع في خلال هذه القرون الخمسة . ولو أنها وقعت لما فات أصحابها أن يدونها ، وولد حوالي زمن الفتح العربي مثل (حنا النقيوسي) ، المؤرخ المصري ، الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد ، ووضع كتابه بعد الفتح العربي بنحو خمسين عاماً ، وسعيد بن البطريق (أوتيوخوس) ، الذي عاش في القرن التاسع ، وتحدث عن الفتح العربي ، وكلاهما مسيحي .

ولم يشر إليه قدماء المؤرخين ، كابن عبد الحكم والبلاذري ، والطبري والكندي ، واليعقوبي ، على أهمية هذا الأمر وخطره .

على أن المؤرخين السابقين على فتح العرب بعدة قرون ، يذكرون أن حريق مكتبة الإسكندرية حدث في سنة ٤٨ قبل الميلاد ، حين حضر (يوليوس قيصر) في ذلك العام إلى الإسكندرية .

فقد ذكر المؤرخ اليوناني بلوتارك Plutarque في كتابه عن (قيصر) أن يوليوس قيصر ، حين بوغت بمهاجمته في الإسكندرية ، وأحرق أسطول البطالمة في الميناء الشرقي المجاور للحى الذي كانت فيه المكتبة ، فامتدت النيران إلى ذلك الحى ، والتهمت المكتبة بما فيها من الكتب .

وأيده في ذلك سينيكا Senéque وديوكاسيوس Dio Cassius .

أى أن المكتبة أحرقت قبل الفتح العربي بستة قرون .

وفي ذلك كله يقول المؤرخ الإنجليزي ألفريد بتلر : « ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجمعنا

فيما لي أدلة حجتنا ، فإن فصلنا أن نين حقيقة أمر مكتبة الإسكندرية ، ومقدار نهب إحراق العرب لها من الصحة أو الكذب ، وقد بينا فيما سلف الأمور الآتية :

١- أن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسة عشر عاماً من وقت الحادثة التي نذكرها .

٢- أننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها ، فألقيناه سخافات مستعدة ينكرها العقل .

٣- أن الرجل الذي تذكر القصة أنه أكبر عامل فيها (حنا النحوي) مات قبل غزو العرب بزمن طويل .

٤- أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين : الأولى مكتبة المنصف (دار العلم - الموزيون) ، وهذه ضاعت في الحريق الذي أحدثه يوليوس قيصر ، وإن لم تلتف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعين عاماً قبل الفتح العربي ، وأما الثانية وهي مكتبة السرايوم فلما أن تكوّن: قد نقلت من المعبد عام ٣٩١ م ، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت ، فتكون على أي حال قد اختضت قبل الفتح العربي بقرنين ونصف قرن .

٥- أن كتاب القرنين الخامس والسادس للميلاد ، لا يذكرون شيئاً عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

٦- أن هذه المكتبة لو كانت لاتزال باقية عندما عقد قيصر (المقوقس) صلحه مع العرب على تسليم الإسكندرية ، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب ، وقد أبيع ذلك في شرط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب في المدينة ، وقدر ذلك أحد عشر شهراً .

٧- لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت ، أو لو كان العرب قد أتلّفوها حقيقة لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح العربي مثل (حنا النقيوسي) ، ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفاً عنه .

« ولا يمكن أن يبقى شك في الأمر بعد ذلك ، فإن الأدلة قاطعة وهي تبرر ما ذهب إليه (رينوود) من الشك في قصة أبي الفرج ، وما ذهب إليه (جبون) من عدم تصديقها ، ولابد لنا أن نقول إن رواية أبي الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ، ليس لها أساس في التاريخ^(١) .

وقال بتلر فر هامش ص ٣٧٠ : « لم نقصد في هذا الأمر سوى إثبات الحقيقة ، ولم نقصد الدفاع عن العرب ، وليس الدفاع بضروري ، ولو كان ضرورياً لما تعذر أن نجد شيئاً يليق الاعتذار به عن ذلك ، فلا شك أن العرب عُنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع

(١) ألفريد بتلر - فتح العرب لمصر - تعريب محمد فريد أبو حديد ص ٣٦٨ .

في أيامهم - وعُتوا بحفظها وترجموا منها في كثير من الأحوال ، وفي الحق إنهم أقاموا مثلاً يجدر
بفانحي هذه الأيام (يريد المستعمرين الأوروبيين) أن يحذوا حذوه ، فقد نقل سديو Sedillot
في كتابه (تاريخ العرب) أن الفرنسيين عندما فتحوا مدينة (قسطنطينية) ، في شمال إفريقيا
أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم ، كأنهم من صميم الهمج ، ووجد الإنجليز
عند فتح مدينة (مجدلة) مكتبة كبرى من الكتب الخشبية ، فحملوها معهم ، ولكنهم لم يلبثوا
أن تركوا أكثرها في كنيسة على جانب الطريق ، إذ وجدوا في حملها عناء لم يقروا على احتماله ،
ولقد كان اختيارهم للكتب التي أبقوا عليها خبطاً وسيراً مع الصدفة ، ولكن قيمة الكتب التي
أنقذت وحفظت تدلنا على فداحة الخسارة التي لحقت العلم بضياح ماترك منها ، فقد كانت
النسخة الخطية من كتاب (حنا النقيوسي) ، التي حفظت بالمتحف البريطاني إحدى تلك الكنوز
التي أنقذت بهذه الطريقة الاتفاقية .

هذا . ومن العلماء المحققين الذين نفوا هذه القرية عن العرب جستاف ليون ، وارنست رنان ،
وجيون ، ورينوود ، وسديو ، ويقول سديو : إن هذه القصة وضعها كتاب معادون للعرب
والإسلام بيان الحروب الصليبية .

عمرو بن العاص يتولى شؤون مصر

بعد أن تمّ لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية تحول إلى القسطنطينية التي أنشئت بعد الفتح ،
ومن هناك تولى شؤون مصر بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان بدء ولايته سنة ٢٩ هـ
قبل فتح الإسكندرية .

فكان خير وال لشؤونها ، وعُرف بالحكمة والعدل ولين الجانب وإطلاقه الحرية الدينية
للمواطنين ، والسعي في إقامة أعمال العمران التي عادت على البلاد بالخير ، وأجبه أهل مصر
لما رأوا فيه احترام حرية العقيدة الدينية وتخفيف وطأة الضرائب ومن السماحة بعد الغلظة التي
كانوا يشهدونها من الولاة الرومان .

وظل يتولى شؤون مصر حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان . سنة ٢٤ هـ فعزله سنة ٢٦ هـ ،
وولى بدله عبدالله بن سعد بن أبي سرح .
وكان ولاية عمرو بن العاص على مصر نحو خمس سنوات .
ثم وليها في زمن معاوية .

إعادة البطريق بنيامين

ومن أعماله التي أكسبته حب المواطنين ، تأمينة البطريق (بنيامين) ، فقد كتب أماتاً له وردّه

إلى كرسي البطريق ، وأعاد له سلطته بوصفه بطريقاً للأقباط بعد أن ظل مبعداً عن منصبه
أكثر من عشر سنوات ، ودخل بنيامين الإسكندرية دخول الظافر .
ولقى من عمرو الحفاوة والتقدير حتى قال عنه لأصحابه : « إني لم أر يوماً في بلد من البلاد
التي فتحها الله علينا رجلاً مثل هذا بين رجال الدين » .

وعادت لبنيامين زعامته الدينية بين الأقباط .

قال بتلر في هذا الصدد :

« وقد كان لعودة بنيامين إلى عرش الإسكندرية وأبنائها رنة طرب في قلوب أهل مصر
جميعاً ، فعاد جل العامة إلى زعيمهم القديم والفرح يملوهم ، ونادى البطريق (بنيامين) المطارنة
الذين اتبعوا مذهب الدولة (الملكاني) أن يرجعوا إلى سابق عهدكم ومنكم ، فعاد بعضهم يذرفون
الدمع السخين ندماً ولكن قبل إن واحداً منهم أتى يعود حتى لا يلحقه العار خوف أن يعرف
عنه الردة الأولى ، ولعل الكثيرين كانوا مثله في هذا ، ومهما يكن من الأمر فقد نما أمر الأقباط
وزاد أتباع ملتهم ، وكان هم بنيامين في أول الأمر أن يقدم فكره ليلاً ونهاراً في أمر رعيته ،
وإرجاع من ضل منهم في أيام هرقل » (١) .

وظل في منصب البطريق حتى وفاته سنة ٦٦٢ هـ .

وصف مصر

بقلم عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص من أبلغ كتّاب العرب ، وقد وصف مصر في كتاب بعث به إلى
عمر بن الخطاب ، إذ طلب الخليفة ذلك منه ، قال : « ورد إلى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه
يسألني عن مصر ، أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ،
وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون
الروحان ، تجرى فيه الزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر له أوان ، تمده عيون الأرض
وينابيعها ، حتى إذا عجز عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانيه ، فلم يمكن التخلص
من القرى بعضها إلى بعض إلا في خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادته ،
نكص على عقبيه ، كأول ما بدأ في جريته ، وطسى في ذروته ، فعند ذلك يخرج القوم ليجرثوا
بطون أوديته وروايه ، يبدرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، وسقاه
من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي غبرة
سوداء ، وإذا هي زهرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء ، والذي يصلح هذه البلاد ،

(١) أفريد بتلر . فتح العرب لمصر ص ٣٨٥ .

وكان الشروع في تخطيط الفسطاط سنة ٢١هـ (٦٤٢م) ، بعد هزيمة الرومان في الإسكندرية .

تحديد الفسطاط

حدد الأستاذ يوسف أحمد في كتابه (الفسطاط) ، بأنها تقع في المنطقة التي حول جامع عمرو ، والتي تمتد شرقاً إلى سفح جبل المقطم ، وشمالاً إلى جهة (مسجد أبو السمود) ، وغرباً حتى النيل ، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي (وتعرف الآن بمصر القديمة) .

جامع عمرو بن العاص

شرع عمرو بن العاص في بناء المسجد الذي عرف باسمه منذ عودته من فتح الإسكندرية . وبدأ في بنائه سنة ٢١هـ (٦٤٢م) بعد تخطيط الفسطاط .

وكان يسمى الجامع العتيق ، أو جامع الفتح ، أو تاج الجوامع ، وهو أقدم جامع فُشِيَ في مصر ويقع شمالي حصن بابلون (قصر الشمع) .



جامع عمرو بن العاص بالفسطاط (مصر القديمة) قبل إصلاحه وتوسيعه
أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ (٦٤٢م)

وكان طوله في بداية عهده خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ذراعاً (٢٩ × ١٧ متراً) ، وله ستة أبواب .

وكانت تقام فيه الصلوات ، وتلقى فيه الدروس الدينية ، فصار مع الزمن معهداً علمياً ودراسياً لمختلف طبقات الشعب ، هذا إلى أنه كان مقراً لمجالس القضاء ، ومكاناً لبيت المال .

وينميتها ، ويقر قاطنيتها فيها ، أن لا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، ولا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوتابها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل .

عمرو بن العاص

يؤيد تحديد النسل

كان عمرو بن العاص بعيد النظر ، واسع الأفق ، يعالج المسائل الاجتماعية بحكمة وحصافة ، فمن خطبة له يوم الجمعة يحث الناس على القصد والاعتدال ، ويرغبهم عن كثرة العيال ، ويؤيد تحديد النسل ، قال :

« يا معشر الناس ، إياكم وختلالاً أربعاً ، فإنها تدعو إلى النَّصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة ، إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، في غير ذلك ولا نوال »^(١) .

انشاء الفسطاط عاصمة مصر

أراد عمرو بن العاص أن يسكن الإسكندرية ، ويتخذها عاصمة البلاد ، إذ رأى أن بيوتها مشيدة ، وأنها الأجدر بأن تظل الصدود : « مساكن قد كفيناها » .

فكتب إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » . قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب إلى عمرو : « إني لأحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا في صيف » .

ولم يكن للعرب قوة بحرية في ذلك الحين ، ولذلك خشى الخليفة عمر بن الخطاب أن يحول البحر بين أجزاء الدولة العربية .

فأنشأ عمرو مدينة الفسطاط^(٢) في السهل الذي يلي حصن بابلون ، بينه وبين جبل المقطم ، واتخذها عمرو بن العاص عاصمة البلاد ومقر الحكم .

وتقوم في الضفة المقابلة للنيل ، على بعد أميال جنوباً ، مدينة (منف) العظيمة ، عاصمة مصر القديمة .

(١) ابن تفرى بردى . النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٣ .

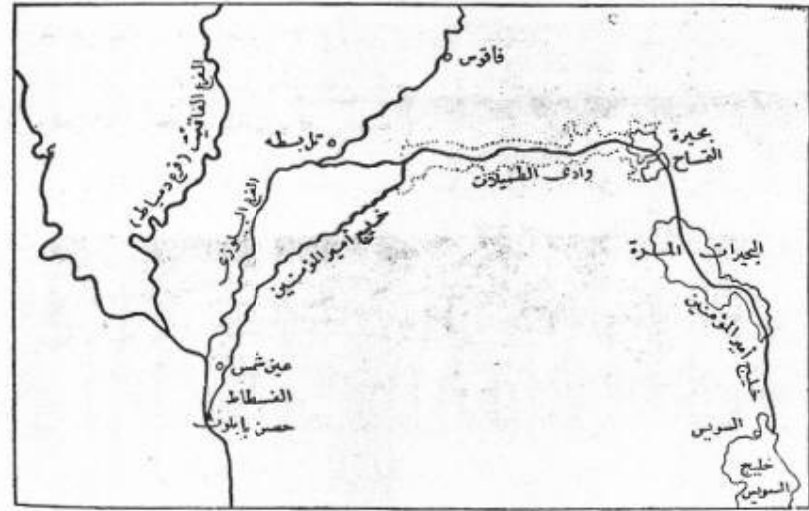
(٢) في « الصباح الثبير » أن كل مدينة جامعة فسطاط . وفي معجم البلدان (ج ٦ ص ٢٨) أن الفسطاط أيضاً مجتمع أهل الكورة .

خليج أمير المؤمنين

إن أهم أعمال العمران التي قام بها عمرو بن العاص بعد أن استقر له الأمر في مصر ، إنشاء مدينة الفسطاط ، وجامع عمرو بن العاص ، وحفر خليج أمير المؤمنين^(١) ، الذي يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويسر المواصلات المائية بين مصر وتغور شبه الجزيرة العربية .

وكان هذا الخليج يتدنى من شمال حصن بابلون ، ويمر بمدينة عين شمس ثم يسير في وادى الظميلات حتى بحيرة التماسح ، ومن جنوب هذه البحيرة يتابع جريانه خلال البحيرات المرة حتى يبلغ السويس .

وكان إنشاء هذه القناة سنة ٢٣هـ (٦٤٣م) وبلغ طولها نحو ستين ميلا ، وكانت تسمى من قبل خليج سنوسرت الثالث ، ثم خليج نيخاو . ثم خليج تراجان ، ثم ردمت على توالى السنين ، واحتقرها عمرو بن العاص (انظر الخريطة ص ٢٨٤) .



خليج أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) . احقره عمرو بن العاص سنة ٢٣هـ (٦٤٣م)

وسبب حفر خليج أمير المؤمنين ما نقله المقرئ عن ابن عبد الحكم ، أن أهل (المدينة) أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة^(٢) .

(١) الخليج لغة هو القناة أو الترعة .

(٢) عام الرمادة سنة ١٨هـ (٦٣٩ - ٦٤٠م) وصحى الرمادة لأن الريح كانت تسفى ترابها لرمادها ، وأصاب الناس بالجهاز فحط عظيم .

فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يقول : « أما بعد فلمعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شيعت أنت ومن معك من أهلك ، أن أهلك أنا ومن معي . فاعوثاه ثم باعوثاه . » فكتب إليه عمرو بن العاص يقول : « باليك ثم باليك . فد بعث إليك عبر (قدمة) أوها عندك وأخرها عندي . »

وجاء عمرو إلى حيث قابل عمر بن الخطاب ، بعد أن وصلت العير إلى الحجاز ، وسع بها الخليفة على الناس ، فاقترح عليه الخليفة أن يخفر قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر لتيسر نقل المتونة والتجارة إلى الحجاز .

صدع عمرو بالأمر ، فأنشأ سنة ٦٤٣م (٢٣هـ) اقناة التي سميت خليج أمير المؤمنين ، وتبدأ من الفسطاط وتسير في نفس التخطيط الذي كان لقناة الفراعنة الأقدمين ، أى قناة سنوسرت الثالث التي عُرفت بقناة نيخاو ، ثم ردمت ، وجدها الإمبراطور الروماني تراجان . ثم ردمت . فلم يأت الحول حتى أتم عمرو بن العاص حفر هذا الخليج .

وفاة عمرو بن العاص

استمر عمرو بن العاص على ولاية مصر ، حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان . فعزله عنها سنة ٢٦هـ (٦٤٦م) ، وولاهها عبد الله بن سعد بن أبي السرح (وهو أخو عثمان في الرضاة) ، وكانت ولاية عمرو بن العاص على مصر نحو خمس سنوات .

ثم تولاهما ثانية في خلافة معاوية سنة ٣٨هـ (٦٥٨م) حتى وفاته .

وتوفى في ولايته الثانية في نحو السبعين من عمره .

وكانت وفاته في ديسمبر ٦٦٣م (٤٣هـ) ، في خلافة معاوية ، ودفن بسفح المقطم ، ولم يعرف قبره على وجه التحقيق .

وقيل إنه مدفون مع عقبة بن عامر بمسجده القائم إلى اليوم .

بماذا قيل الفتح العربي

إن أول حقيقة يجب أن نضعها نصب أعيننا في هذا البحث أن الحرب في الفتح العربي لم تكن موجة ضد نصريين ، بل ضد الروم (الرومان) المعتصين لمصر .

والحقيقة الثانية أن العرب لم يسبقوا إلى المصريين قط .

وقد تكون معاملة العرب الحسنة للمصريين راجعة إلى أنهم كانوا في ذاتهم أهل مروءة ونجدة ، وخاصة حين هذب الإسلام نفوسهم .

هذا إلى ما اتصف به عمرو بن العاص من حبه للعدل والرفق بالأهلين ، وما كان يوصيه به عمر بن الخطاب من حسن معاملتهم ، اعتبر ذلك في الكتاب الذي بعث به إليه وقال فيه :

« واغنم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾^(١) يريد أن يقتدى به ، وإن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم وأوصى بالقبض فقال : « استوصوا بالقبض خيرا فإن لهم ذمة ورحمًا »^(٢) ، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم . وقد قال ﷺ : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » ، احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصمًا ، فإن من خصمه خصمه ، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة ، وآنتست من نفسى ضعفاً وانتشرت رعبتى ورق عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط ، والله إني لأخشى لومات جمل بأقصى عملك ضياعا أن أسأل عنه يوم القيامة .

ولقد رأى المصريون من إنسانية العرب ، وتسامحهم ما جعلهم يثقون بهم ويطمئنون إليهم ، وجاء توكيدا لقول الرسول ﷺ : إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبض خيرا فإنه لهم ذمة ورحمًا^(٣) .

والأمثلة على إنسانية العرب عديدة ، وقد وجد أهل العراق وفلسطين والشام مثل هذه الإنسانية .

فمن ذلك أنه في أوائل الفتح العربي حين فتح عمرو بن العاص (بلبس) كانت بها ابنة المقوقس (أرمالوسة) ، وقد نقل المقرئ عن الواقدي أن المقوقس زوجها القسطنطين بن هرقل ، فأكرمها عمرو وأرسلها معزة مكرمة ومعها جميع مالها حتى التقت بأبيها .

فسر المقوقس من هذه المروءة ، وكان لها ولا ريب أثر كبير في نفسه .

ولما أزمع عمرو الزحف على الإسكندرية بعد فتح حصن بابلون أمر الجند أن ينزعوا خيمته (الفسطاط) ، فوجد في أعلاها عش يمامة باضت عليها فأمر عمرو أن تترك خيمة القائد مكانها ، وقال في هذا الصدد : « لقد تحرم هذا اليمام منا بمتحرم ، فأقروا هذا الفسطاط في موضعه حتى يفرخ ويطيخ » .

وعين على الفسطاط (الخيمة) حارسا يمنع تلك اليمامة أن يمسها أحد بأذى .

فإذا كانت الإنسانية قد بلغت هذا الحد وشملت الطير الذي اتخذ خيمة القائد العام عشًا له ، فإن هذا المثل جدير بأن يكسب العرب محبة المصريين وتقديرهم .

وبعد أن دانت البلاد للفتح العربي ، وجلا الرومان عنها رأى المصريون عمرو بن العاص يمنع لأضطهاد الدينى ، ويعلن ألا إكراه في الدين وأن حرية العقيدة مبدأ مقدس .

(١) سورة الفرقان : الآية (٧٤) .

(٢) ابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها - ص ٢ .

(٣) سئل ابن إسحق : وما الرحم الذي ذكره رسول الله ﷺ فقال كانت هاجر أم إسماعيل منهم .

فأدرك المصريون الفارق الجوهرى بين عهد الرومان وعهد العرب كما شاهدوا عمرو بن العاص يخفف عنهم وطأة الضرائب ، ويساوى بين الناس من أدائها ، لا فرق بين كبير وصغير ، وقوى وضعيف ، ومسلم وكلى . وشاهد المصريون من تسامح العرب الدينى ، ما ذكرهم بالشدائد التى لا قورها من قاطرة الرومان ، سواء منهم من كانوا على الوثنية أو بعد اعتناقهم المسيحية ، فقد اضطهدوا المصريين المسيحيين اضطهادًا دينيًا .

وحتى بعد أن اعتنقوا المسيحية اضطهدوا المصريين لإكراههم على اتباع مذهبهم الرسمى ، بل خرب هؤلاء وأولئك كثيرًا من الآثار المصرية القديمة .

فلما جاء العرب رعوا حرية العقيدة واحترموا ، كما احترمو آثار الفراعنة ولم يمسوها بسوء ، ولم يفعلوا مثلما فعل الرومان أو الفرس أو الآشوريون .

فلا غرو أن أقبيل المصريون وقساوستهم على عهد العرب مبهجين .

وكان من نتائج الحرية الدينية التى أقرها العرب أن انتهى كثير من المصريين على توالى السنين إلى قبول الإسلام ، فدخلوا فيه أفواجًا .

ولم يكن دخولهم فيه كرهاً أو عن ضغط واضطهاد ، فإن المبدأ الذى اتبعه العرب هو حرية العقيدة .

وفى ذلك يقول مؤرخ أجنبى منصف ، وهو ألفريد بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) : « إن بعض الأقباط أخذوا عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلمهم ويجعلهم إخوانهم فى كل شىء ، يسهم لهم فى الفىء ، ولا يفرض عليهم الجزية ، فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام ولاسيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنًا وحطم يقينهم باضطهاده »^(١) .

وقال فى موضع آخر : « ليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم من الأقباط إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لا شك فيه أن كثيرًا منه أسلم لما كان يطمع فيه مساواة بالمسلمين ، الفاتحين ، حتى يكون له ما لهم ، وينجو من دفع الجزية ، ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية ، وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصانة قد كرهوا المسيحية لما كان فيها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله . ونسيت ذلك فى ثوراتها وحرورها التى كانت تنشب بين شيعها وأحزانتها ، ومنذ بدا ذلك هؤلاء العقلاء ، لجثوا إلى الإسلام ، فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته »^(٢) .

(١) ألفريد بتلر - فتح العرب لمصر - المرجع السابق ص ٢٤٣ .

(٢) ألفريد بتلر - المرجع السابق ص ٣٨٥ .

وقال لمناسبة الصلح الذى عقد على تسليم الإسكندرية للعرب :

« ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذى حمل أهل الإسكندرية على قبول ذلك الصلح ،
وإيادارة إلى الرضا عن قيرس (المقوقس) ، بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه ، ولكنهم
لم يكونوا صادقين عن نزع في اتصافهم عن دولتهم (دولة الرومان) ، وصدوفهم عنها ورضائهم
بالإذعان لحكم الإسلام ، وليس ثمت إلا رأى واحد فوق ما سبق لنا ذكره : نفس به ما كان
منهم ، ذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الخدثان ، وكرهوا فساد الحكم الذى
أثقل كواهلهم مدة أربعين عامًا ، وقالوا فى أنفسهم : لعنا نجد فى حكم المسلمين استقرارًا
واطمئنانًا نأمن فيه على ديننا فلا نكره فيه ، وعلى أموالنا فلا نتحمل من الخراج والجزية إلا قدرًا
نطبقه ، ولعل أكثر ما حملهم على الرضا بحكم العرب رفع ما كان يهظهم من الضرائب ، فقد
كان الرومان يجبون من مصر أموالا يتعذر علينا أن نعرف مقدارها ، ولكنها كانت بلا شك كثيرة
الأنواع ثقيلة الوطأة ، شديدة الأذى ، فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض ، ومهما يكن
من مقدارها فقد كانت لها فضيلة البساطة ، وكانت ثابتة المقدار ومحدودة القصد ، وكانت أقل
فى جملتها مما كان يجيه الرومان^(١) .

هذا ، وإن ما شاهده المصريون أو استذكروه من مظالم البطالة ، ثم مظالم الرومان ، ومن
قبلهم ظلم الفرس والآشوريين ، قد أثار بصائرهم وزاد من وعيهم ، وجعلهم يعتقدون بحق أن
الحكم الأجنبي ، لا يمكن الاطمئنان إليه ، فلقد رأوا الإسكندر بادئ الأمر ، منقادًا لهم من ظلم
الفرس ، ثم ما لبث حلفاؤه البطالة أن اتخذوا مصر مستعمرة لهم ، ثم رأوا من ظلم الرومان شرا
مما رأوا من البطالة .

فهذه التجارب التى استمرت عدة قرون جعلتهم يفكرون فى ألا بد لهم من اتجاه جديد
فى الروابط الدولية ، يجعلهم آمنين على حياتهم وعقائدهم ومستقبلهم واستقلالهم .
فاعتزموا ، وقد ساءت ظنونهم فى المجموعة الأوروبية ، أن ينضموا إلى الكتلة العربية
الشرقية ، إذ وجدوا فيها العدل والإنسانية ، والفضائل القومية ، فانضمت مصر إلى المجموعة
العربية .

وفى الحق إن للمستعمرين من الإغريق والرومان أو الأعاجم من الشرقيين ، قد برهنوا على
أنهم أقوام قساة القلوب ، غلاظ الأكباد ، لم تعرف الإنسانية إلى قلوبهم سيلا ، وهذا ما جعل
المصريين ينظرون إلى الفتح العربى كمنقذ لهم من ظلم الرومان واليونانيين ، ومن قبلهم ظلم الأعاجم
من الشرقيين ، كالفرس والآشوريين .

قد لا يكون هذا الاتجاه نتيجة تمحيص وتحقيق ، بل هو إلهام للشعوب فى الساعات الفاصلة

(١) ألفريد بتلر - فتح العرب لمصر - المرجع السابق - ص ٢٩٢ .

فى تاريخها ، وبخاصة فى ظروف الانتقال ، وهو بالنسبة لمصر دليل على ما فطر عليه الشعب
المصرى من إرهاب للحس ، وحسن بصير فى الأمور ، فالشعب المصرى بماضيه فى الحياة القومية
والحضارة المجيدة ، قد أحس أنه أقرب للعرب جوارًا وصلات روحية وثقافية ، فاتحمت نفسه
بفطرتة السليمة إلى أن يكون جزءا من الكتلة العربية ، بدلا من الكتلة الأوروبية أو الشرفية
الأعجمية .

أضف إلى ذلك ما كان من تأثير عامل اللغة فى هذا التطور ، فإن انتشار اللغة العربية فى
مصر على تعاقب السنين قد مهد لجعل المصريين عربًا ، لأن اللغة هى ولا ريب من أقوى الروابط
بين الأمم والجماعات ، بل هى من أركان القوميات .

وزاد فى تأثير لغة الضاد أن اللغة المصرية القديمة (الميروغليفية) ، قد تراجعت وتقلضت
قبل الفتح العربى بعدة قرون ، وحل محلها اللغة الديموتيقية أى اللغة العامية ، لغة الجمهور ، وجاء
البطالة ، وأحلوا محل اللسائين لغتهم اليونانية ، وجعلوها لغة الدولة الرسمية ، وظلوا كذلك ثلاثة
قرون متوالية ، وجاء الرومان من بعدهم فأبقوا على اللغة اليونانية ، واتخذوها أيضا لغة الحكومة
ولغة التعامل فى مصر ، فلما جاء الفتح العربى ، وجدت اللغة العربية أن المجال مهيأ لانتشارها
بين المصريين .

ولقد تم هذا الانتقال فى يسر وسهولة ، إذ كان وليد الفطرة والحس المرهف .

وهذا ما جعل الشعب المصرى يتطور من ناحية اللغة والثقافة والتفكير إلى حيث صارت مصر
مع الزمن الدولة العربية الكبرى ، قاعدة العروبة وعلمها الخفاق ، ومصدر الإشعاع العربى للبلدان
القرية والبعيدة .

٣ - قائمة الكرنك

ومن الآثار القديمة التي ظلت مصدرا لتاريخ مصرى القديم القائمة المعروفة بقائمة الكرنك .
نقش عليها أسماء الملوك ، وقد أمر بنقشها عاهل مصر العظيم توتمس الثالث ، وهذه القائمة منقوش
عليها أسماء المنك على جدران حجرة يطلق عليها حجرة الأجداد .

٤ و ٥ - قائمة العراة المدفونة (أيديوس) وقائمة سقارة

وهناك قائمة العراة المدفونة وقائمة سقارة .

ويرجع تاريخ الأولى إلى عهد سيتي الأول ، من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، فقد أراد أن
يخلد ذكرى أجداده فنقش أسماءهم فى إحدى قاعات معبده بالعراة المدفونة ، وبدأ بالملك مينتا ،
وهى محفوظة بمتحف القاهرة .

وترجع الثانية إلى عهد رمسيس الثانى ، وهو موجودة بمتحف القاهرة .

٦ - بردية تورين

وعدا هذه القوائم المنقوشة على الأحجار توجد وثيقة أخرى يطلق عليها اسم (بردية تورين) ،
وهى تشمل أسماء الملوك إلى الأسرة التاسعة عشرة .
ومما يؤسف له أن هذه البردية قد مزقت قطعاً عدة ، ولم يتمكن العلماء من وضع كثير
من قطعها فى مكانها الأصلى .

المتاحف

ومن المصادر الهامة لتاريخ مصر القديمة المتاحف فى مصر والخارج ، فهى تزخر بآثار مصر
القديمة ومظاهر حضارتها .

كتابات المؤرخين القدماء

الذين كتبوا عن مصر فى العهود القديمة أو القرية منها

ثم تأتى الكتب التى وضعها المؤرخون أو الرحالة القدماء الذين عاصروا مصر القديمة ، أو
كانوا قريبين من عصرها ، فكتابتهم ومشاهداتهم تعتبر من المصادر الأصلية الثانوية لتاريخ مصر
القديمة نذكر منهم :

هيكاته Hecatus الملطى ، نسبة إلى ملطية إحدى مدن اليونان بآسيا الصغرى . وقد زار مصر

مصادر التاريخ المصرى القديم ومراجع البحث

١ - الآثار المصرية القديمة

إن الآثار المصرية ، كالأهرام والمعابد والمقابر والمسلات ، وما تحويه من الصور والتمائيل
والنقوش والكتابات ، وما تضمنته أيضاً أوراق البردى ، هى أول مصدر لتاريخ مصر القديمة .
هذا ، وأنا لم أرجع إلى هذه المصادر الأصلية ، لأن دراستها واستخلاص الحقائق منها
يختص به علماء الآثار المبرزون الذين اكتشفوا محتوياتها على تعاقب السنين .

حقاً إننى زرت الآثار المصرية زيارة علمية سنة ١٩٣٤ ، لمناسبة قضية المقال محمود مختار
التي ترافعت عنه فيها ضد وزارة الأشغال ، فقد نذبت المحكمة المسيو شارل نيراس مدير الفنون
الجميلة بوزارة المعارف العمومية وقتئذ ، لمعاينة محاجر أسوان ، وصحبه فى هذه الرحلة ،
وكان يمثل الحكومة فى المعاينة الأستاذ عبد الرحيم نجيم نائب قلم قضايا الحكومة فى ذلك
الحين ؛ (رئيس محكمة استئناف القاهرة فيما بعد والحامى الآن) ، ومندوبين عن وزارة الأشغال .
وقد زرنا مناطق الآثار فى الأقصر والكرنك وطيبة وأدفو وجزيرة أسوان ، وشرح لنا المسيو
شارل نيراس الآثار القديمة شرحاً علمياً ، ومكنتنا فى هذه الزيارة عدة أيام .

واستوفينا هذه الآثار بحثاً وتمحيصاً .

وفى سنة ١٩٦٣ زرت معابد النوبة ، وخاصة معبدى (أبو سمبل) ، وكنت برفقة نخبة
من أعضاء لجنة التاريخ والآثار بمجلس الآداب والفنون ، وهم : الدكتور أحمد فخرى ،
والدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، والأستاذ حسن عبد الوهاب . والدكتور جمال محرز ،
وكان يصاحبنا أيضاً الأديب يوسف الشارونى والأستاذ محمد أحمد على سكرتير اللجنة ، وشاهدنا
عظمة الفن والتاريخ فى هذه المعابد ، وشرح لنا الدكتور أحمد فخرى دقائقها وروائعها .
على أنى لم أجعل اعتمادى على مشاهداتى ، بل رجعت إلى ما كتبه العلماء عنه .

قوائم الملوك فى الآثار القديمة

٢ - حجر بالرمو

وهناك الحجر المعروف بحجر (بالرمو) ، وقد نسب إلى هذا البلد لأن الجزء الأكبر منه
موجود إلى الآن فى متحف بالرمو بجزيرة صقلية ، وبقية بمتحف القاهرة ، وفيه أسماء الملوك
من قبل حكم الأسرات إلى الأسرة الخامسة ، وقد نقش هذا الحجر فى عهد الأسرة الخامسة .

عن عهد البطالمة والرومان

- إبراهيم نصحي - تاريخ مصر في عصر البطالمة في جزئين .
- بيير جوجيه - مصر البطلمية . Pierre Jouguet-L'Égypte ptolémaïque
- يوشيه لكزك - تاريخ اللاجيدين (البطالمة^(١)) - في جزئين وهو من أهم المراجع في تاريخ البطالمة .
- Bouche Lecterq-Histoire des Lagides
- بيغان - تاريخ اللاجيدين في جزئين . Bevan-Histoire des Lagides
- محمد عواد حسين - حركات المقاومة الوطنية في مصر البطلمية .
- فيكتور شابو - مصر الرومانية . Victor Chapot-L'Égypte Romaine
- دييهل - مصر المسيحية والبيزنطية . Diehl-L'Égypte Chrétienne et byzantine
- هارولد بل - H. Bell الهلينية في مصر - تعريب الأستاذ زكي على .
- ميلن - تاريخ مصر تحت الحكم الروماني .
- Milne-History of Egypt under roman rule
- أدوار جيبون - اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية .
- Gibbon-Decline and Fall of the Roman Empire

عن الفتح العربي لمصر

- ابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها .
- البلاذري - فتوح البلدان .
- الطبري - تاريخ الأمم والملوك - ١٣ جزءا .
- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ١٢ جزءا .
- المقرئ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - أربعة أجزاء .
- أبو الفداء - المختصر في أخبار البشر - أربعة أجزاء .
- ابن تغري بردى - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ١١ جزءا .
- السيوطي - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .
- القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ٤ أجزاء .

(١) نسبة إلى لاجوس أبي بطليموس الأول .

- جون ويلسن John Wilson الحضارة المصرية The Burden of Egypt تعريب الدكتور أحمد فخري .
- أدلف أرمان Erman مصر والحياة المصرية في العصور القديمة . تعريب الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال .
- ديرتون وفاندييه Diroton et Vendier شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط ، الجزء الثاني مصر .

Les Peuples de L'Orient méditerranéen

- هنري حجوتيه ، الوجيز في تاريخ مصر ، الجزء الثاني (مصر الفرعونية) .
- H. F Gautier-Percis de L'histoire de Égypte pharaonique
- بوزنر - التسلط الفارسي الأول على مصر .
- Posner-La premiere dominatisu perse en Egypte
- ويجول - تاريخ الفراعنة . Weiggall-History of the pharaons
- فلندرس بترى - تاريخ مصر . Flinders Petrie-A History of Egypt
- شامبليون فيجاك - مصر القديمة . L'Égypte ancienne- Champollion-Figeac
- شامبليون الشاب - مصر تحت حكم الفراعنة .
- Chompollion le Jeune-L'Égypte sous Les pharaons

- عبد المنعم أبو بكر - مراكب الشمس .
- عبد المنعم أبو بكر - إخناتون .
- أدوارد - أهرام مصر .
- تعريب مصطفى أحمد عثمان .
- تاريخ العالم - نشره بالإنجليزية السيرجون هامرتن .
- تعريب إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية .
- ظهر من التعريب حتى الآن خمسة أجزاء .
- وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، لنخبة من العلماء .
- جاستون ماسيرو - تاريخ المشرق ، شعوب الشرق القديم .
- Maspero- Histoire ancienne des peuples de L'Orient
- إسكندر شارف Alexander Sharff تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية ، تعريب الدكتور عبد المنعم أبو بكر .
- عمر ممدوح مصطفى - أصول تاريخ القاتون .

فهرس الكتاب

صفحة	
	الفصل الثاني
	الثورة الاجتماعية فى القرن الثالث
	والعشرين قبل الميلاد
٤١	الأسرة السادسة
٤١	ببى الأول
٤١	الحملة فى فلسطين وسورية
٤١	القائد أونى
٤٢	مرن رع
٤٢	بببى الثانى - أطول حكم فى التاريخ
٤٣	الرحالة (حر خوف)
٤٣	الأسرات السابعة إلى العاشرة
٤٣	الثورة الاجتماعية الأولى
٤٥	سبعون ملكا فى سبعين يوماً
٤٥	هدف الثورة يتحقق على يد رجل برز
٤٥	من صفوف الشعب وهو أمتهات
٤٦	نتائج الثورة
٤٦	انتهاء الدولة القديمة
٤٧	نظرة فى أعمال الدولة القديمة
	الفصل الثالث
	الدولة الحديثة
٤٨	الأسرة الحادية عشرة وبداية الدولة الحديثة
٤٨	أنشأ مؤسس الأسرة الحادية عشرة
٤٨	متوحب الثانى . وإعادة الدولة القديمة
٤٩	الأسرة الثانية عشرة . أسرة أمنموت

صفحة	
١١	مقدمة الكتاب
	لسلسلة تاريخ الحركة القومية فى العصر
١٥	الحديث
	الفصل الأول
	الوحدة القومية . والدولة القديمة
٢٥	الملك مينا وتأليف الوحدة القومية
٢٥	طبة عاصمة الدولة الموحدة
٢٦	تأسيس مدينة (منف)
٢٧	الحضارة المصرية قبل الوحدة
٢٨	المصريون أول من اكتشفوا التقويم السنوى
٢٩	وأول من اكتشفوا القراءة والكتابة
٣٠	الأسرتان الأولى والثانية
٣٠	الأسرة الثالثة - زوسر
٣١	إيمحوتب أبو الطب فى مصر
	والعالم
٣٢	الأسرة الرابعة . بناء الأهرام
٣٢	سفر
٣٣	خوفو . بانى الهرم الأكبر
٣٣	نظرة فى بناء الأهرام
٣٧	خفرع بانى الهرم الثانى
٣٨	منكارورع بانى الهرم الثالث
٣٨	أبو الهول
٤٠	الأسرة الخامسة
٤٠	البحرية فى عهد ساحورع

- ٠ جوستاف لبيون - تمدن العرب . Gustave le Bon-La Civilisation des Arabes
- ٠ حسن إبراهيم حسن - عمرو بن العاص .
- ٠ رفيق العظم - أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب واسباسة ، الجزء الثالث .
- ٠ بتلر - فتح العرب لمصر - تعريب محمد فريد أبو حديد .
- Butler- The Arab conquest of Egypt
- ٠ محمد حسين هيكل - الفاروق عمر .
- ٠ ستانلى لين بول - تاريخ مصر فى العصور الوسطى .
- A History of Egypt in the Middle Ages
- ٠ ستانلى لين بول - سيرة القاهرة ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين .
- Story of Cairo
- ٠ سديو - تاريخ العرب . Sedillot-Hist. Générale des Arabes
- ٠ ياقوت الحموى - معجم البلدان - ١٢ جزءا .
- ٠ على مبارك - الخطط التوفيقية - فى عشرين جزءا .
- ٠ محمد رمزى - القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ .

الفصل السابع	
إختاتون وثورته الدينية	
٩٢	شخصية إختاتون
	تحريك الحثيين للفتن في سورية وسكوت
٩٢	إختاتون
٩٤	من أناشيد إختاتون الدينية
٩٨	التوحيد عند قدماء المصريين
١٠٠	الملكة (نقرتي) زوجة إختاتون
١٠٠	خلفاء إختاتون
١٠٠	سمح كارع
١٠٠	توت عنخ آمون
١٠١	آى
١٠١	حور محب
١٠٢	إصلاحات حور محب

الفصل الثامن	
رمسيس الثانى . وحروبه الدفاعية	
١٠٤	الأسرة التاسعة عشرة
١٠٤	رمسيس الأول
١٠٤	سيتى الأول
١٠٥	رمسيس الثانى
١٠٥	تحدى اخييين لمصر
١٠٧	معركة قادش
	معاهدة صلح وعدم اعتداء بين مصر
١١٠	وخيتا
١١٠	الترقى بين رمسيس الثانى وحموتس الثالث
١١٠	طيبة عاصمة العالم القديم
	ثورة ٢٣ بولية سنة ١٩٥٢ تكريم رمسيس
١١١	الثانى
١١١	أمجاد رمسيس الثانى الثانية

٧٢	حروب قديمة ذميمة
٧٣	تقوية الجيش وإدكاء الروح الحربية
٧٤	خلفاء أحس الأول
٧٤	أمنحوب الأول
٧٤	حموتس الأول
٧٤	حموتس الثانى
٧٥	الملكة حتشبسوت
٧٦	اتجاهها إلى الإصلاح والتعمير
٧٧	رحلة بحرية إلى الصومال
٧٧	حموتس الثالث

الفصل السادس	
أوج المجد . مصر فى عهد حموتس الثالث	
٨٠	بداية عهد حموتس الثالث
٨٠	تحالف بين أعداء مصر فى سورية وليبان
٨١	معركة مجدو . وانتصار مصر فيها
٨٣	نتائج معركة مجدو
٨٣	سقوط قادش
٨٤	سقوط قرقرمش
	اتساع حدود الدولة المصرية من أعالي
	الفرات شمالا إلى الشلال الرابع على النيل
	جنوبا
٨٤	نابليون الشرق
٨٦	بين مصر وسورية
٨٦	وفاة حموتس الثالث
٨٨	خلفاء حموتس الثالث
٨٨	أمنحوب الثانى
٨٨	حموتس الرابع
٨٩	أمنحوب الثالث
٨٩	الملكة (تى) زوجة أمنحوب الثالث

٦٣	تاريخ الغزو الهكسوسى وتاريخ التحرير منه
	الغزو الهكسوسى والاحتلال البريطانى
٦٣	ومدة كليهما
	الأسراتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة
	من الهكسوس ولا يصح إحصاؤهما ضمن
٦٤	الأسرات المصرية
	سقتن رع من ملوك الأسرة السابعة عشرة
٦٤	يبدأ حرب التحرير
٦٤	مقتل سقتن رع فى حرب التحرير
٦٤	كاسم يخلف أباه سقتن رع فى الجهاد
٦٤	مقتل كاسم فى حرب التحرير
٦٤	أحس يخلف أخاه فى حرب التحرير
٦٤	أحس يجر مصر من الهكسوس
٦٥	أبطال الاستقلال من الرجال والنساء
٦٥	سقتن رع
٦٦	الملكة تى شرى أم تفتن رع
٦٦	الملكة أياح حوتب
٦٦	كاسم
٦٦	أحس
٦٦	نقرتارى
٦٩	تمجيد البطولة وتخليدها
٧٠	ما هى الإلياذة وما هى الأوديسة
٧١	هل لنا فى هوميير الثورة على الهكسوس

الفصل الخامس	
الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة	
إلى الأسرة الثلاثين	
٧٢	الأسرة الثامنة عشرة
٧٢	أحس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة

٤٩	ميزة أسرة أمنمحات
٥٠	أمنمحات الأول
٥١	خلفاء أمنمحات الأول
٥١	سنوسرت الأول
٥٢	جامعة عين شمس
٥٣	مسلة عين شمس
٥٤	أمنمحات الثانى
٥٤	سنوسرت الثانى
٥٤	سنوسرت الثالث
٥٤	لوحة سنوسرت الثالث . الكفاح الوطنى
	قيادة سنوسرت الثالث التى تصل النيل
	بالبحر الأحمر
٥٥	مصر والبلاد الآسيوية
٥٦	أمنمحات الثالث وأعمال الرى والعميران
٥٧	خزان بحيرة موريس
٦٠	قصر اللايرنت
٦١	أمنمحات الرابع
٦١	الملكة سيك نفر
٦١	الأسراتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة
٦١	الأسرة الرابعة عشرة
الفصل الرابع	
ثورة الشعب على الهكسوس	
٦٢	منشأ الهكسوس
	تفكك الجبهة الداخلية من أسباب غزو
٦٢	الهكسوس
	تخاذل الأسرة الثالثة عشرة والرابعة عشرة
٦٣	أمم الهكسوس
	عاصمة الهكسوس فى شرق الدلتا
٦٣	(أوراريس)

١٥٨	نقل جثمان الإسكندر إلى مصر
١٥٩	مشآت البطالة في الإسكندرية
١٥٩	منارة الإسكندرية
١٦١	بطليموس الثاني
١٦١	بطليموس الثالث
١٦١	بطليموس الرابع
١٦٢	سياسة البطالة في مصر
١٦٢	الفرقة العنصرية
١٦٤	سياسة استعمارية
١٦٧	الثورات على البطالة
١٦٩	أول ثورة على البطالة في عهد بطليموس الثالث معركة رفع سنة ٢١٧ ق. م. والفترة الثانية في عهد بطليموس الرابع
١٧٠	الثورة الثالثة في عهد بطليموس الخامس
١٧٢	الثورة الرابعة في عهد بطليموس السادس وحماية روما للبطالة
١٧٣	الثورة الخامسة في عهد بطليموس الثامن
١٧٤	الثورة السادسة في عهد بطليموس التاسع والعاشر
١٧٥	بطليموس الثاني عشر (الزمار)
١٧٦	كليوبترة
١٧٧	مصرع بومبي
١٧٧	يوليوس قيصر وكليوبترة
١٧٨	الحرب في الإسكندرية
١٧٩	مصرع يوليوس قيصر
١٧٩	عودة كليوبترة إلى مصر
١٧٩	كليوبترة وأنطونيوس
١٨٠	معركة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق. م.
١٨٠	انتحار أنطونيوس. ثم انتحار كليوبترة
١٨١	كليوبترة. آخر البطالة

١٤٠	انتحار قيصر
١٤٠	ثورات الشعب على الاحتلال الفارسي
١٤٠	الثورة الأولى
١٤١	الثورة الثانية
١٤١	الثورة الثالثة. جلاء الفرس للمرة الأولى
١٤٣	نقطاب الأول ونقطاب الثاني
	عودة الفرس إلى مصر. ثم مجيء الإسكندر الأكبر
١٤٣	ملحق للفصول السابقة
١٤٤	الأسرات الملكية في مصر القديمة
الفصل الثاني عشر	
الإسكندر الأكبر في مصر.	
وجلاء الفرس عنها (سنة ٣٣٢ ق. م.)	
١٥١	تمهيد
١٥٢	دخول الإسكندر مصر
١٥٣	سياسة الإسكندر في مصر
١٥٣	الاستقلال الداخلي لمصر
١٥٤	تأسيس الإسكندرية
١٥٦	زيارة الإسكندر لواحة سيوة
١٥٦	مغادرة الإسكندر مصر وإتمام فوجاته
١٥٦	وفاته
الفصل الثالث عشر	
البطالة في مصر	
وثورات الشعب عليهم	
١٥٧	اقسام دولة الإسكندر بين قواده
١٥٧	مصر من نصيب بطليموس بن لاجوس
١٥٧	أسرة البطالة في مصر
١٥٧	بطليموس الأول

١٢٨	الأمير نيخاو
	الأسرة السادسة والعشرون أبسماتيك
١٢٩	الأول
	فضل الحضارة المصرية على حضارة اليونان
١٣٠	خلفاء أبسماتيك الأول
١٣٢	نيخاو الثاني
١٣٢	معركة أخرى في قرقيش
١٣٢	الطواف حول القارة الإفريقية
١٣٣	قناة نيخاو
١٣٣	أبسماتيك الثاني
١٣٣	إيريس
١٣٣	أمازيس
١٣٤	أبسماتيك الثالث. والغزو الفارسي
الفصل الحادى عشر	
الغزو الفارسي	
وثورات الشعب عليه	
نكبة البلاد بالغزو الفارسي سنة ٥٢٥ ق. م.	
١٣٥	مقدمات الغزو الفارسي
١٣٥	الخيانات الثلاث
١٣٥	خيانة اليهود
١٣٦	خيانة فانيس
١٣٦	خيانة البدو في سيناء
١٣٦	سير الغزو
١٣٨	مقتل أبسماتيك الثالث
١٣٨	أحمد شوقي يسجل هذا الحادث
١٣٩	هزيمة قمبيز في النوبة
١٣٩	هزيمة قمبيز في الصحراء الغربية

١١١	تأسيس مدينة (بروميس)
١١٣	معبد الرميوم
١١٣	إتمام بهو المعبد العظيمة بالكرك
١١٣	معبد (أبو سميل)
١١٦	معبد (أبو سميل) الكبير
١١٦	معبد (أبو سميل) الصغير
١١٨	وفاة رمسيس الثاني
الفصل التاسع	
الدفاع عن كيان مصر	
في عهد خلفاء رمسيس الثاني	
١١٩	تحركات أعداء مصر
١١٩	مفتاح يصد الغارات عن مصر
١٢١	سبتي الثاني
١٢١	الأسرة العشرون
١٢١	الأسرة الحادية والعشرون
١٢٢	الأسرة الثانية والعشرون
	شيشنق الأول مؤسس الأسرة الثانية والعشرين وخلفاؤه
١٢٢	الأسرتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون
١٢٤	قانون بوخوريس
١٢٤	الأسرة بعنخي
١٢٥	خلفاء بعنخي
١٢٦	خلفاء بعنخي
الفصل العاشر	
تحرير مصر من الاحتلال الآشوري	
١٢٧	أطماع آشور في مصر
١٢٧	زحف آشور على مصر
١٢٧	طهارة بطل المقاومة
	الآشوريون يهاجمون مصر ويتصرفون الشعب يجارب الاحتلال الآشوري

٢١٧ لماذا قوبل الفتح العربي
٢١٩ انضمام مصر إلى المندوبية العربية

١٩٨ فتح القراما (بيلوز)
١٩٨ واقعة بليس
١٩٩ معركة أم دين
٢٠٠ فتح القيوم
٢٠٠ وصول المدد إلى العرب
٢٠٠ واقعة عين شمس
٢٠١ حصار حصن بابلون واقتحامه
٢٠٢ المفاوضات بين عمرو بن العاص والمقوقس
٢٠٤ الهدنة
٢٠٥ استئناف القتال
٢٠٥ وفاة هرقل
٢٠٥ فتح الحصن عنوة
٢٠٦ في طريق الزحف على الإسكندرية
٢٠٧ حصار الإسكندرية وفتحها
٢٠٧ تسليم الإسكندرية
٢٠٨ فتح بعض المدن والقرى
٢٠٨ فتح برقة
٢٠٩ محاولة الرومان استرداد الإسكندرية وقتلهم
مسألة حريق مكتبة الإسكندرية ونفيه عن
العرب
٢١٢ عمرو بن العاص يتولى شؤون مصر
٢١٢ إعادة البطريق بنيامين
٢١٣ وصف مصر بقلم عمرو بن العاص
٢١٤ عمرو بن العاص يزيد تحديد النسل
٢١٤ إنشاء القسطنطينية عاصمة مصر
٢١٥ تحديد القسطنطينية
٢١٥ جامع عمرو بن العاص
٢١٦ حفر خليج أمير المؤمنين
٢١٧ وفاة عمرو بن العاص

الفصل الرابع عشر مقاومة مصر للاستعمار الروماني - عصر الشهداء

١٨٣ الاحتلال الروماني لمصر
١٨٤ مظالم الحكم الروماني
١٨٦ الثورات على الرومان
١٨٦ الثورة في منطقة طيبة
١٨٧ الثورة في الشمال الشرقي من الدنيا
١٨٧ الثورة في النوبة
١٨٧ عداء المصريين للرومان واليهود
١٨٧ ظهور المسيحية في مصر
١٨٨ اضطهاد الرومان للمسيحيين في مصر
١٨٨ عصر الشهداء
١٨٩ اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية
عودة الفرس لاحتلال مصر ثم إجلاؤهم
عنها
استمرار الاضطهاد الديني بعد اعتناق
الرومان للمسيحية

الفصل الخامس عشر الفتح العربي لمصر

١٩١ الفتح العربي والوحدة العربية
١٩٢ ماذا كانت عليه حالة مصر قبل الفتح العربي
١٩٥ المقوقس
١٩٦ الاضطهاد الأعظم
١٩٦ اشكير في فتح مصر
١٩٧ عمرو بن العاص
١٩٧ تردد عمر بن الخطاب
١٩٨ وقائع الفتح العربي
١٩٨ فتح العريش دون قتال

فهرس الصور والخرائط

صفحة	
٣١	هرم زوسر المدرج بسقارة
٣٤	خوفو . باتى اهره الأكبر
٣٤	الهرم الأكبر بالجزيرة (هره خوفو)
٣٦	الأهرام الثلاثة بالجزيرة
٣٧	خضوع باتى اهره الثانى بالجزيرة
٣٨	مكاورع باتى اهره الثالث بالجزيرة
٣٩	الهرمان الثانى والثالث بالجزيرة . وتمثال (أبو الهول)
٤٢	يسى الأول
٥١	سنوسرت الأول . مشيد مسلة عين شمس
٥٣	مسلة سنوسرت الأول بعين شمس
٥٥	سنوسرت الثالث
٥٧	أمنمحات الثالث
٥٨	بحيرة موريس القديمة
٥٩	موقع خزان بحيرة موريس
٦٧	الملك سقن رع . بطل حرب الاستقلال ضد الهكسوس
٦٧	الملكة تى شرى أم سقن رع
٦٨	الملكة البطلة إياح . حوتب زوجة سقن رع
٦٨	الملكة نفرتارى بنت إياح حوتب
٦٩	أجس الأول محرر مصر من الهكسوس
٧٥	معبد الدير البحرى . شيدته الملكة حشبوت
٧٥	سفينتان من سفن الحملة البحرية التجارية التى أنفذتها حشبوت إلى الصومال
٧٦	تمثال الملكة حشبوت فى شكل (أبو الهول)
٧٨	إيريس والدة البطل العظيم تحوتمس الثالث
٧٩	تحوتمس الثالث
٨٢	خريطة معركة مجدو
٨٥	خريطة الدولة المصرية فى عهد تحوتمس الثالث
٨٩	الملكة تى زوجة أمنحوتب الثالث
٢٣٧	

للمؤلف

- حقوق الشعب : كتاب وضعه سنة ١٩١٢ ، يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية ، وحقوق الإنسان ، في قالب محاضرات لتعليم الشعب حقوقه .
- نقابات التعاون الزراعية : كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعي ومنشأته ونظمه في أوروبا . والشركات التي عادت منه على البلاد الأوروبية ، وتناولنا فيه نشأة التعاون في مصر ، وتاريخه ونظامه ونقائمه ومنشأته ومزاياه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية ، طبع سنة ١٩١٤ .
- كتاب الجمعيات الوطنية : يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية في طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها ، طبع سنة ١٩٢٢ .
- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر :
- الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث . وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، وتاريخ مصر القومي في هذا العهد .
 - الجزء الثاني : من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي أريكة مصر بإرادة الشعب .
- عصر محمد علي : يتناول تاريخ مصر القومي في عهد محمد علي .
- عصر إسماعيل :
- الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل .
 - الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل .
- الثورة العرابية : والاحتلال الإنجليزي .
- مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال : تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ .
- مصطفى كامل يبعث الحركة الوطنية : تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩٠٨ .

٩٣	أخاتون . ملك مصر . وصاحب الثورة الدينية
٩٩	الملكة نفرتيتي زوجة اخاتون
١٠١	توت عنخ آمون
١٠٢	حور محب برز من صفوف الشعب وصار زعيماً وحاكماً ومصلاً اجتماعياً
١٠٦	رمسيس الثاني في عتفوان شبابه
١٠٨	خريطة معركة قادش
١١١	معبد الرمسوم بالر الغربي للنيل
١١٢	البهو الكبير ذو العمدة العظيمة بالكركك
١١٤	التمثالان المائلان لرمسيس الثاني بمدخل معبد (أوسيميل) الكبير
١١٥	واجهة معبد (أوسيميل) الكبير
١١٥	واجهة معبد (أوسيميل) الصغير
١١٦	معبد (أوسيميل) الكبير والصغير
	الملكة نفرتاري . زوجة رمسيس الثاني المفضلة
١١٧	كما تبدو منقوشة على جدران معبد (أوسيميل) الكبير
١١٨	صخور التوبة على شاطئ النيل
١٢٠	مفتاح بن رمسيس الثاني
١٢١	شيشق الأول
١٢٨	طهارة . بطل المقاومة ضد الغزو الآشوري
١٢٩	أبسماتيك الأول . محرر مصر من الآشوريين
١٣٧	الملك الشهيد أبسماتيك الثالث
١٤٢	نقشاتب الثاني . آخر ملوك الفراعنة في مصر
١٥٥	فروع النيل القديمة
١٥٨	خريطة الإسكندرية في عهد البطالمة
١٦٠	منارة الإسكندرية
١٩٩	خريطة الفتح العربي لمصر
٢٠١	حصن بابلون
٢١٥	جامع عمرو بن العاص
٢١٦	خليج أمير المؤمنين

- محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة

١٩١٩ .

- ثورة سنة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ :

٥ الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة وتطور الحوادث

من بعد انتهاء الحرب إلى شيوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

٥ الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ، ومحاکمات الثورة ولجنة ملتر

والحوادث التى لا يستها ومفاوضات ملتر واستشارة الأمة فى مشروع ملتر والتبليغ البريطانى بأن

الحماية علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

- مذكراتى (١٨٨٩ - ١٩٥١) : خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

- شعراء الوطنية فى مصر : تراجمهم ، وشعرهم الوطنى ، والمناسبات التى نظموا فيها

قصائدهم .

- أربعة عشر عامًا فى البرلمان : مجموعة أعمالى وأقوالى فى البرلمان ، فى مجلس النواب

سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ .

- مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ : الكفاح فى القتال سنة ١٩٥١ ، حريق القاهرة

سنة ١٩٥٢ ، وزارات الموظفين ، أسباب الثورة ، فاروق يمهد للثورة .

- ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ : تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ .

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٥٦٧٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5661-7

١/٨٩/٦٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)